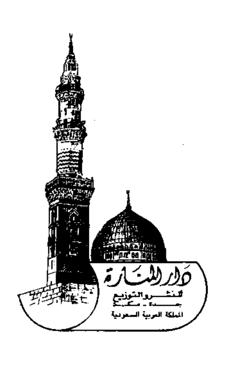
هتاف المجد

علي الطنطاوي

دار المنارة
للنشر والتوزيع
جدة - السعودية

الطبعة الثالثة

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م



دار المنارة
للنشر والتوزيع
جدة - السعودية

جدة: ٢١٤٣١، ص.ب: ١٢٥٠ - هاتف الإدارة: ٦٦٠٣٦٥٢
هاتف وفاكس: ٦٦٠٣٢٣٨ - هاتف المستودع: ٦٦٧٥٨٦٤

هتاف المجد

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره
ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا
من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له
اللهم اهدنا الصراط المستقيم وارزقنا الإخلاص
في العمل والثبات عليه وصل اللهم على محمد
وعلى آله وصحبه .

المقدّمة

قصتنا مع اليهود

قعدت أكتب كلمة أقدم بها هذه الطبعة للناس ، فوجدت أنه قد مرَّ على آخر طبعة له تسع وعشرون سنة ، حدثت فيها أحداث ، ووقعت فيها وقائع ، منها ما هو لنا ، وأكثرها علينا ، لو أنّي سلكت في وصفها أو الإشارة إليها ، أو التعليق عليها مسلكي في هذا الكتاب لكان من ذلك كتاب مثله أو أكبر منه .

ولقد رأت هذه الأمة في تاريخها الطويل ، من النصر والهزيمة ، والأيام البيض والأيام السود ، ما تراه كل أمة ، ولكن الذي تواجهه أمة محمد الآن أشد من كل ماواجهت في سالف الأيام ، إن أعداءها يكيدون لها الآن كيداً (مدروساً) ، يُعدّون لحربها خططاً تعمل لها عقول كبيرة جداً ، وتُنْفق عليها أموال كثيرة جداً ، وتسندها جماعات (بل دول) قوية جداً ، ولا نيأس مع ذلك كلِّه من الظفر ، لأن الله وضع لنا في أمور الدنيا وأمور الآخرة سنناً لا تختلف ، هي مثل السنن التي سنَّها الله للوجود ، أعني القوانين التي نسميها القوانين الطبيعية ، لا يؤثر فيها اختلاف المكان ولا الزمان : قانون الجاذبية مثلاً الذي وضعه الله يوم خلق العالم ، واكتشفه (نيوتون) من قريب ، يسري في البلاد التي تتلهب من الحرِّ عند خط الاستواء ، وفي الجبال التي يُغطي هامها الثلج ، عند القطبين ، وتَنْفُذُ الآن كما نفذت قبل قرون وستظل نافذة بعد قرون وقرون منها أن (العاقبة للتقوى) وأن للباطل صولة ، ولكن الظفر للحق .

ولما قبض رسول الله عليه صلاة الله ، ارتد العرب عن دينه ، أو أرادوا هدم ركن من أركانه هو الزكاة ، وحسب ناس أنها نهاية الإسلام ، فما هي إلا أن قام رجل واحد يهزُّ راية القرآن ، ويضرب بسيف محمد حتى عاد المرتدون إلى الدين ، وعاد الإسلام أقوى مما كان .

ويوم وقفت لنا أوربة كلها وكانت جيوش الصليبين أولها في القسطنطينية وآخرها في وسط أوربة ، وتوالت الحملات ، واشتد البلاء ، وغدت لهم في الشام دول وإمارات ، ولبثت القدس نفسها في أيديهم أكثر من تسعين سنة ، ثم كتب الله النصر للحق .

ويوم سال سيل المغول من الشرق ، كما جاء سيل الصليبين من الغرب ، وجرف الدول ، وهدَّ العروس ، وأخذ في طريقه أعظم مدن الأرض يومئذ : بغداد التي كان فيها مليونان من البشر في تلك الأيام ، والتي كانت عاصمة الدنيا ، كل حسن فيها يحمل إليها . وأُلقيت كتبها في دجلة حتى اسود منه ماؤها عند الضفتين ، وما ذاب فيه الحبر الذي كتبت به ، ولكن ثمرات العقول ونتاج الأدمغة ، وخلاصة الفكر البشري .

وما حاق بالمسلمين من قبل ومن بعد من نكبات وارزاء ، فما ضرّها ذلك كله ، لأنها كانت تعرف كيف تمدُّ يدها إلى السلاح (والسلاح قريب منها) ، فتوجهه إلى أعدائها ، وتعرف كيف تشعل المصباح (والمصباح عندها) ، فتبدِّدُ به الظلام من حولها . وما المصباح إلا هذا القرآن ، وما السلاح إلا القلوب المؤمنة ، والعقول المفكرة واليد العاملة التي تعرف كيف تعدُّ القوة لحرب عدوِّها ، مبتغية بذلك رضا ربها ، لا نيل المكاسب من دنياها وآخر ما ابتليت به الاستعمار :

لقد فتحت عيني على الدنيا في أوائل هذا القرن الميلادي وما في ديار الإسلام بقعة لم يدخلها أو يَحُمْ حولها الاستعمار ، إلا هذه الجزيرة التي عصمها الله أن تطأها نعال جندي أجنبي ، أو ترفرف عليها رايته ، ولقد كنت أظن وأنا صغير أن من أصعب الصعب طرد المستعمر من أرضنا ، فسَّهل الله الصعب ، وأدنى البعيد ، وعادت البلاد إلى أهلها .

لم يأتنا الاستقلال عفواً بلا تعب ، ولكن بذلنا له أرواحنا ، وأرقنا دماءنا ، وجاهدنا ، وجالدنا ، وعملنا كل ما استطعنا .

وانجلت الحرب الكبرى وإذا نحن نُبتلى بما هو شر مما كنا فيه ، ابتلينا بشرار الخلق وأخسِّ الأمم . اليهود . لا الذين اتبعوا موسى وآمنوا به ، بل الذين كفروا بموسى وعيسى كما يكفرون بمحمد ، وبدلوا دينهم وكانوا شيعاً ، يختلف طريقها ولكن تتحدُّ في عداوتنا غاياتها .

وكذلك يصنع الآخرون، إنهم إذ كان موقف فيه حرب الإسلام كانوا جميعاً علينا . كان بين أمريكا وروسيا ما صنع الحداد (والنجار ، والذي يعمل الرشاشات والمدافع) . كانوا يختلفون على كل شيء ، ولكن لما قامت هذه الدولة التي ولدت لغير أب شرعي ، والتي جاءت مسخاً مشوهاً ، دولة إسرائيل ، تسابقت الدولتان إلى الاعتراف بها ، ومباركة ولادتها قبل أن تبلغ يوماً وليلة من عمرها . ابتلينا باليهود .

ولو أنّي بُليت بهاشمي خؤولته بنو عبد المدان
لهان عليَّ ما ألقى ولكن تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

* * * *

زعم اليهود أنهم مظلومون ، وأنهم قد نكلّ بهم وأُوذوا ، وأن هتلر أباد خضراءهم وقتل أبناءهم ، فتحركت (الرحمة !) في قلوب الأقوياء من دول الأرض فأرادوا أن يجدوا لهم داراً فلم يجدوا إلا أرضنا ، فأجبرونا أن نخرج من مساكننا ، وأن نمنحهم خيرات بلادنا ، وجاء وزير المتمدنين الذين يلبسون جلود الظباء على أجساد الذئاب ، فأعطاهم (وعداً) بأن يجعل لهم من قلب بلادنا ملجأً : يمنحهم ما لا يَمْلكْ ، وهم لا يستحقون ما منح ، فكانت فضيحة التاريخ البشري التي لم يُسمع بمثلها في حاضر ولا غابر ، وهاهم أولاء اليوم يدعوننا إلى السلام ونبذ الحرب يقولون : أليس السلام خيراً لكم ، فلماذا تراق الدماء ، وتزهق الأرواح ؟ .

إن السلام الذي يدعوننا إليه كالسلام بين اللص الذي اقتحم دارك وقتل بعض أهلك ، وسكن في بعض منزلك ، فلما أردت أن تخرجه ، قال : انظروا إلى هذا (الارهابيّ) . . .

ودعوا إلى الاجتماع على حرب الإرهاب[1]..

لقد هببنا ندافع عن أرضنا ، وهذا الدفاع حق لنا ، ومن يسكت على من يحتل أرضه ؟ أترضى أمريكا أو انكلترا لو سرق عدوٌّ لها قطعة من أرضها عند واشنطن أو لندن ، وقتل ونهب وارتكب السبع الموبقات ثم قال : لماذا القتال ؟ تعالوا يا جماعة نتفاهم .

كنا سنة ١٩٤٨ نقاتل ولاحت لنا تباشير النصر ، فأكرهونا على (هدنة) شَلَّتْ أيدينا ، ومكنت لعدونا ، وكان بنا نقص في القوة وفي التجربة ، فخدعنا وصدقنا ، فتمكن اليهود منّا وضربوا ضربة الجبان ، والجبان إذا تمكن جمع قوته كلها وضرب ضربة واحدة ، لا يقدر على غيرها ، يضربها في ظلمة الليل ، فيكون فيها نجاته أو مماته .

وقد انقضى الآن الليل ، وتنبه الغافل ، وكبر الصغير واشتد عوده ، هل ترون الشجيرات التي تزرع على حافات الشوارع تكون ضعيفة فيمسكونها في قفص من الحديد ، تعتمد عليه ولكنه يكون كالقيد لها ، فإذا غلظ ساقها ، واعتمدت على نفسها ، نبذت القفص عنها . أو استدار عليه جذعها فاحتواه .

فنحن اليوم كالشجرة التي اشتد عودها ، وكنا يوماً كالغصن الطري الذي كان يحتاج إلى ما يدعمه ويعمده .

لقد بدأت الأمور ترجع إلى نصابها ، وانزاحت الغشاوة قليلاً فرآها الناس على حقيقتها ، وما أزاحها إلا حرب رمضان . أعني حرب اكتوبر أو تشرين ، صغرت اسرائيل في عيونهم بعد تلك الحرب وزادت صغاراً بعد هذه الانتفاضة

---

(١) إننا نسمع كل يوم عن فلسطيني أخذ بتهمة (مقاومة الاحتلال) فهل تكون تهمةً مقاومة الحرامي المجرم الذي جاء يحتل دارك ؟

المباركة ، كانت كالبالون الذي يلعب به الأولاد ، فأصابه ثقب . . . فخرج منه بعض الهواء ، لقد بدأت اسرائيل تفتضح وتظهر حقائقها ، حتى إذاعة اسرائيل صارت بعدها هزأة ولم يعد يصدقها أحد ، حتى دعايتها وإعلامها التي طالما خوَّفت به ، لم تستطع يوماً أن تصنع شيئاً مع كرايسكي مستشار النمسا ، مع أنه يهودي تنصرَّ ، سلطت اسرائيل عليه سيوف إعلامها ، واستعانت عليه بأنصارها وحماتها ، وضغطت عليه بكل قواها ، حتى تدخل نيكسون بذاته ، وذهبت عجوز النحس كولدا مائير بذاتها ، ليعيد فتح (ممر الشر) في (شوناو) . الذي مرّ منه إلى اسرائيل ثمانون ألفاً فيهم كثير من أهل الفكر أو الفن أو الصناعة ليكونوا جنوداً لاسرائيل في حربنا ، فعادت اسرائيل بإعلامها وحماتها ورئيسة وزرائها بالخيبة والهوان ، وكان ذلك في حرب رمضان .

بكتْ اسرائيل وشكت أننا هاجمناها في يوم الغفران ، ولم نحترم مقدساتها . . . ! وأنا أسأل أولاً من قال لاسرائيل أنها قد ضمنت الغفران وحددت له يوماً ؟ . كذبت اسرائيل . إن الله لا يغفر أن يشرك به ، واسرائيل (أعني شعبها لا إسرائيل الذي هو يعقوب نبيُّ الله عليه السلام) اسرائيل أشركت حين قالت عزيرٌ ابن الله ، تعالى الله أن يكون له ولد ، أو يكون له كفواً أحد . ما كان الله ليغفر لمن قتلوا النبيين ، وكذبوهم ، وافتروا عليهم ، ولم يدعو في قاموس الجرائم جريمة لم يرتكبوها ، فَعَدُّوا عن قصة الغفران هذه ، ويوم الغفران ، فليس أمامكم إلا النار ، تصلونها في الدنيا بأيدينا بعون الله ، ولنار الآخرة أشدّ .

أما المقدسات ، فما أوقح اسرائيل ! . . . ، هل احترمت مقدسات أحد حتى تطالب بأن تحترم مقدساتها التي لا قداسة لها ؟ أما أحرقت المسجد الأقصى ؟ أما حاولت زعزعة أساسه ؟ وهزَّ أركانه ، لعله يسقط ؟ أما حفروا بحذاء جداره ـ ينزلون في بطن الأرض يأملون أن يصلوا إلى الأساس فيظهر تحته أثر من هيكل سليمان ـ تبلغ الحفر أكثر من خمسة عشر متراً . وليس أمامهم إلا جدار الأقصى ، ولو حفروا بحذاء قلعة خمسة عشر متراً لتزعزع جدراها ومالت لتنهار .

أما دنسوا وآذوا كنيسة القيامة التي يقدسها النصارى وسرقوها ؟ سرقوا

الكنيسة كما أحرقوا المسجد ! . . . ، لصوص ومخربون ، ويبكون ويشكون أن هاجمناهم في يوم عيدهم ، وهم الذين لم يتركوا لأهل فلسطين عيداً يعيّدون فيه ، لقد حوَّل هؤلاء المجرمون أعيادهم مآتم .

هل رعَتْ اسرائيل مريضاً ؟ ، أما خربت المستشفيات وقتلت المرضى والأطباء والممرضات ؟

هل رعت طفولة ؟ ، حتى تطلب أن يرعى الناس أطفالها ؟

هل تذكرون أنّي قلت لكم عشرين مرة ، ـ كررت القول حتى مللتم ـ أن اسرائيل ليست كما تظنون ، إنها ضبع تعيش على الجيف وجَدَتْ جلد سبع أو قُدُّم لها فلبسته ، وحملت شريطاً مسجلاً عليه زئير سبع فظنها الناس سبعاً ، ثم قلدت أشعب فَصدَّقَتْ هي نفسها .

كان الناس يظنون أن استخبارات اسرائيل أقوى استخبارات على وجه الأرض ، وإنها تعرف حركاتنا وسكاتنا ، حتى لقد ظن ناس منا (واستغفر الله الذي لا إله إلا هو) أنها تعلم ما تخفي صدورنا . فهاهي ذي فوجئت (يوم حرب رمضان) بالهجوم ، ولم تستطع استخباراتها أن تُحسَّ به أو تشم له رائحة . . .

وبارك الله هؤلاء الزعماء الذي تعلَّموا من حرب ٩٦٧ فضيلة الكتمان ، بل تعلموها من سيرة محمد ﷺ ، إن محمداً القائد استطاع يوم الفتح أن يُخفي تحركات جيش من عشرة آلاف كان في جزيرة العرب في تلك الأيام يُعَدُّ جيشاً ضخماً ، فيه من كل القبائل ، ومع ذلك فقد سدَّ كل طريق يصل منه خبره إلى قريش .

ومعركة بدر الظافرة كانت بعدها هزيمة ، وإن كان ثبات الرسول ﷺ وصحبه الكبار ، ردَّ الهزيمة ظفراً ، ذلك لتعلموا أن الحروب سجال ، والدهر دولاب ، والدنيا ليل ونهار ، والأرض صعود جبل وهبوط واد ، ولكن العبرة بالنهاية ، والأمور بخواتيمها ، والنهاية لنا إن شاء الله ، للاسلام ، ما دمنا معه فالنصر لنا .

إن الذي صنعناه في رمضان شيء عجيب ، تصوروا لو أن تلّاً من الرمال غير ممهد علوّه عشرون متراً كلفت صعوده لتعبت ، فكيف إن كان حوله من يقذفك

بالحجارة ليمنعك من صعوده ، فكيف إن كان بدل الحجارة الرصاص والبارود ، فكيف إن كان هذا الرمل يُغطي حصوناً من يابس الصخر ومتين الابرق (أي الاسمنت المسلح) ، فيها المدافع والدبابات وأقوى المتفجرات ، فكيف اقتحمها جنود مصر ؟! أقوى وأحدث خط دفاع ، كلف ٢٨٣ مليون دولار اجتازوه بأقدم وأضعف وسيلة هجوم ، بسلم من خشب ثمنه ثلاثة دولارات كيف تمت هذه الأعجوبة ؟! . . . بالإيمان ومعه ما يستلزمه الإيمان ويطلبه العقل والدين من الخطط والسلاح والكتمان ، كل هذا لابدَّ منه ، ولكن كل هذا كأعضاء الجسد والإيمان الروح ، وفي حرب ٩٦٧ كان عندنا هذا كله ولكن بلا روح الآن جاءت معه الروح ، وهو نزول عجيب ، لعله مثله نزول الحلفاء على ساحل نورماندي خلال الحرب الأخيرة ، بل أعظم ، وأحسب أن نزول المصريين يوم ٦ تشرين الأول ٩٧٣ على ضفة القناة الأخرى سيدخل في تاريخ الفن العسكري الذي يدرس في الكليات الحربية .

لقد دهش العالم وعجب مما رأى من جنودنا في سيناء وفي الجولان ، وكان عليه أن يعجب من هزيمتنا في حرب ٤٨ وحرب ٦٧ لا من ظفرنا في رمضان ، العجب مما يأتي من غير أهله ، إبن حاتم الطائي لا يعجب منه أحد إن كان كريماً ، لأن الولد سرُّ أبيه ، (ومن يشابه أَبَه فما ظلم) ، ولكن العجب أن يبخل ويشحَّ ابن حاتم الطائي

تعجبين من سقمي ؟ صحتي هي العجب

العجب أن يظفر اليهود الذين ضربت عليهم الذلَّة والمسكنة ، لا أن يظفر أبناء من فتحوا الشرق والغرب ، وكانوا سادة الدنيا وأساتيذها ، على أننا ما غلبنا نحن في الحربين : ٤٨ و ٦٧ ، ولا اليهود ظفروا ، انما غلبت فينا خلائق اليهود التي دخلت علينا في غفلة منا ، خلائق الانقسام والتردد ، وفقد الكتمان ، وارتجال الخطط ، والاصغاء لمشورة الأعداء .

صغرت اسرائيل أكثر لما بدأت هذه (الانتفاضة) ، صبيان يقاتلون بالحجارة

جيشاً يملك أعتْى وأقسى ما أوحى به الشيطان إلى أوليائه من وسائل القتل والتدمير والهلاك ، وحسبوها فورة حماسة تستمر ساعات ثم تخمد ، تمتد يوماً أو يومين ، فإذا هي تستمر الشهر والشهر الذي بعده ، والشهور تتوالى والانتفاضة لا تزداد إلا قوَّة ، ذلك بأنها ليست حركة وطنية ، ولا قومية ، ولا لمجرد استرداد الأرض ، وطرد الواغل الدخيل منها ، هذه كلها مقاصد قد تشترك في مثلها أمم الأرض ، بل لأنها جهاد ، جهاد بالمعنى الذي عرفه الاسلام ، بذل الروح لله وحده ، وابتغاء الجزاء منه وحده ، جهادٌ مَنْ يظفر فيه يَظْفَر بنيل الأمانيّ وبلوغ الغايات ، ومن يَمُتْ يَنَلْ ما هو أكبر من مِتَع الدنيا كلها رضا الله والجنة .

كتب الله لهذه الانتفاضة الإستمرار والقوة ، كما كتب مثل ذلك للحرب الجهادية في الأفغان لأنهما قامتا لله لا للدنيا ، وما كان لله فهو المتصل .

رحم الله الملك العبقري عبد العزيز الذي كان ينظر بنور الله : لما استعدت الدول العربية السبع لدخول فلسطين والقتال فيها ، كان من رأيه أن نُسلِّح أهل فلسطين ونُمُدُّهُم بالمال ونَدَعْ لهم حرب اليهود ، لقد بدا الآن الدليل على صحة رأي عبد العزيز .

هؤلاء الذين لا يملكون إلا حجارة أرضهم وأيديهم التي تطلقها ، لو كان عندهم مثل سلاح اليهود ، أو كان عندهم نصفه ، أو رُبعه أو عُشْره هل كان يبقى اليهود في فلسطين ؟

وعبقري عربي آخر ، استاذنا في كلية الحقوق سنة ١٩٣١ الذي مات مسلماً ، لما كان رئيس مجلس الأمن سنة ١٩٤٧ وقال كلمته المشهورة : إنَّ قضية فلسطين لا تُحلُّ في أروقة مجلس الأمن بل تُحلُّ على ثرى فلسطين .

إنكم ترون أننا بحجارة أرضنا ، وسواعد أبنائنا ، نكاد نطرد الكلاب من بلادنا .

إن الذين دعوتموهم جنود الحجارة ما ضعفوا وما استكانوا ، جادوا بأرواحهم (والجود بالروح أقصى غاية الجود) ثبتوا هذه الأيام الطوال فما عليهم ملام ،

ولكن نحن ، نحن المسلمين الذين فرض الله علينا أخوتهم ، وأوجب علينا نصرتهم نحن ألا نُلام ؟

أندعهم وحدهم يواجهون بالحجارة الدبابات والمدافع والرصاص والغاز الخانق وهاتيك الأهوال والمصائب ، أيكفينا في شرع الله ، في أدب الفروسية ، في قواعد الشرف ، أن نراهم في (الرائي) وأن نسمع عنهم في الإذاعات ، وأن نُعجب بهم وأن نُصفق لهم :

فيمَ التقاطع في الإسلام ويحكُمُ	وأنتم يـا عباد الله إخـوان
ألا نفـوس أبيـات لهـا هـمم	أما على الخير أنصار وأعـوان

أسباب النصر رجال وسلاح ، فما الذي ينقصنا منها ؟ هل ينقصنا العَدَدْ ، أم العُدَدْ ، أم العلم ؟ أما العدد فنحن ، نحن المسلمين ألف مليون . فكم عدد اليهود ؟ والعُدَدْ ؟ إن ما لدى المسلمين جميعاً منها أكثر مما لدى اليهود ، وفي المسلمين جميعاً من العلماء أكثر مما في اليهود أو هم مثلهم ، فكيف غلبونا ؟. كيف أخذوا منا قبلتنا الأولى ومسرى نبينا ؟. إنهم (أولاً) ما غلبونا بأنفسهم ، ولا هم بالذين يستطيعون أن يغلبونا أو أن يعدلونا ، ولكن بالذين أعانوهم علينا ، وأمدوهم بالمال والسلاح وبالناس ، السلاح من الغرب من أميركا ، والناس من الشرق ، من بولونيا وروسيا ، إنهم يختلفون فيما بينهم ولكن إذا جاءت عداوة الإسلام نسوا إختلافهم وصاروا صفاً واحداً ، ويداً واحدة علينا . لما قامت هذه الدولة الباغية العاتية التي سمَّوها دولة اسرائيل تسابقت أمريكا وروسيا إلى الإعتراف بها ومباركة مولدها .

ثم إنهم ما غلبونا (ثانياً) بقوتهم لكن بضعفنا وتفرقنا وانقسامنا . الأب يؤدب أولاده إذا أساؤوا وعصوا ، والله (ولله المَثَل العليا ، وتعالى الله أن يكون كمثله شيء) يأخذ عباده المؤمنين ببعض الألم ليعود إليه ، ويبلوهم (أي يختبرهم) بشيء من الجوع والخوف ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، يُنبههم إذا أساؤوا وانحرفوا ليحسنوا ويستقيموا ، ونحن أسأنا وانحرفنا ، أمرنا الله أن نتمسك بدينه ، ونعتصم بحبله ، ونكون جسداً واحداً له شعور واحد ، وتكون

رحمتنا وعاطفتنا لإخواننا ، وشدَّتُنا وجِدَّتُنا على عدوّنا . فماذا صنعنا ؟ هل أطعنا أمره ؟ أم حِدْنا عن سبيله ، وتركنا الحق من ديننا للباطل من دين عدوِّنا ، وانقسمنا وصرنا شيعاً ، وجعلنا شدتنا وقوتنا على إخوتنا ، ولَطُفْنا وضَعُفْنا أمام عدونا ، لذلك عاقبنا الله نجعل امرأة عجوزاً تهددنا مرَّة ويسلبنا قومها وهم أذلُّ الأمم ، مسرى نبيِّنا ، نعم عاقبنا الله بأذلِّ الأمم كما يُعاقبُ الجبابرة بأضعف مخلوقاته ، بحيوان لا يُرى ، بالجراثيم ، فتذلَّ جبروتهم ، وجعل امرأة أخرى تضع يدها على تسعين ألفاً من أسرارنا ، تسعين ألفاً كآساد الشرى فلا نملك ونحن سبعمئة مليون أن نطلقهم .

إنها يا سادة عقوبة كعقوبة الأب الرحيم ، إنها كما قال الشاعر :

فقسا ليزدجروا ومن يك راحماً فليقسُ أحياناً على من يرحم

ولكن هل تدوم ؟ لا ، وأُؤكدُّها وأجزمُ بها ، لا تأكيد حماسة فارغة مثل الطبل ، بل تأكيد الفعل والواقع .

لقد علمونا في المدرسة أن كل أمر مخالف لطبيعة الأشياء التي طبعها الله عليها لا يمكن أن يدوم ، فهل ترونه أمراً طبيعياً أن تعيش دولة صغيرة قائمة على الباطل ، على سرقة الأرض وطرد سكانها ، ولو صارت ثكنة ممتلئة بالجند ، ولو غَدَتْ قلعة محصنة الجوانب ، ولو بلغ سكانها مليونين أو ثلاثة ولن يبلغوها ، هل يمكن أن تعيش وسط بحر يمتد على مدى ثلث محيط الأرض فيه ألف مليون كلهم عدو لها ، عادوها لظلمها وبغيها لا كرهاً لها وعدواناً عليها ، ولو هي عاشت عشراً أو عشرين أو سبعين أو ثمانين عاماً ، فهل تعيش الدهر كله ؟ وما سبعون أو ثمانون عاماً في أعمار الأمم ؟. لقد بقي الإستعمار البرتغالي في أنغولا وموزانبيك مثلاً خمسمئة سنة فهل استمر الإستعمار البرتغالي لأنغولا وموزانبيق ؟ وقسمت بولونيا (بولندا) مرات وتقاسم جيرانها أجزاءها ثم عادت بولونيا ، بل لقد غزا ديار الشام من هم أكثر من اليهود عَدداً وأقوى جنداً وعُدداً وأقاموا فيها دولاً عاشت دهراً ، ثم دالت هذه الدول وعاد إلى الأرض أصحابها ، أما بقيت القدس قرابة قرن من الزمان بيد الصليبين ، فهل دام في القدس حكم الصليبيّن ؟.

إن القوة المادية لا بد منها ، والله أمرنا باتخاذ أسبابها فقال : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ جاء لفظ القوة منكراً ليشمل كل قوة كانت أو تكون ، نُعِدُّ كل ما قدرنا عليه ، وما استطعنا الوصول إليه ، لكن النصر ليس موقوفاً عليه ، ولا مرتبطاً حتماً به ، بيَّن لنا ربنا أنها لمجرد الإرهاب : ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ أما النصر ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ إنها بشارة وتطمين : ﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله ﴾ ، إنه ربما نصر الله الفئة الأقل عدداً ، والأضعف سلاحاً ﴿ وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلَّة ﴾ ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغنِ عنكم ﴾ .

إن أقوى أسلحة النصر ، الإيمان ، حتى الإيمان بالجبت والطاغوت إنه يكسب صاحبه النصر العاجل كقصة أهل فيتنام مع أقوى دولة في الأرض الأميركان ، فإن كان إيماناً حقاً إيماناً بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ضمن النصر الكامل والدليل روسيا والأفغان ، إن في داخل النفوس شيئاً اسمه (القوَّة المدخرة) طالما تكلمت عنها ، تظهر في الشدائد ، وعند الإضطرار ، وساعة اليأس ، إن الهرة إن استيأست تهجم على الذئب ، بل إن الدجاجة لتحمي أفراخها تجرؤ على الكلب العقور ، إن الرجل الذي يروح إلى داره تعبان ، جوعان لا يبتغي إلا كرسياً يلقي بجسده عليه إذا رأى الدار قد شبت فيها النار ، أو رأى الصغار تَحُفُّ بهم الأخطار ، نسي تعبه وجوعه وصبَّت القوة في أضلاعه صبّاً ، فمن أين جاءت تلك القوة ، إنها (القوة المدخرة) ، إن الذي لا يستطيع أن يَعْدُو مئة متر ، إذا لحقه سبع ضار أو مجرم مسلح ولم يجد مخلصاً إلا الهرب يركض نصف ساعة ، إن الإيمان يثير هذه القوة المدخرة ، لذلك كانت العزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين .

ستقرؤون في هذا الكتاب وصف بعض ما كان منا في جهادنا لاسترداد استقلالنا ، وفي كل بلد مسلم ابتلي بالإستعمار مثل هذه الأخبار ، وما نسمعه ونقرؤه من أنباء المجاهدين في الأفغان ، وما يصنع أطفال الحجارة في فلسطين كثير من أمثالها .

إن اللص الذي ينام ويده على سلاحه لا يستطيع من الخوف أن يستسلم للمنام ، فكيف يشعر اليهود بالأمن والاستقرار في فلسطين ونحن لهم بالمرصاد ، وكلما ولد مولود منّا لقنّاه مع لبن الأم الإستعداد لحربهم وتطهير أرضنا من رجسهم ؟ .

نحن أكثر من اليهود عَدداً ، وعندنا من العدد والعلم الذي يصنع العُدد مثل الذي عندهم ، إن لم نكن نملك منه أكثر مما يملكون هم ، ثم إن عندنا ما ليس عندهم ، عندنا الحق الذي نؤمن به ، ونقاتل دونه ، وما عندهم إلا الباطل ، وأيُّ حق لهؤلاء في فلسطين وما هم ولا آباؤهم منها ، ولا صلة لهم بها ، ولا دينهم من دينها ، وما لسانهم بلسانها ، ولا هم أصدقاء أهلها ، ولا يبتغون الخير لها .

وعندنا قبل ذلك وعد الله المؤمنين بالنصر وأن العاقبة لهم ، فهل يغني عنهم وعد بلفور بإعطائهم أرضاً لا يملكها ولا معه وكالة من أهلها ، وأين وعد الله من وعد بلفور ؟ ، ﴿ وقال الشيطان لما قُضيَ الأمر إنّ الله وعَدكُم وعْد الحق ووعَدتُكُم فأَخْلفْتكُم ﴾ .

لقد مرَّ يوم على هذه الأرض المسلمة كان فيها من الضعف والإنقسام أكثر مما نراه فيها الآن ، أيام الحروب الصليبية ، لما كان في سورية يومئذٍ من الدول بمقدار ما فيها من المدن ، وكان النزاع قائماً بينها ، وكان في قرية شيزر (قرب حماه) دولة ، وفي صرخد (ويدعونها اليوم صلخد في جبل الدروز) دولة ، وكان الساحل كله بيد الصليبيين ، فما هي إلّا أن نهض عماد الدين ، ثم نور الدين ، ثم صلاح الدين فنشروا راية الإسلام ، وضربوا بسيف محمد حتى غدا الانقسام وحدة ، والضعف قوة ، والمغلوب غالباً ، وكذلك يصنع الإسلام في كل زمان ومكان ، هذه الجزيرة . ألا تذكرون كيف كانت من مئتي سنة وكيف صارت الآن ؟ أما كانت في الرياض دولة ، وفي منفوحه (وهي الآن من أحياء الرياض) دولة آخرى ، أحداهما كانت مع دعوة التوحيد ، والأخرى عليها ؟ .

لا ليست معركتنا معْ الْيهوْد ، ومتى كان اليهود أهل قتال ؟ أيوم قال لهم رسولهم : قاتلوا ، فقالوا : اذهب أنت وربك فقاتلا ، أم يوم دعاهم إلى الفتح

وقد مهّد الله لهم أسبابه ، وفتح لهم بابه ، فارتجفوا كالشياه المذعورة وقالوا : ﴿ إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها ماداموا فيها ؟، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾ [المائدة ٢٢] .

هذه بطولاتهم ، يريدون من يحارب عنهم ، من يُخرج لهم العدوَّ من القلعة ليدخلوها فاتحين ، وما تبدلت حالهم ، إنهم لا يزالون كما كانوا ، إنهم يقاتلون بسلاح سواهم ، ويلوحون بقوة غيرهم .

على أن قضية فلسطين لن تموت لأنها عقيدة في قلب كل مسلم ، هل سمعتم أو قرأتم أن عقيدة يحملها في قلبه ألف مليون يمكن أن تموت . إن الناس يموتون في سبيل العقيدة ، وما ماتت عقيدة قطّ من أجل حياة إنسان ، إنها ليست قضية أهل الضفة والقطاع ، إلى متى تقولون : الضفة والقطاع ، إنها فلسطين ، إن اليهود يريدون أن يُنسي اسم فلسطين ، فلا تكونوا عوناً لهم على ما يريدون .

ليست قضية أهل فلسطين وحدهم ، ولا قضية العرب ، لماذا تسمونها عربية ، وفي العرب من لا يرى فيها رأيكم ولا يدين بدينكم ، ومن قد يكون هواه مع عدوكم ، ولِمَ لا تجعلونها اسلامية ؟. إن أيدي المسلمين جميعاً تمتد إليكم لتكون معكم إن جعلتموها جهاداً في سبيل الله ، ودفاعاً عن المسجد الأقصى ، والأرض التي باركها الله حوله ، فلماذا لا تصافحون هذه الأيدي فتصير مع أيديكم يداً واحدة على عدوهم وعدوكم .

يقول الله : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ فالنصر مقرون بطاعة الله ، فلما بعدنا عنها ، ابتعد النصر عنا ، حتى إذا عدنا فدنونا منها قليلاً في حرب رمضان سنة ١٩٧٣ ، دنا منا .

لما كان هتافنا (أمجاد يا عرب أمجاد) لم تنصرنا أمجاد العرب ، لأن مجد العرب الحق ولد يوم ولد محمد ، لولا محمد لم يكن للعرب إلّا المعلقات ، وقصر غمدان ، ومعارك بين القبائل ، لم تبن مجداً ، ولا خلدت ذكراً ، ومآثر لم تدر بها روما ولا القسطنطينية ولا مدائن كسرى ، فلما جاءهم محمد بالإسلام جعلهم به

سادة الأرض وأساتذتها وجعل منهم مُثُلَ البشرية العليا في الفضائل والمفاخر ، حتى إذا كانت معركة رمضان وذكرنا النشيد العلوي الذي كنا نهتف به من قبل نشيد (الله أكبر) وضعنا أقدامنا على طريق النصر .

كنا كلما عَدَتْ اسرائيل علينا فزعنا إلى (مجلس الأمن) كما يصنع التلميذ الضعيف في المدرسة يضربه الأقوياء فيذهب إلى الأستاذ : أستاذ (فلان ضربني) فيقول الأستاذ للضارب : (عيب يا ولد لا تضرب رفيقك) ويغمز بعينه يقول له : لا تخف أنا معك لن ينالك أذى . كأن مجلس الأمن إنما أُنشيء ليكفل الأمن لإسرائيل وحدها . وهذا الولد المدلل قريب المدير فهو يُؤْثره على الأولاد ، ويعنى به من دونهم ، فكان يتعدى على الكبار فلا يستطيعون أن يردوه خوفاً من المدير ، حتى تمرَّد الولد وطغى وضاق بهم الصدر ونفذ الصبر فأمسكوا به ، فشدوا أذنه وصفعوا خده ، وضربوه بالنعل ، وقالوا له : إذهب أنت الآن فاشتك .

* * * *

وبعدُ ، فأنا رجل معتزل . كنت من أيام شبابي أمضي جُلّ وقتي في داري ، عاكفاً على كتبي ، وقد زاد ذلك بي لما شخت وفترت همتي ، وكلّ عزمي ، ودخلت عشر التسعين من عمري .

حضرت مؤتمراً عامّاً مرة واحدة ، في المؤتمر الإسلامي في القدس سنة ١٩٥٣ ، الذي شارك فيه رجال من بلاد الإسلام كلها ، وقد شرفوني فكلفوني أن أخطب فيه ، يوم إفتتاحه ، فكان مما قلت :

إن الله نزل القرآن وتولى حفظه ، فالعاقبة للإسلام ، ما في ذلك شك لأن وعد الله هو الحق ، والله لا يخلف وعده في سِلمه ، فإن عدنا إلى ديننا ، وجعلناه دستور حياتنا ، في سلمنا وفي حربنا ، جعل الله هذا النصر على أيدينا ، فربحنا عز الدنيا والآخرة ، وإن كانت الآخرى استبدل بنا قوماً غيرنا فكان الفتح على أيديهم ، والنصر لهم ، وعدنا نحن كفقراء اليهود ، لا دنيا ولا دين ـ لا قدَّر الله ذلك علينا .

مقدّمة

الطبعة الأولى

هذا هو الكتاب التاسع من سلسلة كتبي الجديدة . وفيه مقالات وخطب ، أَما الخطب فقد ألقي أكثرها في هذه السنوات الأخيرة . لذلك لم أجدد تاريخها ، ولذلك جاء فيها معان مكررة ، وأفكار معادة وهذه الخطب لم تنشر قبل الآن .

وأنا أعتاد هذه المنابر من أكثر من ثلاثين سنة ، ولكني كنت أخطب ارتجالاً ، فيضيع ما قلت ، ولو أني دوَّنت كل ما كنت ألقيته كما دوَّنت هذه الخطب ، لكان لديَّ منها ما يملأ عشرة كتب من أمثال هذا الكتاب .

وعند الله أرجو عليها الثواب

دمشق : ١٠ شعبان سنة ١٣٧٩ هـ
٨ شباط سنة ١٩٦٠ م

علي الطنطاوي
مستشار محكمة النقض



خطبة الحرب

إني أحاول أن ألقي اليوم خطبة ، فلا تقولوا ، قد شبعنا من الخطب ، إنكم قد شبعتم من الكلام الفارغ ، الذي يلقيه أمثالي من مساكين الأدباء ، أما الخطب فلم تسمعوها إلا قليلاً ، الخطب العبقريات الخالدات ، التي لا تُنْسج من حروف ، ولا تؤلَّف من كلمات ، ولكنها تُنسج من خيوط النور الذي يُضيء طريق الحق لكل قلب ، وتُحاك من أسلاك النار التي تبعث لهب الحماسة في كل نفس .

ولا تقولوا ، وماذا تصنع الخطب ؟ إن خطب ديموستين صبَّت الحياة في عروق أمة كادت تفقد الحياة ، ونفَثَتْ فيها روحاً وملأتها عزماً ، حين استعارت لها من جلال ماضيها ، أجنحة تضرب بها في طباق الجو بعد ما هاض الزمان جناحها ، ووقفت (وهي كلمات) سدًّا في وجه أعظم قائد عرفته القرون الأولى : الاسكندر ، ووجه أبيه من قبله : فيليب .

وخطبة طارق هي التي فتحت الأندلس .

وخطبة الحجاج أخضعت يوما العراق ، وأطفأت نار الفتن التي كانت مشتعلة فيه ثم وجَّهته إلى المعركة الماجدة ، ففتح رجل واحد من قواد الحجاج أكثر مما فتحت فرنسا في عصورها كلها ، وبلغ الصين ، وحمل الإسلام إلى هذه البلاد كلها ، فاستقرَّ فيها إلى يوم القيامة ، ذلك هو قُتَيْبَةُ بن مسلم .

ولمَّا اجتاح نابليون بروسيا ، ما أعاد لها حريتها ، ولا ردَّ عليها عزمها ، إلا خطب (فيخْتِهْ) التي صارت لقومه (معلقات) يحفظها في المدارس الطلاب ، ويرددها على المنابر الخطباء ، وتقرؤها كل امرأة، ويتلوها كل رجل .

إن خطب (فيخته) هي التي أنشأت ألمانيا .

وما قام في التاريخ زعيم عبقري ، ولا قائد نابغة ، إلا كان السلّم الذي صعد عليه ، هو الخطب .

وما زعمت أني أستطيع أن ألقي مثل هذه الخطب .

ولا جئت أباري في ميدان البيان ، ولكن جئت لأقول الحقيقة التي تملك العقول بصدقها ، وتأسرُ القلوب بجمالها ، فيا أيها المستمعون إليَّ مقبلين عليَّ ، ويا أيها المستمعون وهم معرضون عني ، يَلْهُون في القهوات أو يتبخترون في الطرقات ، إلى العالِم في مكتبه ، والعامل في معمله ، والمرأة في بيتها ، والطفل في مدرسته ، إلى كل من يتفيأ الظلال من جنّات الشام ، ومن يَضْحى بشمس القفار في فلوات الحجاز ، ومن يحيا على شط الفرات ، وعلى جنبات الخليج ، إلى الأسود المرابطين في نحور العدو في شوارع بور سعيد ، وعلى حفافي القناة ، وعلى شعفات الجبال في الجزائر ، وعلى سيف القرى الأمامية في فلسطين ، الذين يمسون على وهج النار ، ويصبحون على دخان البارود ، لا يزولون حتى يطردوا الواغل الأثيم أو تزول الصمُّ الرواسي .

إلى كل من شرّق من أمة محمد وغرَّب .

ما جئت اليوم لأستنفر وأستثير ، ولا لأشكو وأستغيث ، ولا لأفخر وأحمِّس ، بل جئت لأبارك هذه الحرب التي أشعلها العرب في كل مكان : من الجزائر إلى مصر إلى العراق ، وأطعموها الجماجم ، وسقوها الدماء ، هذه الحرب ، ويا بارك الله هذه الحرب .

لقد كشفت منّا عن الجوهر الذي طالما اختفى تحت غبار القرون ، وأظهرت منا العزائم التي طالما هجعت في ظلام الليالي ، وسلَّت بأَيدينا السيوف التي طالما تلوَّت في الأغماد ، وتشكّت طول الرقاد ، وذكرتنا (وقد طالما نسينا) أننا نحن بنو الحرب ، بنو التضحيات ، بنو المعامع الحُمْر ، والأيام العوابس ، وأننا :

ملكنا أقاليم البلاد فأذعنت ... لنا رغبة أو رهبة عظماؤها

وأنها ما كانت قط قلوب أقوى ولا أطهر من قلوبنا ، ولا كانت سيوف أحدَّ ولا

أمضى من سيوفنا ، ولا كان مجد أعظم من مجدنا ، ولا تاريخ أحفل بالنصر والظفر والفضل والنبل من تاريخنا ، وأننا نحن طهّرنا أرض الجزيرة العربية من نجس يهود ، ونحن أنقذنا الشرق والغرب من عبودية كسرى وقيصر ، ونحن قصمنا ظهر كل جبّار ، وكسرنا رقبة كل متكبّر ، وأننا نحن أبطال بدر واليرموك والقادسية ونهاوند وحطين وعين جالوت والغوطة وجبل النار ، واننا هدمنا صروح الشر في الدنيا ثم بنينا فيها صروح الخير والعلم ، وأقمنا فيها منار الحق والهدى ، وأقمنا للناس خير حضارة عرفها الناس .

لا . ما جئت أفخر بالتاريخ الذي كتبناه أمس ، بل بالتاريخ الذي نكتبه اليوم ، لقد وصلنا ماكان انقطع من أمجادنا ، فالتقى المجد الجديد ، بالمجد التليد ، واجتمعت البطولات التي نبديها اليوم ، بالبطولات التي أبديناها بالأمس ، وأرينا الدنيا أننا ما أضعنا إرثنا من أمجاد الأجداد .

لا أريد الكلام ولو أردناه لكنا نحن سادته ، نحن فرسان المنابر ، ونحن أرباب الأقلام ، ولكننا نريد الفعال فَلْيقل أعداؤنا ما شاؤوا ، وليكتبوا في صحفهم ما أرادوا ، فقد كتبنا نحن ما أردناه سطورا على ثَرَى بور سعيد ، سطورا سطّرناها بجثث الغاصبين .

قد ملأنا البرَّ من أشلائهم فدعوهم يملؤوا الدنيا كلاما

ولسنا نزهى بما عملنا إننا لم نصنع شيئاً بعدُ ، فاصبروا تروا ماذا نعمل ، اصبروا تروا أن الذين حطّموا أصنام الحجارة التي كانت حول الكعبة ، وصيّروها طحينا تطؤه النعال ، بعد ما كانت أربابا تُعبد من دون الله ، سيحطمون آخر صنم من أصنام اللحم والدم ، نحته جون بول الساحر ونصبه على شط دجلة ، وقال : هذا ربُّكم ، فقال أهل العراق ، كذبت لا ربَّ إلا الله ، وما كان عبد الثعلب الانكليزي [1] رب الأسود العرب .

أربٌّ يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

---

(١) كان المراد به عبد الاله .

اصبروا تروا أنه لا يمكن أن يتحالف العرب والانكليز ، كلا ولا يكون الشعب العربي المسلم ، حليفا لعدوٍّ العروبة والإسلام .

اصبروا تروا أنه يستحيل أن يعيش مليون من اللصوص المجرمين ، وسط عالم فيه خمسمئة مليون ، كلهم إخوة بسجل النفوس ، الذي وضع من فوق سبع سماوات ، وأثبت مادة خالدة ، في الدستور الخالد ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ . إنه يستحيل أن تبقى إسرائيل وإن عاشت عشر سنين أو عشرين ، ولقد قامت مكانها يوما حكومة أخرى من الواغلين الغاصبين ، عاشت نحواً من مئة سنة ثم أزالها رجل واحد هو صلاح الدين ، بمعركة واحدة هي معركة حطين .

اصبروا تروا أنه لا يمكن أن تكون الجزائر لفرنسا ، وليس لفرنسا فيها حق شرعي ، وليس لها مع أهلها قرابةُ دين ولا لسان ، وما مكانها فيها إلا مكان اللص الذي يدخل الدار في غفلة من قاطنيها ، ثم يعمد إلى تثبيت قدمه فيها باغتيال أصحابها ، ولكن اللص لا يمكن أن يصبح صاحب الدار .

اصبروا تروا أنها ليست معركةَ بلد ولا قُطر ، ولكنها وثبة شعب يعدُّ ثمانين مليوناً من العرب ، لم يتّحد ويجتمع من ألف سنة ، مثلما اجتمع اليوم ، إنها غضبة أمة تعدُّ خمسمئة مليون من المسلمين ، ولم تتقارب على تنائي الديار ، ولم تؤلف الأحداث بين قلوب أبنائها ، ولم تعد كالجسم الواحد يتألم كله لألم العضو الواحد منه ، كما بدت اليوم .

إن المسلمين الذين ناموا قروناً طوالاً ، فتحوا أعينهم من نحو خمسين سنة ، وحركوا أيديهم ثم نهضوا وتمطّوا حتى طردوا من أجفانهم آخر بقايا المنام .

لقد استيقظنا الآن تماماً ، وزالت آثار المخدر الذي تجرَّعناه من يد المعلمين في مدارس المستعمرين ، وعلمنا الآن أننا لسنا أضعف من الغربيين ، ولا أجهل ، وأننا نستطيع أن نقف أمامهم وقفة النِّد للند ، نقول لهم لقد تعلمنا العلوم التي كنتم تنفردون بها ، وحملنا السلاح الذي كنتم تختصُّون به ، وعرفنا ظواهركم وخفاياكم ، فوجدنا أن كل مزية هي عندكم قد صارت عندنا ، وأن لنا فوق ذلك

ما ليس لكم : ماضينا العظيم ، وإرثنا من البطولات والأمجاد ، وإيماننا الذي فتح به أجدادنا الدنيا .

وإن كنتم في شك من هذا ، فتعالوا انظروا ماذا في سفوح دمشق وميادينها في الأصباح البواكر ، هاهم أولاء أبناء دمشق ، قد هجروا دورهم ، ولبسوا ملابس الجند ، وحملوا سلاح الجند ، ثم اصطفُّوا صفوفاً وراء صفوف ، آلاف من ورائها آلاف يتدربون ويستعدون ليوم الكريهة ، بعد ما كانوا يفزعون من الجندية ، ويرونها أكبر الخطوب ، لقد عهدتُ وكنت صغيراً مدركاً ، كيف كانت تقام المآتم في بيوت دمشق ، أيام الحرب العالمية الأولى إذا دعي أحد أبنائها إلى الحرب ، وأنا أشهد الآن ، كيف يزدحم الشباب على مكاتب التطوع والتدريب .

اللهم إن هذا شيء عجيب .

لقد عرفنا مكاننا في هذا الكون ، وأدركنا أن حياة أوربَّة وصناعتها وأمنها وبقاءها بأيدينا ، وأننا نستطيع أن ندمِّرها بقنبلة واحدة ونحن في مكاننا ، قنبلة واحدة على مضخَّات البترول ، تَرجع بفرنسا وانكلترا إلى مثل حياة القرون الوسطى .

لقد هَبَبْنا لنطهِّر بلادنا من اللصوص ، ولنعيد بناء دارنا ، ونرفع عليها لواء مجدنا ، ونسترجع تحت عين الشمس مكاننا .

هببنا هبة الثأر للقرون الطوال التي قضيناها نياما ، هبَّة الثأر للحريات التي عدا عليها العادون ، هبَّة الثأر للأرض والعرض ، لضحايا العدوان في كل أرض مسلمة ، للأيامى ، واليتامى ، والثاكلات .

إنها معركة الخير والشر قد عادت ، ونحن أبدا حملة لواء الخير في الدنيا ، ونحن حماة الحق في الأرض ، ما أضعنا الأمانة التي وضعتها على عواتقنا خمسة ملايين من شهدائنا نثرناهم في الأرض طوال القرون .

هذا تاريخنا ، ما سمعت أذن الزمان تاريخا أحفل منه بالمفاخر ، وأغنى بالنصر ، وأملأ بالأمجاد ، ووالله الذي جعل العزة للمؤمنين وجعل الذلَّة لليهود ،

لَنَكتْبن هذا التاريخ مرة ثانية ، ولنتلونَّ على الدنيا سفْر مجد ينسي ما كتب الجدود ، ولنجعلنَّ أساسه ضرباً ضرباً لا تثبت له شوامخ الصمِّ من أجلاد الكرمل ، ولا هامُ المَرَدة من شياطين الجحيم ، فكيف برؤوس اللصوص الغاصبين ؟

ولنحاربنَّ بالنار والحديد والبارود ، وبالسيوف والخناجر والعصيِّ ، فإن لم نجد يوماً السلاح حاربنا بأيدينا ، ولنسوقنَّ إلى الحرب شباباً أنضر من الزهر ، وأبهى من الضُحى ، وأثبت من الجبل ، وأمضى من العاصفة ، فإن لم نجد يوماً شباباً سُقْنا إليها الشيوخ والأطفال والنساء ، ولقد ألَّف الأطفال في معركة تحرير أندونيسيا فرق (جيش النمل) فكانوا يملؤون جيوبهم بالحصى ، ويتسلقون الدبابات وهي تطلق رصاصها ، ثم يصبُّونها على سلاسلها وآلاتها ليخربوها ، ولقد كان بنات أندونيسيا يَتَزَنَّرْنَ بالقنابل ، ثم يُلقين بأنفسهن تحت الدبابات ، فتنفجر الدبابة ويتفجَّرن معها ، وهذا مثال من ملايين الأمثال التي ضربناها للناس في تاريخ جهادنا ، ولَنصنعن مثلها وأعجب منها .

ولئن كان قد داخل الضعف نفوساً منا اكتهلتْ وشاخت في ظلام الماضي القريب ، فسيكون من هؤلاء الأطفال شعب نشأ في نور الاستقلال ، وستلهب دمه ذكريات عشرة آلاف معركة مظفَّرة خاضها الجدود ، وسيخترق صماخ آذانه نداء عشرة آلاف بطل أنجبهم الجدود ، وستدفعه يد (محمد ﷺ) إلى ميادين التضحية والبذل ، حتى يطهر أرض الوطن من إسرائيل ، ويغسل بالدم هذه الصفحة التي كتبها في تاريخنا التردد والتخاذل والانقسام ، وحتى يُعيد مجد الماضي ، فيقرأ الطلاب في المدارس بعد حين خبر هذه الدولة ، كما يقرؤون الآن خبر القرامطة والزنج ، ممن أزعجوا الدنيا أياماً طوالاً ، ثم نُسُوا حتى ليقول الناس اليوم : من هم الزنج ؟ ومن القرامطة ؟

ونحن لا نبغي عدواناً ، ولا نطلب باطلاً ، إننا نطلب الحق ، وسنحارب إن لم نعط الحق ، نحارب لا بغياً ولا ظلماً فلا ينصر الله ظالماً ولكن دفاعاً عن أنفسنا ، وعن الحق ، وعن كرامة الإنسان ، نحارب بشيوخ لهم حماسة الشباب ، وشباب

لهم حكمة الشيوخ ، ونساء لهن رجولة الرجال ، وصغار لهم عزائم الكبار ، ولئن هلك منا فوج لنأتينّ بأفواج ، ولئن صبر العدوُّ يوما لَنرْمينّه بأيام ، والمستقبل لنا ، وهذي بوادر النصر وتباشيره قد ظهرت من أفق بور سعيد .

إننا خمسمئة مليون ، ولو أن خمسمئة مليون هرَّة هجمت على انكلترا دفعة واحدة لهرب منها أهل انكلترا ، فكيف تطمع انكلترا أن ترغم آناف خمسمئة مليون رجل ، يرون الجهاد فرضاً في دينهم كفرض الصلاة ، ويرون الموت في الحرب أمنية من أجمل الأماني .

فيا أيها العرب في كل أرض ، ياأيها المسلمون تحت كل نجم ، يا أيها الرجال ويا أيتها النساء ، لقد أزفت ساعة المعركة الفاصلة ، فليحمل كل رجل منكم وكل امراة فيكم نصيبه منها ، واعلموا أن الظفر لكم .

يا أيها المجاهدون في عُمان والجزائر والقرى الأمامية ، ويا أيها العاملون على تحطيم آخر صنم للاستعمار في ديار العرب ، اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون .

المسلمون إلى الخير

نشرت سنة ١٩٥٥

هل شككتم وتزعزعتم ، أن بعث الله لكم ، من يبلو بعدوانه صبركم ، وبأذاه رجولتكم ، وأن جعله (امتحاناً) لكم لينظر ماذا استفدتم من (درس) البطولة الذي تلقيتموه في (مدرسة محمد ﷺ) ؟ أو ظَننتم أنكم تنالون (شهادة البطولة) بلاامتحان ؟ ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمَّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ويعلم الصابرين ؟ ﴾ .

أم أنتم قد حزنتم ، وقلتم ، مالنا نُبتلى ويسلم الضَّالون الظالمون ؟ ونسيتم أن لو كان الابتلاء شراً ، ماابتلى الله الأنبياء والصالحين ، والمسلمين الأولين ، ولما سلَّط الله سفهاء مكة على سيِّد البشر ، وخاتم النبيين : محمد ﷺ ، ينالونه بأذاهم ؟

أفمالكم قدوة برسول الله ؟

أمالكم أسْوَة بالصحابة والتابعين ؟ ممن أوذي في سبيل الله ، وعذِّب وقتل ، وبمن وضعت المناشير على أعناقهم ، ليقولوا كلمة الكفر ، فكانوا يقولون : لاإله إلاَّ الله . وببلال إذ يحرم الطعام والشراب ، ويضجع على الرمال التي تتلظَّى ناراً ، وتُلقى الصخرة على بطنه ليعود إلى اللاَّت والعزَّى وهبل ، فكان يقول : أحد ، أحد ؟

أما سمعتم قصة الملك ، الذي طغى وبغى ، و (شَنَق) وخنق حتى خلعت خشية بطشه القلوب ، وقطعت الألسنة ، فجاءه رجل صالح من رعيَّته بموعظة من يده ، بمسمار عظيم أعدَّه وحمله إليه ، على أربعة جمال ، حتى بلغ به باب القصر ، فأطلَّ الملك فرآه ، فقال متعجباً :

ماهذا ؟

قال : هذا يامولاي مسمار ، لتسمِّر به الفلك ، فلايدور بالملك عنك إلى غيرك ، ويبقيه لك أبداً . .

وماسُمِّر الفلك ، ولادام المُلْك ، ولكن ذهب المَلِك ، وأودى الدهر بجبروته وسلطانه ، فلم يعد يحسّ به أحد ، أو يدري بأنه كان له يوماً وجود ، حتى اسمه أغرقه لج النسيان . فلم أعرف أنا اسمه ولم يعد يعرفه أحد . . .

ذهب كما ذهب من قبله فرعون وهامان والنمرود ، وهلك كما هكلت عادٌ وثمود ، وقد كانوا جبابرة الأرض ، وكانوا مَرَدَة البشر ، ومشى في الطريق الذي مشى فيه الطغاة جميعاً إلى جهنم ، فأين هو اليوم ؟ وأين فرعون الذي قال : « أنا ربكم الأعلى » ؟! ، وأين نمرود الذي ضرَّم النار على إبراهيم ؟ وأين جنكيز الذي حمل الموت والدمار إلى كل بلد حمله رحْلُه إليه ؟ وأين تيمورلنك ؟

لقد ذهبوا جميعاً ، جرفهم سيل الزمان ، أفيبقى من بعدهم فلان (ممن لاأسمِّي) وفلان ؟ أيودي السيل بالفيلة الكبار والآساد وتثبت له القطط والخرفان ؟

فلاتجزعوا ، إن استأسد فيكم ثعلب أو استنسر بغاث ، ولاتخافوا إن كان للإسلام عدو يتربَّص به وبأهله ريب المنون ، ينكل بهم وينالهم بكل مكروهة من لسانه ويده ، لا ، ولاتخافوا إن بغى المستعمر ، أو غدرت إسرائيل ، أو ضاعت فلسطين ، وكان مانشكو منه ونتألم ، فماهي بأولى المحن التي مرَّت علينا (نحن المسلمين) ، إنها واحدة مما ألفنا من النوب وعرفنا

إحدى لياليك فهيسي هيسي   لاتنعمي الليلة بالتعريس

* * * *

لقد رأينا أشد علينا من هذه الأيام ، ومن يوم إسرائيل :

يوم رمتنا أوربة كلها عن قوس واحدة ، وجاءتنا جيوشٌ أولها في حلب

وآخرها في القسطنطينية ، وقامت في فلسطين لهم دول ، لم تلبث سنة ولا سنتين ، ولكنها لبثت أكثر من مئة سنة ، وكنا على حال هي شر مما نحن عليه اليوم ، وحسب الضعفاء أن قد طويت راية الإسلام ، عن ديار الشام ، فما هي إلا أن قام قائم ينادي باسم محمد ﷺ ، ويضرب بسيف محمد ﷺ ، حتى استقاد له النصر ، فطهَّر الأرض من ذلك (الاستعمار) ، وعادت إلى أصحابها الديار ، وهان الخطب حتى نسي أكثر الناس تاريخ الحروب الصليبية .

ويوم رمانا الشرق بدواهيه ، وساق إلينا جيوش التتر ، تحطُّ على بلدان الإسلام العامرة ، كما تحط الجراد على الحقل الزاهر ، فلاتدع من مظاهر العمران إلا ماتدع الجراد من نَبْت الحقل ، أبادت الممالك ، وثلت العروش ، حتى بلغ هولاكو عرش الخليفة في بغداد ، فذبح الخليفة ، وهدَّ العرش ، وترك بغداد العظيمة حاضرة الدنيا خرائب وأطلالا ، ثم ساح في الأرض لايرده شيء ، وحسب الضعفاء أنها نهاية الإسلام فإذا الإسلام يطوي أعداءه هؤلاء تحت جناحه ، ويظلِّلهم برايته ، ويجعلهم جنداً له وأعواناً ، وتنسى المصيبة حتى لايدري اليوم أكثر الناس ماخبر التتر ؟

ويوم القرامطة الذين هزموا جيوش بغداد ، وَعَدَوا على الحُجَّاج فذبحوهم ذبح النعاج ، واستلُّوا الحجر الأسود . فمن يعرف اليوم ماقصة القرامطة ؟ ومن يذكر القتلة الحشاشين من الباطنية ؟ والوحوش السود من أتباع صاحب الزنج ؟ والمئات من أعداء الإسلام الكبار ، الذين كانوا أشد قوة ، وأعظم نكالاً ، فلم يعد يدري خبرهم أحد ؟

لقد ظهروا واختفوا ، وولدوا وماتوا ، والإسلام هو الإسلام ، ما ازداد إلا قوة وأيداً .

وملكت فرنسا ديار الشام ، وأقامت على كل جبل قلعة ، وفي كل دائرة مستشاراً ، فأين اليوم في الشام فرنسا ؟ وأين في باكستان إنكلترا ؟ وأين في أندونيسيا هولاندة ؟ وسنقول عما قريب ، سنقولها نحن ، أو يقول غداً أبناؤنا ، وأين في المغرب فرنسا ؟ وأين في فلسطين إسرائيل ؟

لاتستبعدوا شيئاً فإن التاريخ يمشي بسرعة الطيارة . لايزحف كما كان يزحف قديماً . لقد كانت باكستان قبل عشر سنين فقط خيال شاعر اسمه محمد إقبال ، وأمنية حالم اسمه محمد علي جَنَه ، فصارت حقيقة يحميها ثمانون مليوناً ، وكانت أندونيسيا كذلك ، أفقيام دولتين في كل منهما ثمانون مليوناً أصعب وأبعد ، أم تحرّر المغرب ، وإعادة فلسطين ؟

ونحن ؟ خبروني أين كنا قبل ثلاثين سنة ، وأين بلغنا اليوم ؟

أنا أعرف مصر منذ سنة سبع وعشرين (١٩٢٧) ، إنه ماكان فيها من يدعو إلى الله ، اللهم إلا علماء الأزهر ، وقد كانوا منزوين وراء سوره ، تمرّ مواكب الحياة من أمامه فلايحسّون بها ، ولايرونها ، لم تكن للإسلام جريدة ، ولامجلة إلا (المنار) و (الفتح) التي كانت تلدها يومئذ أمها ، ولم يكن له داع في ميادين الأدب ، ولا في كليات الجامعة ، ولا في دور النشر ، ولا في أروقة السياسة ، فانظروا ، بحمد الله ، ماذا لنا اليوم في مصر ، إن هذا كله من عمل الإمام الشهيد مجدد الإسلام في هذا العصر : حسن البنا . رجل واحد ، أخلص لله ، وزهد في المال والجاه ، فصنع هذا كله .

رحمة الله عليه ، وثبّت الله المؤمنين ، وزادهم إيماناً وصبراً ، وثقة بأن العاقبة لهم ، إنها والله لهم !

وفي كل بلد عربي ، مثل الذي في مصر ، شباب ناشئون في طاعة الله ، مجاهدون في سبيله ، قد تركوا هواهم لطاعته ، وشهواتهم لمرضاته ، يؤمّون المساجد على حين ينام الناس في بيوتهم ، لايثنيهم برد الليل ، عن صلاة الجماعة ، ولاتردُّهم مشاغل الحياة عن طلب العلم ، لوَّوا وجوههم عما يستبق إليه لِدَاتهم من اللهو والأنس ، وماتدفعهم إليه طبائع نفوسهم من اللذة والمتاع ، تركوها لله فعوَّضهم الله خيراً منها : اللذة بعبادته والأنس بمناجاته ، لايبالون في سبيل الله عدواً ، ولايستكبرون كبيراً ، ولايستعظمون خطراً ، فهم بقية من شباب الدعوة الأولى ، تخلّفوا عن بدر والقادسية واليرموك ، ليأتوا في كهولة الزمان ، فيعيدوا الإسلام غضاً طرياً ، والزمان شاباً قوياً ، ويكونوا تتمة لمعجزة

الرسول ﷺ ، في هذا (الفتح العبقري) الذي رفرفت فيه رايات محمد ﷺ ، على ثلث المسكون من العالم في ثلث قرن ، ولم يكن فتحاً عسكرياً ، للقلاع والمدن ، يزول إن زال الجيش ، ويذهب إن ذهبت القوة ، ولكن فتحاً للقلوب والعقول ، يخلد مابقي في أهل البلاد قلب يحسّ ، أو عقل يدرك ، وهذه إيران ، أين إيران المجوسيَّة الأولى ؟ فتِّش عنها في كل بلدة وقرية ؟ هل ترى إلا الإسلام في كل مكان ، وهذه مصر ، أين مصر الفرعونية ؟ وأين الشام الفينيقية أو الروميَّة ؟

وهذه بعد باكستان وهذه الهند وفيها أربعون مليوناً من المسلمين ، لاتزال فيهم مدارس العلم وجمعيات الدعوة ، و(دار التبليغ) ، وهذه أندونيسيا والملايو ، في كل مكان مسلمون متحمِّسون ، يودُّون لو طاروا بلاأجنحة إلى مكة والمدينة ، والأقصى ليطهِّروه من أوضار يهود !

المسلمون إلى خير ، مافي ذلك شك . لاتنظروا إلى عهد أبي بكر وعمر ، ولكن انظروا إلى ماكنا فيه قبل ثلاثين سنة ، فإنَّ صاعد الجبل إن نظر إلى الذروة قال : كم أنا منخفض ، ولكنَّه إن نظر إلى السفح ، قال : كم أنا مرتفع . وكل ماش يصل ، وكل ساع إلى غاية لابدَّ أن يبلغها ، فلاتيأسوا إن لم تروا بوادر النصر في يومكم ، وإن رأيتم الغرب قد عَلَا عليكم ، ولاتقنطوا من روح الله ، ولاتشكُّوا في إرثكم من البطولة المحمَّدية التي تنقَّلت في دماء جدودكم ، حتى مشت في عروقكم ، واعلموا أن الفلك دوَّار ، لايسمَّر بمسمار ، وأنه يكون أبداً ليل ونهار ، طلع النهار على الشرق فكانت مصر وبابل والحضارات الأولى ، ثم مشى إلى الغرب فكان اليونان والرومان ، ثم عاد إلى الشرق فكانت دمشق وبغداد والقاهرة وحضارة الإسلام ، ثم رجع إلى الغرب . وهاهو ذا الفلك يدور ، إن هذا النور الذي تسبح فيه أوربة وأميركة ، بهاء المساء الذي يعقبه الليل ، وهذا الظلام الذي نغرق فيه غبش السحر الذي يتبعه النهار .

إن النهار لنا ، لقد أذَّن مؤذِّن النهضة فينا : حيٌّ على الفلاح ، فقمنا ، وصاحت دِيَكة الفجر تطرد بقايا النوم من عيون الزهر .

والمستقبل لنا .

لهؤلاء الشباب الذين تمشي مواكبهم إلى الجهاد ، يقحمون الشدائد والبلايا والنكبات ، ليقطفوا ثمار النصر ، لا لمن ينظر إليهم من شقوق الجدران يحمد الله على السلامة ،

للذين أدركوا أن لهم أجنحة النسر ، الذي خلق ليضرب في كبد السماء مشرقا يحدق في عين الشمس ، لا لمن يطير بجناحي دجاجة ، يلتقط بقايا مائدة الغرب ، من مزابل الحياة .

للذين عرفوا أنهم حملة رسالة الله الأخيرة إلى الدنيا ، فاستعدُّوا ليكونوا أئمة الدنيا .

للذين حقروا الأرض وما فيها ، وطمحت بهم هممهم ليسيروا على درب المجرَّة ، الذي فرشت أرضه بالنجوم ، ليصلوا بقلوبهم إلى الله .

* * * *

لاتخافوا . .

نشرت سنة ١٩٤٦

لاتخافوا ، فوالله لاالفرنسيون ولاآل صهيون ، ولادول الأرض كلها تستيطع أن تبيد شعباً عربياً مسلماً ، أو تذلّه فتسلبه عزّة نفسه وقوة إيمانه . فجدُّوا واعملوا ، ولاتدَّخروا وسعاً ولاطاقة ، وفتِّشوا عن القادة ، فإنما تنقصنا القيادة ، ولكن لاتخافوا على عرب فلسطين أو إفريقية ، ولا على مسلمي أندونيسية ، فإن « محمداً ﷺ » قد وضع في دمائهم المصل الواقي من الخوَر والجبن والتهافت ، وصبَّ المناعة في أعصابهم صبّاً ، وعلمهم الصبر على المصائب وإن تتالت ، والشدائد وإن تعاقبت ، مع العمل على دفع المصائب ورفع الشدائد ، فكان الجهاد في سبيل الله ، وبذل النفس من أجل الدين والشرف ، فطرة في أتباع « محمد ﷺ » ، وخلقه فيهم ، لو أرادوا الانفكاك عنها ماطاوعتهم قلوبهم !

ألا ترون إليهم كم غامروا وجاهدوا واحتملوا من الأذى ، ثم هاهم أولاء يدعون إلى الجهاد نزْلة أخرى فيمسحون الدموع ، ويربطون على الجروح ، ويقومون عن القبور ، ويَثِبون مع الداعي يأخذون الطعام من أفواه بناتهم ، والكسى من نحور صبيانهم ، ليبيعوها فيشتروا البندقية ويمشوا إلى الجهاد !

أولئك هم الأبطال حقاً ، لاأعني الزعماء الذين يملأون بطونهم من الطيبات ، ويمضون إلى الحفلات بالسيارات ، ثم يقومون إلى المنبر لايطيقون الوقوف من التخمة ، فيخطبون بصوت متقطع الأنفاس من البَشَم لا من الحماس . . . يصرخون : نحن المجاهدون ، نحن الذين فعلوا والذين يفعلون . . . ثم يروحون إلى دارهم فينامون وهم يحلمون بالمجد المؤثَّل الذي شادته لهم خطبهم في الهواء!

ولا السياسيين الذين لا يعرفون من الوطنية إلا أنها أقرب الطرق إلى الكراسي ، فإن جاءت من قبل الشعب ، فهم من الشعب وإلى الشعب ، وإن لم تجيء إلا من الفرنسيين والانكليز ، فما هم غرباء عن الانكليز ولا عن الفرنسيين !

ولا التجار الفجّار الذين يعبدون الدرهم والدينار ، والذين أجاعونا في هذه الحرب وعرّونا ، ليريقوا ماسرقوه من ثمن خبزنا وكسوتنا على قدمي كل بغيّ ، وزلفى إلى كل شيطان ، فهؤلاء جميعاً ليسوا منا ، وإنّا منهم لبُراء !

وإنما أعني هذا الشعب الذي ثار في غوطة دمشق ، وميادين القاهرة ، وسهول العراق ، وصحارى طرابلس والجزائر ، ورحاب الريف الأقصى ، وثار في فلسطين من ديار الشام ، فأتْرَع الدنيا بطولة ونبلا . . .

هذا الشعب الذي خرج منه حارس أمّي من حرّاس الليل إلى غوطة دمشق ، فوقف على نهر تورا ، وما نهر تورا ؟ جدول عرضه سبعة أمتار . . . ووقف جيش فرنسا في الشرق على الضفّة الأخرى ، وبينهما جسر ، ومامعه إلا فئة من الثوار ، فلم يستطع جيش فرنسا وقائده الجنرال اجتياز هذا الجسر إلا بعد ممات الحارس الدمشقي ، حسن الخراط [1] ، بعد ثمانية عشر شهراً كلها وقائع داميات ومعارك حاميات ، ولقد ردَّ حسن وأصحابه الجيش الفرنسي مرَّةً حتى ألجؤوه إلى دمشق ، ثم حاربوه في شوارعها حتى أخرجوه منها إلى المزَّة ، ولبثوا في دمشق ثلاثة أيام ومافيها فرنسي واحد .

هذا الشعب الذي فرَّ ضابط من ضبّاطه من بغداد مع ستين جندياً ، إلى الصحراء التي قطعها (خالد) من قبل والعدو من أمامه ، والعدو من ورائه ، والعدو من فوقه ، ولو وقفتْ عليه سيارة ، أو كشفته طيارة ، لذهب بدداً ، فقطع

---

[1] الذي وضع أول حجر في صرح الاستقلال ، وأول مسمار في نعش الانتداب . فلما ذهب الانتداب ، وجاء الاستقلال ، نسي القائمون عليه أن يجعلوا له في تاريخ الجهاد في المدارس ذكراً .

الصحراء ، ثم بلغ فلسطين ، ثم قاد الثورة فيها ، فظفر كما ظفر خالد بالروم ، وقذف الله به الرعب في قلوب الجند ، فكانوا يرتجفون هلعاً ، وينهزمون فزعاً إذا قيل : « فوزي القاوقجي » !

هذا الشعب الذي كان يحارب ضابطاً آخر من ضباطه مع فئات من أتباعه ، جيشان أوربيّان جيش فرنسي فيه مائة ألف ، وجيش إسباني فيه مائة وخمسون ألفاً ، هؤلاء كلهم يكافئون في الميزان الأمير المسلم عبد الكريم بطل الريف[1] .

هذا الشعب الذي قابلت حفنة منه مفلولة السلاح ، قليلة العتاد ، إنكلترا ذات الحول والطِول ، ومالكة خمس العالم ، وثبتت في وجهها سنتين اثنتين ، لايوماً ولايومين ، وأرتْها من قوة الإيمان العجب العجاب :

بين يدي الآن عدد قديم من جريدة « بيروت » صادر سنة ١٩٣٧ ، أفتحبون أن ألخِّص لكم خبراً وجدته فيه :

« التقى في (حيفا) نفر من المسلمين المجاهدين في سبيل الله ، وفرقة آليَّة من الجيش البريطاني ، ودارت رحى الحرب ، فهجم المجاهدون على الدبابات والمصفحات ، فكان إيمانهم أمضى من نارها وأقوى من حديدها ، فنفذ منها إلى قلوب من فيها ، فلم تُغْنِ عنهم صفائحهم ولابارودهم شيئاً ، وأعان الله عليهم حزبه بالرعب ، فانهزموا ، وهربت مصفَّحة . . . فطارت على وجهها ، لاتلوي على شيء ، إلى . . . أتدرون إلى أين ؟ إلى عكا . . . إلى صور . . . إلى صيدا . . . إلى بيروت . . . إلى طرابلس ـ إي والله ـ ولولا أن الأخبار سبقتها إليها حملتها الأسلاك ، فقطعوا عليها الطريق بالحجارة ، ووقفوها ، لولَّت منهزمةً إلى بريطانيا ! » .

هذا الشعب الذي أدهش أهل الدنيا بفتوحاته غابر الدهر ، وأدهشهم بثوراته حاضره ، وسيُدهشهم في مستقبله ويدعهم مفتوحة أفواههم من عظم مايرون ،

---

(١) وقد نسي الناس أن يبحثوا : أين اليوم عبد الكريم ، وماذا فعل الله به ؟!

حين يشب الوثبة الكبرى ، التي يعود بها كما بدأ شعباً واحداً ، يعبد رباً واحداً ، ويتبع الكتاب قانوناً واحداً ، لاتعجبوا فتقولوا : أين السبيل إلى الاتحاد الإسلامي ؟! فهذه إنكلترا لها خمس الأرض ، قد تفرقت بلادها في أرجائها ، ثم إن لها ملكاً واحداً وراية ورابطة ، أفنعجز أن نوجد للمسلمين نظاماً جديداً مبتكراً ، يجمع متفرقهم ، ويدني بعيدهم ، ويصلحهم ويصلح لهم ؟!

* * * *

وليس الذي انتصر حسن الخراط ، ولاعبد الكريم ، لأنه لايعقل أن يغلب أفرادٌ دولةً ، ولكن الذي انتصر هو الإسلام ، ولو ثار هؤلاء لغيره ماصنعوا شيئاً ، إذ يُتركون لقوتهم وذكائهم وعلمهم ، وأعداؤهم أشدُّ قوة وأحدُّ ذكاءً ، وأكثر علماً . الإسلام أعجوبة الدهر الباقية ، معجزة كل عصر ، فياأيها الأغبياء الذين يجرؤون على قياس الإسلام بنزوات هتلر ، وخيالات لينين ، وحماقات كل متسلِّط على العقول أو البلدان ، يحسب لجهله أنه يشرع ديناً ويضع شريعة ، إنكم لفي ضلال مبين ، أين دين الهتلرية ؟ لقد ذهبت به هزيمة واحدة ، وهزيمة مثلها تذهب بباقي الحماقات التي حسبتموها أدياناً !

أما الإسلام : فهو في ذاته قوة لايحتاج إلى قوة أتباعه ليؤيدوه بها ، بل هو الذي يؤيدهم بقوته فينصرون . ولقد تأخر المسلمون ورجع بهم الزمان القهقرى ، ولكن الإسلام نفذ من الحجب ، ولبث يتقدم . إن المبشرين ينفقون كل سنة القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ثم لا يأخذون واحداً ، حتى يأخذ الإسلام بغير مال ولا عمل تسعة وتسعين . .

الإسلام ينتشر اليوم بنفسه في أرقى ممالك أوربة ، وفي أحطِّ بقاع أفريقية ، والمبشرون لم يستطيعوا أن يُدخلوا في النصرانية (مسلماً) واحداً . إنهم يجمعون الجهلة من المغاربة الذين لا يعرفون ما الإسلام ، فيطعمونهم ويطمِّعونهم ، ثم يلقون عليهم عجائب المسيح ، فإذا وصلوا إلى موضع المعجزة ، صاحوا كلهم بلسان واحد متعجبين : الله أكبر ، لا إله إلا الله !

وينزل المبشر على القبيلة في أواسط أفريقية فيعطي ويرغِّب ، ويبقى سنة كاملة ، فلا يستجيب له منها إلا النفر المعدودون ، ثم يأتي التاجر المسلم الجاهل ، فينام عندهم ، ويأكل طعامهم ، فلا يأتي الشهر حتى تكون القبيلة كلها قائمة وراءه تصلِّي على دين « محمد » ... والمبشِّرون ينظرون !!

أفتشكُّون بعد هذا أن الإسلام قوة هائلة للمسلمين ؟!

هل عرفتم الصواعق المنقضة ؟ هل رأيتم الصخور المنحطَّة من أعالي الجبال ؟ والسيول الجارفة ؟ والبركان الهائج ؟ و ... وكل ما في الكون من قوة ؟ إنها لن تصدَّ غضبة المسلم إذا كانت لله ولمحارمه ولدينه ! هل فيها أشدُّ من الموت ؟ فهل يخيف الموت رجلاً خرج يطلب الموت ؟!

* * * *

إن سرَّ قوة هذا الشعب ، إنما هي عقيدة القضاء والقدر على الوجه الإسلامي الصحيح ، ولكن القادة قلَّما يدركون هذا السر وقلما يعمدون إلى الاستفادة منه ، لأنهم نشؤوا يوم كان الشرق ينظر إلى أوربة نظر التائه في البحر إلى المنار الهادي ، ويأخذون كل ما يأتيهم منها على أنه الحق الصراح ، فكان فيما أخذوه وقلَّدوا فيه بلا فهم ، مبدأ (فصل الدين عن السياسة) ، ورأوه استقام في النصرانية ، فحسبوه يستقيم في الإسلام ، وما درسوا الإسلام على حقيقته ، حتى يعلموا أنه دين وسياسة وأخلاق ، وأن سورة (براءة) سياسة ، أفنفصل سورة (براءة) عن القرآن ؟!

وأمر آخر ، هو أن هذا الشعب تلقَّى عشرة آلاف دعوة إلى البذل في سبيل الله ، فلبَّاها كلها ، ولكن الدعاة لم يكونوا يلبون أنفسهم في كل حين ، وكان فيهم من يلقي كلمته لا يتصوَّر منها إلا ألفاظها ووقعها في الآذان ، فهي من لسانه إلى أسماع الناس ، لا من قلبه إلى قلوبهم ، فهو من أجل ذلك يدع الشعب وحده ويمضي إلى داره ليتحدث عن براعته في الإلقاء ، وقدرته على الخطابة ، وفيهم من يريد أن يسوق الناس ويقعد ، وهذا الشعب لا يطيع إلا من يمشي أمامه ،

ويشاركه سرَّاءه وضرَّاءه ، أما المترفون الذين يريدون أن يناموا على عواتق الشعب ، ويغتنوا من مال الشعب ، فإن هذا الشعب ينكرهم ويبرأ منهم ، فعلى الزعماء أن يفهموا ذلك حق الفهم ، وأن يكون لهم في رسول الله أسوة حسنة ، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، يجوع كما يجوع قومه ، ويتعب كما يتعبون ، ويعمل بيده مثلما يعملون ، بنى معهم مسجد المدينة ، وحفر معهم الخندق ، وكان يسرع إلى الخطر بنفسه . وقع الصريخ مرَّة في المدينة ، فخرج الناس عجلين ، فإذا هم برسول الله ، قد وصل إلى مكان الخطر على فرس عريان ، لم ينتظر حتى يسرج له ، ورجع يطمئنهم بأنه لا شيء هناك . ولقد ثبت يوم أحد ويوم هوازن لمَّا انهزم الناس ، وكان يقول معرِّفاً بنفسه : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب . لم يَسُقِ الناس إلى الموت ويَقُمْ في قصره ، ولم يختصَّ نفسه بمأكل ولا ملبس ولا مركب ، ولم يربط لنفسه وظيفة من بيت المال ، ولم يحمل أسرته وأهله على الناس ، ولم يولِّ عاجزاً ولاية لصداقة أو قرابة ، ولم يبعد عنها قادراً لبغض أو عداوة ، ولم يتَّخذ قصراً ، ولم يُقِمْ حاجباً . وكذلك كان خليفته وصاحبه أبو بكر ، وكذلك كان أمير المؤمنين عمر ، ومن أجل ذلك أجمع الناس على طاعة أبي بكر وعمر ، فلم يختلف عليهما اثنان!

أما إن هذا الشعب أقوى الشعوب روحاً ، وأطيبها عنصراً ، وأصفاها جوهراً ، ولكنه ينقصه الزعماء ، فهاتوا واحداً مثل عمر ليقوده ، وانظروا كيف يأتي بالمعجزات!

* * * *

يا أهل فلسطين

ألقيت في حفلة المؤتمر في القدس وأذيعت سنة ١٩٥٧

ليس هذا الكلام لكم وحدكم ، بل لكل من يصل إليه صوتي ، لكل عربي في الأردن ، والشام ، ومصر ، والجزيرة ، والعراق ، لتعلموا أنكم لستم في الميدان وحدكم وأن لكم إخوانا ، إن لم يحضروا معكم الليلة بأجسادهم ، فهم معكم بأسماعهم ، وهم أبداً معكم بقلوبهم ، وهم معكم في المعركة الحمراء ، يوم يجدُّ الجد ويحمى الوطيس ، ويأذن الله لهذه السيوف أن تنصلت من أغمادها ، ولتعلموا أن كل عربي في الدنيا معكم ، وكل مسلم في الأرض معكم ، وكل منصف من بني الإنسان يقدِّس الحق ويحب العدل هو معكم .

يا أيها السادة :

لقد كان من توفيق الله للمؤتمر أن جعل لفلسطين يوما في السنة ، يشتغل فيه المسلمون بقضية فلسطين ، ويذكرون فيه قضية فلسطين ، وكان من تمام هذا التوفيق أن جعل يوم فلسطين هو يوم الإسراء ، ليذكر المسلمون أنهم إن فرَّطوا في هذا الحرم ، أو تركوا اليهود يهدمون لا سمح الله ولا قدَّر ، قبَّة الصخرة وهذا المسجد الأقصى ليقيموا على أرضهما هيكل سليمان ، فقد أضاعوا قبلتهم الأولى ، وحرمهم الثالث ، ومسرى نبيهم ومعراجه ، ولن يكوِّن ذلك بإذن الله أبدا .

وفي هذه الساعة ، يجتمع المسلمون في كل مدينة وكل بلد وكل قرية مثل اجتماعكم ، يخطبون مثلما تخطبون ويشعرون بمثل ما به تشعرون ، ولقد كنت في مثل هذا اليوم من ثلاث سنين أخطب في (هايد بارك) كراتشي ، في حديقة (آرام باغ) حيث كان يستمع إليَّ أكثر من مئة ألف . فلم يكن يُذكر الأقصى ، ولم تكن تُذكر فلسطين حتى تفيض القلوب دموعاً من العيون ، وتشتعل الحسرات

وتعلو الزفرات . ومن قبل خطبت في الأموي في دمشق والأزهر في القاهرة ، ومسجد الإمام الأعظم في بغداد ، ومن بعد خطبت في المسجد الجامع في دهلي ، وفي ندوة العلماء في لكنو ، وفي ساحة كمبير في جاكرتا ، فما كان يختلف عليَّ إلا الزمان والمكان ، واللون واللسان ، أما الإيمان فهو هو ، وأما العاطفة فهي هي ، وأما الحماسة لفلسطين . والحب لهذا الحرم ، والرغبة في الجهاد في سبيله فلم تكن تختلف أبداً .

ولقد كنا نجد في رحلتنا من يعتب علينا لما صنع بعض قادتنا في حرب فلسطين ، ولما يهمل بعض دعاتنا من ذكر الإسلام ، وما يقفون عنده من ذكر العرب ، حتى إن فخامة الحاكم العام السابق في باكستان غلام محمد شفاه الله ، واجهني بهذا لما زرته أحدِّثه عن فلسطين ، فقلت له : يا فخامة الحاكم ، هب أن العرب قصروا أو أهملوا أو ارتدوا لا سمح الله ، فهل الأقصى مسجدهم وحدهم ، وهل محمد نبيُّهم وحدهم ،وهل القرآن لهم وحدهم ، فانصروا فلسطين ، وأنقذوا الحرم الثالث ، لا من أجل العرب ، بل لأنه مسرى محمد ﷺ ولأنه بيت الله ، أتدرون ما كان جوابه ؟ إنه لم يستطع الجواب ؛ لأنه بكى حتى شَرِق بالدمع ، وبذل لنا هو وحكومته أكثر مما نطلب .

ولما كانت الحفلة التي أقامتها الجالية العربية تكريما لجلالة الملك سعود في (فندق بيج) في كراتشي قلت له : قلت له أنا الذي لم يَنْظم في عمره إلا هذه الأبيات :

يا خادم الحرمين تترك ثالث الـ	حرمين يعدو فيه كلب يهود
هو حصن حق غاب عنه حماته	هو قلعة لكن بغير جنود
لاالعطر والندُّ المصفَّى طيبه	لكنَّ ريَّاه شذا البارود
يَصْلى المصلِّي النار في جنباته	والمسلمون بنومة وهجود
أينام من تقرى المدافع سمعه	صوتاً يزلزل قنَّة الجلمود ؟
أينام من يمشي اللهيب بداره	يشوي حميم لظاه رمل البيد ؟

قد فرَّ منه الناس إلا فتية ... من كل قرم ثابت صنديد
قد أقبلوا يُورون حرباً أدبرت ... عنها أراهط عدة وعديد
ولقوا بلحم الصدر أثقال العدى ... صبروا على نار لهم وحديد
لاحصن يحميهم وإن حصونهم ... في كل ثغر جثة لشهيد
أسعود ، باكستان أكبر دولة ... ولأنت أكبر سيِّد وعميد
أيضيع بينكما مصلًّى أحمد ... ويعود هيكل معبد ليهود
المرأة الشلاَّء تحمي بيتها ... أنبيح بيت الخالق المعبود ؟

قال الملك : لبيك لبيك دمي ومالي لفلسطين .

وكان في أندونيسيا جماعتان إسلاميتان ، ماشومي ، ومسلم ليك ، وكان بينهما من الاختلاف مايكون بين الأحزاب السياسية ، وكانت إحداهما في الحكومة والثانية في المعارضة ، لكنا لما دعوناهما إلى حفلة فلسطين ، حضر زعماء الجماعتين ، فلما ذكر الأقصى ووصفت مأساة فلسطين ، رقَّت القلوب ، وفاضت العيون ، فغسل الدمع ماكان من خلاف ، واجتمع في لجنة فلسطين محمد ناصر رئيس ماشومي ، والكيا[1] دحلان رئيس المسلم ليك .

إن أهل فلسطين إخواننا وأشقاؤنا لهم علينا ، على العرب كلهم ، على المسلمين جميعاً حق الشقيق على الشقيق ، وإن هذه الأرض الحبيبة ، أرض فلسطين وطننا ، وطن العرب كلهم ، وطن المسلمين جميعاً ، ولها علينا حق الأوطان على أهلها ، وإن فيها من ذكريات البطولة ، والمجد مايهز القلوب ويثير العزائم ، ولكن القضية أكبر من النسب والأخوة ، وأكبر من الوطن والوطنية ، وأكبر من النخوة والحماسة ، إنها قضية دين وعقيدة ، إن كل مسلم يدخل المسجد

---

(١) الكيا معناه الشيخ أو الأستاذ ومنه الفقيه الشافعي المعروف الكيا الهراسي وماشومي وهو مجموعة أحزاب إسلامية يبلغ عدد أتباعه (١١ مليوناً) من الحروف الأولى لجملة (مجلس الشورى الإسلامي) ومسلم ليك أي الجماعة الإسلامية .
وتفصيل خبرها في كتابي عن أندونيسيا .

الأقصى ، ويقوم حيال الصخرة ينسى كل شيء إلا أن ههنا موطناً من موطن الروح ، منزلا من منازل القدس ، تُسترخص في سبيله الأرواح ، ويبذل في سبيله كل شيء ، إنها قضية جهاد في سبيل الله ، والله هو الباقي إذا ذهبت البطولات والأمجاد ، وصحف الحسنات هي الخالدة إذا فنيت صحف التاريخ ، وماكان لله فهو المتَّصل .

ثم إنها قضية حق ، لايستطيع منصف في الدنيا إلا أن يكون معها ، وهل في الدنيا منصف واحد ، هل فيها رجل يحترم رجولته ، وإنسان يقدِّر إنسانيته يقر منطق الصهيونية وأنصارها ، ياصاحب الدار ، إني أريد أن أسكن في دارك ، فاخرج منها وتنازل لي عنها ، وإلا ذبحتك وذبحت أولادك .

الحق معنا ، ولكن سنة الله في هذه الدنيا ، أن الحق إن لم تكن معه القوة سطا عليه الباطل حينا ، وللباطل جولة ثم يضمحل ، ونحن لما تركنا سنة الله ، ولم نَحْم حقًّا بقوتنا كان ماكان في فلسطين .

على أنا لم نغلب في فلسطين . إنكم سمعتم هذه الحقيقة مني مراراً من إذاعة دمشق ، وأثقل الكلام الحديث المعاد ، ولكني أعيد الليلة ذكرها ؛ لأن هذا الكلام يسمعه ناس ماسمعوا خطبي وأحاديثي في إذاعة دمشق ، التي تعاودكم في كل أسبوع من خمس عشرة سنة إلى اليوم ، لاماغُلبنا في فلسطين ، إنما غلبت فينا خلائق غريبة عنا ، خلائق قبسها بعض رجالنا من أعدائنا ، خلائق التفرق والتردد وموالاة الأجنبي ، هذه هي خلائق الهزيمة .

ولقد استمرت رحلتي من أجل المؤتمر تسعة أشهر ، وقطعت فيها أكثر من أربعين ألف كيل ، وخطبت فيها أكثر من مئة خطبة ، وعقدت أكثر من أربعين مؤتمراً صحفياً ، كنت أسأل فيها وأجيب ، أفتدرون أني لم أكن أعيا بسؤالي ، إلا سؤالاً واحداً ، كنت أعيا بجوابه . وكنت أغصُّ بريقي خجلاً ، وكنت أتمنى لو تنشقُّ لي الأرض لأفرَّ منه فراراً ، هو سؤالهم : لماذا لم يتَّحد العرب ؟ ولماذا لما يحاربوا في فلسطين ؟ ولماذا رضوا بالهدنة ؟

ولكن رأسي بدأ الآن يرتفع .

لقد سرنا في طريق التاريخ بسرعة الطيارة ، فبلغنا في تسع سنين ، من يوم فلسطين إلى اليوم ، مالم تكن تبلغه الأمم في تسعين سنة .

ولاأضرب لكم الأمثال ، فالأمثال تحت أنظاركم ، ولاأقيم لكم الشواهد ، فالشواهد حيال أعينكم ، فانظروا ماقطعناه في تسع سنين .

لمَّا كان المؤتمر ياسادة من ثلاث سنين ، دعا الملك حسين وفود المؤتمر ، وكنت مريضاً فلم أذهب ، فلما رجعوا يحدثونني حديث الوليمة ، قصُّوا علي كيف كلمه أخونا الأستاذ الإبراهيمي ، فقال له : إن موسى ربَّاه فرعون فكان له ولقومه عدواً وحَزَنَا ، وأنت رُبِّيت عند الانكليز ، فكن لهم كما كان موسى لفرعون .

فأكبرت الكلمة ، وأعظمت جرأة الشيخ في قولها ، ونبل الملك في استماعها ، ولكني رأيتها ، كما رآها الإخوان كلهم ، خيال شاعر .

الملك حسين يحارب الانكليز ؟ كيف وكلوب في الأردن ؟ هل يستطيع أن يكفَّ من سلطان كلوب ؟

فلم يمر عشرون شهراً حتى سمعت خبراً عجيباً ، لقد طُرد غلوب من الأردن ، وكذبت سمعي ، وفركت عيني لأرى هل أنا في يقظة أم في منام ، فوجدت أني في يقظة ولكنها أعجب من المنام .

ومرت الأحداث مسرعة تزيغ منها الأبصار ، وسبقت الحكومات العربية ، أعني أكثر الحكومات العربية شعوبها ، وصرنا نرى في رؤسائنا زعماء لنا في النضال لاحاكمين يأخذون بخناقنا ، ويغلُّون أيدينا لئلا نكافح أو نناضل ، لم يعد فينا حاكم ومحكوم ، ولكن قائد وجنود ، والهدف الساحة الحمراء ، والراية راية الجهاد .

وحينما يدنو يوم المعركة ، لن يجد اليهود ومن هم وراء اليهود سبعة جيوش متفرقة ، بل جيشاً موحداً ، ولن يروا قادة ينهون عن القتال ، ويأمرون بالانسحاب ، ولن يجدوا من ورائهم زعماء ، يلبسون في الليل أمام المستعمرين

جلد التابع الذليل ، ويلبسون في النهار أمام العرب جلد الزعيم المطاع .

وإن كان قد بقي أحد من هؤلاء من عجائز النحس كنوري الشقي غير السعيد ، كان ملك الموت لهم بالمرصاد ، فإن لم يحلَّ ملك الموت المشكلة حلَّها الشعب العربي الأبي الذي يشرب ماء دجلة والفرات[1] .

ياسادة نحن اليوم غير ماكنا بالأمس .

وإذا كنت قد قمت يوم المؤتمر على هذا المنبر أتكلم كلام الأديب الذي يثير الهمم ، ويبعث العزائم ، فأنا لاأحتاج اليوم إلى حماسة الأديب ، ولا إلى خيال الشاعر ؛ لأن لدي من الوقائع مايغني عن الخيال .

وهل يبلغ الخيال أن يصل إلى مايقع اليوم في اليمن ، في الجزائر ، وماوقع في بور سعيد .

في اليمن ، يردُّ الرجال الدبابات ، ويقابلون بالبنادق المدافع ، وينتصرون .

وفي الجزائر ، يحارب المجاهدون ، نصف مليون جندي ، نصف مليون ، بأيديهم أسلحة حلف الأطلنطي .

وفي بور سعيد ، لقد ردَّ أهل بور سعيد جيوش فرنسا وإنكترا معاً ، فمن كان يتصور هذا ، من كان يتصور أن يكون ؟

فيارب لك الحمد ، الحمد لله .

ولكن لاتحسبوا أننا انتهينا ، هيهات هيهات ، إن دون النهاية طريقاً طويلاً ، ومشقَّات وأهوالاً .

وإذا نسيتم فانظروا حولكم ، انظروا إلى هذا السفح المطلِّ عليكم من عل ، المطل على الحرم ، يتصيَّد من فيه من المصلين في الحرم والعاكفين فيه ، إنهم هناك ، إنهم هنا وراء باب العمود ، ولولا هذا السور الذي أقامه المؤتمر ، لوصلت

---

(١) وقد كان هذا بعد سنة واحدة من إلقاء هذه الخطبة .

إلينا هنا نارهم ، انظروا إلى تلك الرابية حيث تقوم القدس الجديدة ، حيث تقوم منازل العرب تردُّ اليهود .

يامستمعيَّ في الشام ، اسمحوا لي أن أعيد أسطراً مما كنت قلت لكم الجمعة الماضية ، لأن هذه الخطبة تذيعها الإذاعات الثلاث المصرية والأردنية والسورية . ولاعليَّ إذا أعدت تلك الأسطر لمن لم يسمع حديثي الماضي .

ياأيها السامعون لكلامي هذا وأنتم في منازلكم ، على ضفاف النيل ، وضفاف بردى وشطوط الرافدين ، تعالوا انظروا ماحال المسجد الأقصى ، إنه لم يعد المسجد الأقصى مثابة الأمن وحرم الأرض المقدسة ، ولم تعد قبَّة الصخرة نقطة الدائرة العربية المسلمة ، التي تطيف بها من كل جانب ، تمتد رحيبة فسيحة حتى تصل من هنا إلى أواسط فرنسا ، ومن هناك إلى حدود الصين ، كما كانت على عهد الخلفاء من أبناء عبد الملك ، إذ كان كل مايدور عليه محيطها لنا ، لنا وحدنا ، ترفرف عليه رايتنا ، وتحكم فيه شريعتنا ، ويمرح من فيه أحراراً في حمى عدالتنا ، سعداء في فَيء حضارتنا ، قد فتحناه بسيوفنا ، وسقينا أرضه بالماء الأحمر الدافيء الدافق من عروقنا ، وغرسنا فيها الأغراس الطاهرة الغالية من أجساد شهدائنا ، وغذيناها بذوب عقولنا ، وعصير أرواحنا ، فأنبتت هذه الحضارة الخيِّرة حضارتنا ، وهذا المجد الضخم مجدنا .

لقد كنت أحب أن أظل سادراً في مسارب الماضي ، أمرُّ على رياض الذكريات ، أجمع لكم طاقة زهر لكل زهرة فيها لون ، وفي كل زهرة أريج ، قد تنوعت فيها الألوان ، وتنوعت فيها العطور ، ولكن الحاضر يردني إليه رداً عنيفاً ، فلا أجد إلا زهرة واحدة أقدمها لكم ، زهرة برية وحشية قد نبتت على قبر طري ، فلها لون الدم ، ولها رائحة الفناء ، ومن موحياتها الحزن والأسى ، ليس من موحياتها البهجة والانشراح .

لقد تبدَّلت الأرض غير الأرض ، فلم أعد أقدر أن أجلو لكم ، ياأيها السامعون إليَّ من بعيد صورة القدس الحرم الوادع الذي يستشعر القائم فيه أمن

الحرم ، ولذة العبادة ، ونشوة الخشوع ، لا ولا القدس مثار الذكريات الماجدة الكريمة ، ذكريات النصر والعزة والعلاء . ذكريات عمر وعبد الملك وصلاح الدين . لا ولاالقدس التي عرفتها لما جئتها أول مرة من ثلاثين سنة ، فوجدتها تميس بالراحة الدائمة والعيش الناعم ، لقد حالت الحال ، وانقضت أيام النعيم ، ولم يبق من القدس إلا مايبقى في الميدان إثر المعركة ، وحشة الموت ، وآثار الدماء ، وبقايا الضحايا .

فتعالوا شاهدوا القدس ، وأنتم يامن جئتم اذهبوا غداً لتشاهدوا القرى الأمامية . وتروا كيف يصبر أهلها على مالم تصبر على مثله شُمُّ الرواسي ، يحملون مالاتحمله مَرَدَة الجن ، يقيمون على الصخرات التي شُيِّدت عليها دورهم ، والبساتين التي هي تحت القرية ، في السهل ، بساتينهم هم صارت لعدوهم ، لليهود ، يرون كل هذا فتتقطَّع نفوسهم حسرات ، ومع هذا الألم الذي يقطع النفس ، ومع الجوع الذي يقطع الأمعاء ، ومع الفقر والحاجة وأنه لامورد لهم وهم في رؤوس الجبال ، لابيع ولاشراء ، ومع قلة السلاح ، ونقص العتاد ، فإنهم ثابتون ، يتحملون هجمات لصوص اليهود كل ليلة ، كل ليلة لا كل أسبوع ولا كل شهر . يرابطون ليحموا هذه الأرض المقدسة عند المسلمين ، والمقدسة عند النصارى ، ليحموها ويحموكم وأنتم هنا في الشام ، ويحموا من في لبنان والعراق من غدر إسرائيل ، ولايطلبون طعاماً ولاكسوة ، بل لقد ثاروا في وجوهنا لما عرضنا ذلك عليهم وقالوا : إننا نريد سلاحاً .

تصوروا ياأيها السامعون ، يامن يفتح الرادُّ (الراديو) وهو في بيته أمام مائدته بجنب مدفأته ، وحوله أهله وأولاده ، تصوروا لو أنكم لاسمح الله فقدتم ماأنتم فيه من نعمة وأمن ، وصرتم مثلهم هل يبقى عندكم من الإيمان ماتقولون معه نريد السلاح لنقاتل ، أم تلقون بأنفسكم على أقرب مائدة ، أما أنا فلقد سألت نفسي هذا السؤال ، ولاأكذبكم القول ، لقد شككت في نفسي .

إن هؤلاء الناس ، قد يصبرون يوماً ويومين وشهراً وشهرين ، ولكنهم لايصبرون إلى الأبد ، إنها إن صبرت قلوبهم التي امتلأت بالإيمان ، فهل تصبر

بطونهم التي خَلَتْ من الطعام . وإن صبرت بطونهم فهل تصبر بطون أطفالهم الذين يهتفون : (بابا جوعانين) ، لقد طالما دفعت هذه الكلمة آباء إلى الإجرام ، كلمة (بابا ، جوعانين) .

لقد وقفنا نحن أعضاء المؤتمر ، نحن السبعين رجلاً الذين قَدِموا من أطراف دنيا الإسلام من فاس إلى الصين إلى أندونيسيا ، إي والله منها جميعاً ، وقفنا على هذه القرى ، في أطلال قِبْية وبكينا واستبكينا بكينا والله حتى سالت الدموع ، وحتى نشجت الصدور حين رأينا أنقاض مدرسة قبية التي أسقطها ذئاب اليهود على رؤوس من كان فيها من الأطفال البرآء فما صرخ منهم أحد ، وبكينا حين رأينا صفوف الأطفال في كل قرية تقف متسلسلة في برد الصباح ، وشمس الهاجرة وظلمة العشيَّة لتأخذ غَرْفة من حِساء لايسمن ولايغني من جوع .

بكينا حين رأينا الحارس في قرية أدنة ، يدع أهله ، ويهجر فراشه ، ويحمل بندقيته وجسده شبه عار ، وبطنه شبه خاو ، وأولاده في الدار بلاعشاء . ثم يردُّ بهذه البندقية العتيقة أحدث سلاح جاء به اللصوص من وراء المحيط ، وبكينا حين رأينا أهل قلقيلة لما حرمت عليهم بساتينهم وبقي لهم الصخر ، قد حولوا هذا الصخر من جديد إلى بساتين ، وبكينا ، بكينا دماً حين قيل لنا أن هذه الجنان إنما سلمتها قوى العرب لليهود .

ولكننا بكينا بكاء الإنسان لابكاء النساء ، بكينا لالنغسل بالدمع جثة أمجادنا ، بل لنسقي بالدمع تربة نفوسنا ، فتثمر بطولات وأمجاداً ، بكينا وعملنا ، أقمنا الحصون في هذه القرى ، وفي القدس ، وجلعنا فيها رجالاً لايهابون الموت ، ولاتنقصهم خبرة ولافن ولااستعداد .

وألَّفنا اللجان لفلسطين في كل مكان ، وهذا وفد لجنة أندونيسيا يزور الآن دمشق ليرى من قريب ، ويشارك في العمل .

فاسألوا قوم بلفور كم من حق فلسطين سلب ، سلوا قوم بلفور كم من دم أريق ، سلوهم كم من نفوس أزهقت ، كم من أرواح ذهبت ، كم من ولد

أصيب وهو على يد أمه . وكم من أم أصيبت وفم صبيِّها على ثديها ، فرضع منها مكان اللبن دماً .

سلوا أدعياء الديمقراطية ، أكانت فلسطين ملك بلفور ، بالسجل العقاري قد شرَاها بماله ، أو ورثها عن أبيه حتى يتصرَّف فيها هِبَةً ووعداً .

ولكن لا ، لا تسألوهم ولا تكلموهم ، بل اعتمدوا على ربكم ثم على أنفسكم .

إن أبطال الرياضة يا سادة إذا لم يتدربوا ، قبل أن يدخلوا المباريات المتعبة تذهب قوتهم ، ونحن المسلمين أبطال البشر ، وكلما بعد عهدنا بالتدريب كتب الله علينا دورة تدريبية جديدة ، وكلما انقضت مباراة جاءت مباراة أشد منها .

وهذه إحدى المباريات .

ولقد رأينا مصائب أشد ، فإن كنتم لا تعرفون التاريخ فاسألوا هذا المنبر الذي أخطبكم من فوقه ، واقرؤوا ما كتب عليه .

لما صنُع هذا المنبر كانت القدس في أيدي الصليبيين المستعمرين ، كانت في أيديهم لا من شهر ولا شهرين ، ولا من سنة ولا سنتين ، بل لقد بقيت في أيديهم نحوا من مئة سنة .

مئة سنة لو مرت على غير المسلمين ليئسوا منها ، ولكن المسلم لا يعرف اليأس ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

في تلك الفترة يا سادة ، وكان البلاء على أشده ، وكانت البلاد على شر حال من الانقسام ، وكان للمسلمين وللصليبيين في سورية إحدى عشرة حكومة ، كان السلطان العظيم العادل نور الدين زنكي يفكر في استعادة القدس ، وكان واثقاً بنصر الله حتى إنه صنع لها هذا المنبر في حلب .

ومات قبل أن يضعه في مكانه في الأقصى .

وجاء السلطان العظيم صلاح الدين ، ففتح حلب ، وقام القاضي ابن الزكي يهنئه ويقول :

وفتحكم حلباً بالسيف في رجب   مبشر بفتوح القدس في رجب

وكان من تقدير الله يا سادة أن كانت حطين ، وفتحت القدس ، في مثل هذا اليوم يوم سبع وعشرين رجب من سنة ٥٨٣ ، ونصب المنبر في المسجد الأقصى وخطب عليه ابن الزكي .

فلا تشكُّوا في النصر ، فإن النصر لكم إن كنتم مع الله ، وإن أقمتم دينه ، وإن حكَّمتم شرعه .

واصنعوا من الآن المنابر ، منبراً للمسجد الكبير الذي سرقه الفرنسيون في مدينة الجزائر ، وعلَّقوا في مئذنته الناقوس ، ولمسجد يافا وحيفا ، وللمسجد الذي سيقام في تل أبيب .

أعدُّوها من الآن ، فإن الذي نصر نور الدين وصلاح الدين سينصركم ، ويشد أزركم ، إن الله ينصر من ينصره ، وما النصر إلا من عند الله .

في ليلة الإسراء

هذي ليلة الإسراء يا أيها السامعون ولكني لا أحدثكم حديث التاريخ فإنكم تعرفونه ، ومن لم يكن يعرفه يستطيع أن يفتح كتب السيرة الصحيحة ويقرأه ، إنكم جميعا تعرفون قصة الإسراء ، ولكنكم لا تعرفون أن المسجد الأقصى الذي كان مسرى محمد ﷺ ، وكان منه معراجه ، لم يعد الحرم الآمن ، ولم يعد يجد القائم فيه طمأنينة المتعبد وسكون الخاشع ، ولكنه غدا ساحة حرب ، مدافع اليهود مسلطة عليه من فوق الجبل . فكيف يا أيها السامعون والسامعات يستطيع المسلمون أن يحتفلوا بالإسراء ، ومسرى نبيهم وقبلتهم الأولى تُصلى بنار الأعداء ؟

كيف يهدؤون ويهنؤون وصخرة الأقصى قد اشتعلت من حولها النار ، كيف يرضى نصارى العرب أن تكون القيامة ، وبيت لحم التي ولد فيها عيسى بن مريم روح الله وكلمته وعبده على مرمى مدافع اليهود ؟.

ماذا تنتظرون ؟ أتنتظرون يوما ، تريدون أن تحتفلوا فيه بالأسراء ، فتتلفَّتون إلى المسجد الأقصى ، فترونه قد ذهب وقام فيه هيكل سليمان ؟

لا يا سادة ، أنا لا أخشى قوة اليهود ولكن أخشى تخاذل المسلمين ، إن اليهود ما أخذوا الذي أخذوه بقوتهم ولكن بإهمالنا ، إن إهمال القوي هو الذي يقوي الضعيف .

وما أخذوا الذي أخذوه بأيديهم ولكن بأيدي من يدفعهم ويحميهم ، بأيدي الدول الكبرى التي تتركهم يضربوننا غدراً ومكراً ، فإذا أردنا أن نمدَّ أيدينا لرد الضربة أمسكوا بأيدينا ، كالولد المدلل الذي يمشي وراءه الخادم المسلح ، يضرب الشاب القوي الذي يستطيع أن يخنقه بيد واحدة ، فإذا أراد الشاب أن يدفع عن نفسه لوَّح له الخادم ببندقيته .

ونحن ماغُلبنا في فلسطين ، هذه حقيقة أكررها وأعيدها دائما ، ما غلبنا ، أتدرون لماذا ؟ لأننا ما حاربنا ، ماتركونا نحارب . . .

ولكن الخادم المسلح لا يبقى دائما واقفاً يحمي الولد ، ولابد أن يأتي يوم نستطيع فيه أن نقوم في الميدان نحن واليهود وجهاً لوجه وسيرى الناس يومئذ ماذا يكون ؟

إن هذه الدولة لا يمكن أن تدوم ، لا يمكن أن يعيش مليون يهودي في أرض مقتطعة من بلاد فيها خمسمئة مليون[1] ، إن مسلمي الأرض قد بلغوا الآن بالإحصاء خمسمئة مليون ، كل واحد منهم يرى من الواجب عليه لربه ولدينه ولأمته أن يعمل شيئا لطرد اليهود من فلسطين ، والمجنون وحده هو الذي لا يبالي بعداوة خمسمئة مليون ، لأنه لو كان مكانهم خمسمئة مليون قط ، خمسمئة مليون نعجة ، لاستطاعت أن تكتسح في طريقها دولة إسرائيل ، ولن نترك هذه الدولة تستريح أبداً ، وسنلقن أولادنا من المهد بغضها والعمل على دفع شرها ، حتى يصير ذلك عقيدة راسخة في كل نفس ، وحقيقة مسلَّمة في كل ذهن ، فكلما مرت الأيام ، وطال الأمر ، عظم الغضب وكبر الثأر ، وكثر المطالبون ، فلا تحسبوا أن الزمن يحل المشكلة ، كلا بل هو يشدها ويحكمها ، وهي اليوم بذرة في النفوس ، تسقيها عزة المسلم وكرامة العربي وغضبة المظلوم ، ثم تصير نبتة ، ثم تصبح شجرة ، ثم تمسي دوحة ممتدة الجذور باسقة الأغصان ، لا تقوى على اقتلاعها العواصف .

ولن يكون صلح أبداً ، أبداً واللسان الذي يتحدث في الصلح يقطع ، واليد التي تمتد للصلح تبتر ، لا صلح أو يعود الحق إلى نصابهِ والوطن إلى أصحابه .

إن قضية يؤمن بها ويدافع عنها ألف شخص لا تموت ، فهل تموت قضية فلسطين وقلوب خمسمئة مليون إنسان تخفق بذكرها من العرب المسلمين ، والمسلمين غير العرب ، والعرب غير المسلمين ، من أقصى المشرق إلى أقصى

---

(١) زادوا الآن على ألف مليون .

المغرب ، من الصين والملايا إلى الجاليات الإسلامية في باريز ولندن ونيويورك وبونس آيرس ؟

ويلقنون قضيتها أبناءهم ، يرضعونها مع لبن الأمهات ، ويتلقونها مع خبز الآباء ، وألف باء المعلمين .

لقد سُحْت في أقطار آسيا كلها ، وألَّفت فروعا للمؤتمر الإسلامي في كل بلد فيها . ورأيت كيف كانت تسيل من الحزن الدموع ، وكيف كان يعصف الغضب بالقلوب ، كلما حدَّثتهم حديث فلسطين ، ووصفت لهم حالة المسجد الأقصى ، وهم حين يجدون الجماعة التي يثقون بأمانتها يقدمون أموالهم وما يملكون ، ويقدمون إن دعا داعي الجهاد أرواحهم في سبيل فلسطين ، فهل تشكُّون بعد هذا بأن فلسطين ستعود إلينا ؟

ستعود حتماً ، فإن كنا أهلا لشرف النصر كانت عودتها على أيدينا ، وإلا أخرج الله من أصلابنا ، من أبنائنا وحفدتنا من هم خير منا فأعادها على أيديهم هم .

يا أيها السامعون والسامعات .

إن روح البطولة لا تذهب من نفوس المسلمين إلا إن ذهبت أرواحهم ، إن محمدا ﷺ قد جعل كل واحد من أمته بطلا على رغم أنفه ، ولقد كنت كلما قلت لكم هذا الكلام ، عجبتم من حماستي ، فأرتْكم الأيام صدق هذا الكلام .

لقد رأيتموه في الأردن ، أفما سمعتم خبر الأردن ؟

لو كان يمكن لشعب عربي مسلم أن يستمريء حياة الدَعَةَ والأمن والربح في ظل الأجنبي لكان شعب الأردن ، لا لشيء ، بل لأن الانكليز هم أقاموا البلد وهم ربَّوْا حاكميه . وهم سخروا أقدر رجالهم (من هو أقدر من لورنس) ليسخِّر لهم جيشه ، واستمر ذلك أكثر من ثلث قرن ، وحسبوا أنه قد صفا لهم هذا البلد .

فماذا كانت النتيجة ؟

وثب شعب الأردن وثبته ، عمل فيها ما لم يعمله قطر عربي ، لقد شارك موظفوه المضربين واستقالوا من وظائفهم ، وهذا شيء جديد في تاريخ الوثبات العربية .

ثم صنع هذا الصنيع الذي شُدِهَ له الشرق والغرب ، وصفق له كل عربي ، وكل مسلم ، على اختلاف النزعات والأهواء : لقد طرد كلوب .

هذا الصنيع الذي أجدني عاجزا عن التعليق عليه التعليق الذي يستحقه ؛ لأنه أكبر في الحقيقة من كل تعليق .

وللملك الأخر محمد بن يوسف ، لمن آثر العظمة الحقيقة عظمة الجهاد على عظمة الملك ، وآثر تقدير الشعوب على مُتَع السلطان .

ولهؤلاء الزعماء الشعبيين الذين هم اليوم الرؤساء الرسميون .

إنها لنعمة أن يكون على رأس الدولة الرجل الذي كان رأس المجاهدين ايام الجهاد للاستقلال .

نعمة لا يعرف قدرها إلا من عاش أيام الانتداب ، ورأى على سدَّة الحكم رجالاً لا هم منا ولا نحن منهم ، ولا يجمعنا فكر ولا مبدأ ، ولم تضمنا يوما ساحة نضال .

يا أيها الناس استعدوا وأعدوا للعدو ما استطعتم من قوة ، وكونوا أبدا على حذر ، ولكن لا تيأسوا ولا تتشاءموا ، فإننا ماشون إلى الأمام .

تعالوا راجعوا اليوم حسابكم كما يراجع التاجر حسابه ، تروا ما كسبناه في هذه السنوات العشر الأواخر ، لقد قامت للإسلام دولتان في كل واحدة ثمانون مليوناً : باكستان وأندونيسيا ، واستقلت سورية وأخرج الله العدو منها ، وقد كان يملك كل شيء فيها ، واستيقظت الأردن ، وثارت مصر على فاروق ، وبدا فجر الاستقلال في المغرب ، واستقلت ليبيا والسودان ، وبدأت الدول العربية تكسر قيود السياسة وتعمل حرة ، تأخذ ما تريد من الشرق ومن الغرب .

وهذا كله من أسرار الإسلام .

الإسلام الذي لا يموت أبدا ، وكلما حسبوا أنهم قتلوه بسموم الدسائس والبدع والمذاهب الباطلة ، أو حطّموه بفؤوس القوة والسلطان ، نظروا فإذا هو قد انتفض فعاد أقوى مما كان .

هذه تركيا ، لا يزال شعبها بعد ثلث قرن ، من حياة في الكفر والإلحاد ، أرادوها له وربّوا عليها أبناءه ، لا يزال الشعب المسلم المتمسك ، وهذه الجزائر بعد قرن وثلث في الاستعمار لم يدَّخروا فيها جهداً ، ولا ضنّوا بمال ، لتكون قطرا افرنسيا ، إنها لا تزال البلد المسلم الممتلىء بالبطولات والمكارم .

إن هذه البلاد الإسلامية كلها ، تنسى إذا ذكرت فلسطين قضاياها ؛ لأن قضية فلسطين هي القضية الأولى لكل قطر مسلم .

إنها قضية القبلة الإسلامية الأولى ، والحرم الإسلامي الثالث ، ومسرى محمد ﷺ .

فيا أيها السامعون .

أقسموا ، أقسموا الليلة ، ليلة إسراء محمد ، وأيديكم مغموسة بدماء الشهداء الذين سقطوا صرعى الدفاع عن المسجد الأقصى ، والأطفال الذين ذبحهم اليهود ظلما وغدرا في دير ياسين ، والحوامل اللواتي بقروا بطونهن في قبية ونحالين ، وتاريخ الأمجاد المسلمة ، وذكرى المعارك التي خاضها الأجداد ، أقسموا وأيديكم على القرآن ، أنكم ستعملون أبدا لاسترداد فلسطين ، وأنكم لن تنسوا أبدا قضية فلسطين ، وأنكم لن تصالحوا ولن تَدَعوا أحدا أبدا يصالح الغاصبين في فلسطين .

لاتنسوا فلسطين

سامحوني إذا أنا لم أفِ اليوم بوعدي ، وأتمم كلامي عن رحلة المشرق ، فإن الكلام عنها للعلم والمتعة والاطلاع . وما جئت أحدثكم به اليوم للدين والقومية والشرف والحياة ، فهو حديث جدّ لا حديث هزل .

لقد سمعت كما سمعتم نبأ ما صنع اليهود في سيناء ورفح ، خبر الخمسمئة الذين صرعهم اليهود ، ولم يدرِ أحد ماخبرهم حتى وجدوا جثثهم ممدَّدة على ثرى الوطن الذي استلبه اليهود بحراب الانكليز والفرنسيين ، خمسمئة جثة هامدة تنطق لو كان لها لسان ، تستصرخ في نفوس العرب نخوة العرب ، وتبعث في نفوس المسلمين عزة المسلمين ، وتستثير في قلوب البشر عاطفة البشر ، خمسمئة جثة هامدة كانت بالأمس ممتلئة حياة وعزما وأملا ، فصارت كومة من اللحم والعظم ، خمسمئة جثة كم خلَّفت وراءها من أمهات ثاكلات ، ومن زوجات مفجوعات ، ومن صبية وبنات ، كم تركت من قلوب مصدَّعات ، ودموع مسفوحات ، وبيوت مخرَّبات ، وما أودى بها اليهود ، وما كان اليهود ليقدروا على هذا الجرم ، ولا كان اليهود ليستطيعوا ارتكاب شيء مما ارتكبوا من قبل ، لولا من ساعدهم وأيدهم وأعطاهم السلاح ، وسلَّطهم علينا ، حتى إذا سلبونا أرضنا ، وذبحوا رجالنا ، وَعَدوا على نسائنا وفعلوا بنا خلسة وغدرا الأفاعيل ، وأردنا أن ندفع عن أنفسنا الدفاع المشروع ، أن نمنع القتل عنا وعن أهلينا ، أن نردَّ بالمثل ، قالوا : قفوا لا تصنعوا شيئاً .

وإلا فمتى كان اليهودي يطمع أن يعتدي على العربي ؟ هذا هو التاريخ من ألفي سنة إلى اليوم ، فانظروا هل التقى عربي ويهودي إلا كانت العزة للعربي والذل والمسكنة لليهودي ، وهل كان من العرب لهم إلا النبل والشرف والوفاء ،

وهل كان من اليهود إلا الغدر والنذالة واللؤم ، فهل تغيرت طبائع اليهود ؟ وهل استبدلوا بجلودهم جلوداً جديدة ، وبقلوبهم قلوباً أخرى ؟ فصاروا في آخر الزمان أهل الشجاعة والإقدام ؟ وصار لهم النصر علينا ؟ لا ولكنها انكلترا وفرنسا وأمريكا ، وهاتيك الدول .

إننا لم نُغلب في فلسطين ، إنما غلبت فينا خلائق الثقة بالأعداء ، والإصغاء لهم ، والاسترشاد برأيهم ، حتى منعونا أو منعوا جيوشاً من جيوشنا العربية من أن تقاتل ، ثم دفعونا دفعاً إلى هذه الهدنة ، على أيدي رجال هم منا ولكنهم شر علينا من المستعمر ، لأن المستعمر عدو سافر وهؤلاء أعداء مقنَّعون . على أيدي رجال شبُّوا وشابوا على الولاء للمستعمر ، يوالونه أكثر مما يوالي المؤمن ربه ، ويُخلصون له أكثر من إخلاص المصلِّي لمولاه ، يكونون نعاجاً بين يديه ، فإذا خرجوا على شعوبهم لبسوا فوق النعجة جلدة الأسد ، رجال من أمثال نوري السعيد لا أكثر الله فينا من أمثاله ، هؤلاء هم الذين جعلونا نُغلب في فلسطين ، وما غَلَبَنَا اليهود ، يجب أن يفهم كل عربي يسمع حديثي أن الذين غلبونا ليسوا اليهود بل الانكليز والاميركان ، وما غلبونا في ساحة المعركة المكشوفة ، بل بالدسِّ والكيد واستغلال رجال هم خائنون لنا ، ونحن مع ذلك نوليهم علينا ، ونُحكمهم فينا ، هذه حقيقة يجب أن يفهمها كل رجل وكل أمرأة وكل طفل ، وأن يعلِّمها المعلمون تلاميذهم في دروس التاريخ ، وأن يعلموهم معها أننا نستطيع أن نطرد اليهود في كل وقت ، إذا تركتنا هذه الدول نعمل ،إذا تركونا نستعمل حقنا المشروع في الدفاع عن أنفسنا ، إننا نستطيع إذا صَدَقنا العزم أن نطردهم على رغم هؤلاء الكبار ، بل نستطيع أن نحارب الدول الكبار نفسها ، وهذا دليلي قائماً ، هذا الدليل المشهود في بور سعيد ، أما ردَّت هذه البلدة الواحدة الصغيرة انكلتر وفرنسا تنبح معها كلاب الأرض اليهود ؟

أتعرفون لِمَ ظفرت بور سعيد ؟

لأنها طبَّقت الحكم الشرعي الذي كان معطَّلا تطبيقه من قرون فهل تعرفون ما هذا الحكم ؟

هو أنه إذا احتلَّ العدو بلداً من بلاد المسلمين صار القتال فرض عين ، كفرض الصلاة على الرجل والمرأة والكبير والصغير ، فالمقاومة الشعبية التي تحسبون أنها جديدة ، هي حكم الإسلام من نحو أربعة عشر قرنا .

أما قلت إن الإسلام فيه كل شيء ؟

* * * *

لا لم يغلبنا اليهود ، ولا يمكن أن يغلبنا اليهود ، وليس معنى هذا أن ننام ونترك الأبواب مفتَّحة . لا . يجب أن نبقى ساهرين مستعدين ، ولكن على ألاَّ نبالغ في تقدير قوة اليهود ، إن الذي يتهاون بعدوه ويحتقره فلا يتهيأ له يُغلب ، والذي يبالغ في الحذر والهيبة والخوف ينقطع قلبه فَيُغلب ، وأنا أعرف اليهود وقوة اليهود ، ولدي وثائق وارقام تؤكد أن ما يشيعونه عن استعدادهم وسلاحهم ثلاثة أرباعه مبالغات وأوهام ، ولكن خصمنا الحقيقي هؤلاء الذين يَغُلُّون أيدينا ، ويمسكون بنا حتى نتلقى ضربات اليهود ولا ندافع عن أنفسنا .

هؤلاء الذين أقاموا القيامة من سنين ، ونادوا بالويل والثبور ، ونشروا الصور بالمجلات والسينمات لِيُروا العالم كيف انتُهكت حرمات الإنسانية في كوريا ، وكيف ذبح (كما قالوا) الأبرياء والنساء ، ومن قبل زلزلوا الأرض شفقة على اليهود الذين أصابهم كما زعموا بلاء النازيين ، فما بالهم قد خرسوا فلا ينطقون ؟ ما بال تلك العيون التي بكت في كوريا وفي ألمانيا من قبل بدموع التماسيح لا تبصر ما يجري اليوم في غزة والعريش وسيناء ، ولا تبصر ما يصنع الفرنسيون في الجزائر ، وما يأتي الانكليز في اليمن وعُمان والبريمي والبحرين ؟

لماذا يصير الحق باطلاً إن كان في يدنا ؟

لماذا تصيرالجريمة مَكْرُمة وعدلاً إن كانت علينا ؟

لماذا تصير السيئات حسنات إن كانت السيئة إلينا ؟

أين حقوق الإنسان التي أعلنوها ؟ أين الوعود التي كانوا قطعوها على أنفسهم

في الحرب العامة الماضية ، لما كانوا يقيمون الحجج الواهية على (هتلر) و(موسوليني) لعنة الله على موسوليني ؟ أين ميثاق الاطلنطي ؟ أم هم قد كتبوه على ماء الاطلنطي فلما ماج البحر محا ما كتبوا ؟

ماذا يريد منا هؤلاء ؟ وإلى متى يظنون أننا نستطيع أن نصبر ؟ إلى متى نصبر ونحن نرى بلادنا في أيدي عدونا ؟ ونرى رجالنا مصرَّعين على أرضنا ، ونرى معابدنا قد غَدَتْ مثابة الفجور ؟ ومقابر أجدادنا أضحت ملاعب الخيل ؟

إلى متى نصبر ؟

يا أيها العرب ، لا أمل لنا في أحد ، إلا في أنفسنا ، يا أيها العرب ، إن الحق ما قال فارس الخوري إن مشكلة فلسطين لا تحلُّ في أروقة مجلس الأمن ، ولكن على ثرى فلسطين .

يا أيها السامعون : أمامي الآن عدد من جريدة ألف باء منذ نحو ربع قرن ، فيه مقالة لي ، أنبه فيها وأوقظ وأسأل العرب كيف يستمرئون لذيذ الطعام ، وكيف يستسيغون عَذبْ الشراب ، وكيف ينامون على لين الفراش ، وفلسطين على فم البركان ، وفلسطين على شفير الضياع .

وهأنذا اليوم أعود فأسأل العرب .

يا أيها العرب . إني لا أخشى شيئاً كما أخشى أن تنسوا قضية فلسطين ، ولن تنسوها إن شاء الله .

أخاف أن يطول الأمد وتتعودوا احتمال الواقع ، لذلك أرجو أن يكون من برنامج كل اسرة تقدر على السفر ، أن تشدَّ الرحال أسبوعا في السنة إلى فلسطين ، إلى القدس إلى القرى الأمامية .

هذا شهر رجب قد اقترب ، وهو شهر الإسراء[1]، فاذهبوا إلى القدس ، اذهبوا إلى القدس لتروا كيف سلبتنا هذه الدول القوية منازلنا في القدس الجديدة

---

(١) على المشهور عند الناس ، ولم يثبت أنه كان في رجب .

لتعطيها اليهود ، لتروا كيف لم يبق لنا إلا القدس القديمة التي لاتمشي في اسواقها السيارة ، لتروا كيف نعيش إلى جنب اليهود لا يفصل بيننا وبينهم إلا عرض الشارع ، لتروا كيف أبقوا لهم مركزين في وسط البقعة العربية ، وكيف كانت جنود العرب على عهد كلوب ، تحرس اليهود ليأتوا بالزاد ليتقووا به علينا والعتاد ليضربونا به ، لتروا كيف يقوم المصلّون في ساحة الحرم ، وهم تحت رحمة اليهود المسلّطة نيرانهم عليهم من الجبل .

اذهبوا إلى القدس فإن الوصف لايداني الحقيقة ، وليس الخبر كالعيان ، ولقد استحلفت الأحزاب الأندونيسية لما كنت هناك أن تبعث من يزور القدس ، فبعثت وفداً قطع في الذهاب والإياب أكثر من خمسة وعشرين ألف كيلومتر حتى زارها ، أفلا تزورونها وهي إلى جنبكم .

أستحلفكم بالله أن تزوروا القدس .

وأن تذهبوا إلى القرى الأمامية ، لتروا ما تنفطّر منه قلوب الحجر وما تقطر منه عيون الجلاميد .

اذهبوا إلى قلقيلية لتروا كيف بقيت القرية على الصخر ، وأعطيت بساتينها لليهود .

ومع ذلك فقد حوّلوا الصخر الباقي لهم إلى حدائق وبساتين .

واذهبوا إلى قِبْية لتروا المدرسة التي ضربها اليهود بقنابل الانكليز والاميركان ، فأسقطوها على من فيها فقضى التلاميذ ومعلمهم ، ولاتزال آثار دمائهم على أنقاض الجدران ، ولاتزال قلوب آبائهم وأمهاتهم تشققها الأحزان .

اذهبوا لتروا بأعينكم فليس الوصف كالعيان .

ولكن لا تيأسوا ، لا تيأسوا برغم هذا كله ، فإن المستقبل لنا ، وسنسترد فلسطين ، سنستردها ، والله الذي لا إله إلا هو ، كما استرددناها من قبل ، ممن كانوا أقوى وكانوا أغنى ، وكانوا أكثر ، من الصليبيين ، استرددنا القدس بعدما بقيت في أيديهم نحواً من مئة سنة .

ونحن اليوم خير منا يوم كانت معركة فلسطين ، ونحن غداً خير منا اليوم إن شاء الله ، والعاقبة بإذن الله لنا بشرط أن تذكروا دائما قضية فلسطين ، وأن تصغوا دائما إلى نداء المسجد الأقصى الحرم الثالث في الإسلام ، والذي كان مسرى محمد ﷺ ، وكان منه معراجه ، ونداء دير ياسين وقِبْيَة ، ونداء الأيامى واليتامى والثاكلات ، ونداء الخمسمئة الذي صرعوا بالأمس غدراً ولؤماً على أرض سيناء ، ونداء الشهداء اللاجئين المشرَّدين ، إلى نداء العروبة ، إلى نداء الشرف ، إلى نداء الإنسانية التي تهتف بكم في الأصباح والأماسي ، وفي الضَحَوات و الأصائل ، وفي كل ساعة وكل لحظة ، أن أنقذوا فلسطين .

أسبوع التسلح وفلسطين

أذيعت سنة ١٩٥٥

الحديث اليوم عن أسبوع التسلح ، ولست أحدثكم فيه استرضاء للَّجنة العليا القائمة ، ولا لأن الموجِّه له المعني به فخامة الرئيس ، بل لأني معتقد بأن العمل له ، والمشاركة فيه ، واجب شرعي وعقلي ووطني ، يدعو الدّين إلى ذلك دينه ، والعاقل عقله ، والوطني وطنيته ، ولولا ذلك ما قلت فيه كلمة ، وأنتم تعرفونني ، وتسمعون لي من خمس عشرة سنة ، وتقرؤون لي من ثلاثين سنة ، فهل وجدتموني بعت قلمي يوماً لأحد ، أو دفعتني منفعة أرجوها ، أو مضرة أخشاها ، إلى أن أقول بلساني ما لا يؤمن به قلبي ؟

ولست أقول هذا تمدُّحاً وفخراً ، بل لأحملكم على تصديق ما أقول لكم اليوم .

وماذا أقول لكم ؟

وهل ترونني أحتاج أن أوضح الواضحات ، وأقنعكم بوجود الشمس في رابعة النهار ، وأثبت لكم أن العمل على التسلح ضروري لازم ؟

وهل في هذا البلد كله ، هل في بلاد العرب ، هل في ديار المسلمين جميعاً رجل واحد يشكُّ في هذه الحقيقة الظاهرة ، التي يراها كل من في وجهه عينان ، وهي أن سلاح الخطب والتصريحات والبيانات والشكاوي لم يعد يفيد ولا يجدي ، وأن اللغة الوحيدة التي تفهم بها إسرائيل ، هي لغة المدفع ، وأننا عرفنا الآن كيف نكلم إسرائيل بهذا اللسان .

وأن هذا هو أول قرار تتخذه الحكومة ، فيقول لها الشعب صدقتِ ، ونحن معك ، هذا هو القرار الذي يترجم عن أفكار الناس جميعاً ، ويعبر عن آرائهم

جميعاً ، من رجل السوق إلى موظف الديوان إلى تلميذ المدرسة ، إلى عامل المعمل وفلاح الحقل . . .

لقد استطعت الآن أن أرفع رأسي ، الذي طالما أحْناه الخجل ، في هذه السنين السبع الماضيات ، الخجل من ديننا الذي يأمرنا أن نُعدَّ للعدو ما نستطيع من القوة ، من الحديد والبارود والطيارات والدبابات ، فأعددنا كلاماً حرًّ كنا به المنابر ، وزلزلنا به الصحف ، وهززنا به أسلاك البرق ، الخجل من سلائق العروبة ، أن تدنسها بالعار أخلاق الهزيمة ، الخجل من الله أن يرانا نبتعد نحن عن قتال كلاب يهود ، بعدما قاتل أجدادنا الامبرطوريتين اللتين ورثتا العالم كله : فارس والروم ، لا نقاتلهم في قلب بلادنا مدافعين عنها ، وقد قاتل أجدادنا فاتحين في أقصى الأرض ، قصَّرنا وأهملنا فكانت المنتيجة هي التي ترونها في القدس والقرى الأمامية ، هل تدرون ما حديث القرى الأمامية ؟

لقد وقفتُ في قلقيلية ، فإذا البلد على صخرة مُقفرة ، وبساتينها أمامها يضحك فيه النَّبْت ، وترقص الأشجار ، وتغنِّي السواقي ، أما البلد فبقيت للعرب ، أما البساتين فأعطيت لليهود .

ولقد كان أهل قلقيلية يقفون معنا ، لما كنا في المؤتمر وذهبنا نزورها ، ويشيرون بأيديهم إلى الشجرة ، أترون هذه الشجرة ، لقد زرعْتُها بيدي في أرضي ، وتعهَّدتها وسقيتها فلما كبرت وأثمرت ، أكل ثمرها اليهود .

أترون هذه الساقية ، لقد شققتها وأجريتها ، فلما سال ماؤها عذباً سائغاً شربه اليهود .

وبيوتنا التي عمَّرناها بأيدينا ، أقام فيها اليهود ، وفُرشنا التي فرشها لنا نساؤنا ، نام عليها اليهود .

وفي كل شبر من فلسطين بقعة حمراء من أثر الدم الزكي ، دم الشهداء الذين سقطعوا صرعى دفاعاً عن بيوتهم وقريتهم ، وعن شرفهم وعن دينهم ، ودم النساء والأطفال الذين ذبحهم اليهود .

لقد وقفنا في (قِبْيَة) على أنقاض المدرسة التي ضربها اليهود بالقنابل ، من سنتين ، فمات المعلم والتلاميذ ، ونبشنا الأنقاض ، ورأينا هيكل طفل صغير ، يشير بيد من عظم ، يفتش في الأرض عن عربي ، من الثمانين مليوناً ، عن مسلم من الخمسمئة مليون ، ينقذه من هذه الحفنة من شذاذ الآفاق فلم يجد . .

لم يوجد يومئذ ولكنه وجد الآن ، الآن وجد من سينتقم لتلميذ مدرسة قِبْيَة ، من سيثأر للحبالى اللائي بقر بطونهن اليهود ، للنساء اللائي قطع أثداءهن اليهود ، للأطفال الذين ذبحهم اليهود على أعين أمهاتهن ، لقبية ودير ياسين ، للمسجد الأقصى الذي ضربه اليهود بالبارود والنار ، وأراقوا على ثراه دم الأبرياء من المصلين ، للكرامة العربية ، ولعزة الإسلام .

فهل في السامعين من يشك ، أو يتردد ، أو يحتاج إلى أن أرغّبه في البذل لأسبوع التسلح ، هل فيهم من يحتاج إلى أن أثير في نفسه الحماسة ، أو أوقظ فيها الإيمان ، هل فيهم من يحتاج أن أبين له أن مايدفعه الآن هو الذي يبقى له يوم القيامة ؟

وأنه بهذا العطاء سيكون من المجاهدين ، لأن الجهاد درجات ، جهاد باللسان ، وجهاد بالمال ، وجهاد بالنفس .

هل أحتاج أن أقول لكم أن الأمة التي تكون مثلنا مهددة بالعدو الغادر ، الجاثم على أبوابها ، ولاتبذل من مالها القليل للتسلح والاستعداد ، تذهب بذلك القليل والكثير ، فأعطوا من أرباحكم ، قبل أن يذهب الربح ورأس المال ، أعطوا أملاككم قبل أن تخرج من أيديكم هذه الأملاك ، أعطوا من ثمرات أرضكم ، قبل أن تخسروا الأرض والثمرات ، أعطوا من رواتبكم قبل أن تبقوا بلا رواتب ، أعطوا من وفر ماتتخلّون عنه من الكماليّات ، فإن من لايستغني عن الكماليات في مثل هذا المقام يضطر أن يستغني يوما عن الضروريات ، من كان عنده عرس فليدفع ثمن علب السكاكر للجان التسلح ويعلن ذلك للمدعوين ، يشكره الناس ويكن قدوة لهم في الخير ، ومن كان لديه مأتم فليترك الآس والحنّاء

وحفلات الثلاثة الأيام والأربعين ، وهاتيك البدع التي لايرضاها الشرع ، وليدفع تكاليف ذلك للجان التسلح وليعلن ذلك للناس ، ومن كان يريد أن يشتري ثوباً أو تحفة أو صورة ، فليدعها وليدفع ذلك للجنة التسلح ، وليجعل لـ (الوصل) إطاراً ويعلقه في غرفة الاستقبال مكان الصورة أو التحفة ، وليثق أنه يكون أجمل من كل صورة فنية ، ومن كان يذهب إلى السينما ثلاث مرات في الأسبوع فليذهب مرتين ، وليدفع أجرة الثالثة إلى لجان التسلح ، وكل مايمكن الاستغناء عنه فلنستغن عنه ، لنجعل ثمنه سلاحاً ندافع به عن بلادنا ونسترجع به أرضنا من عدونا .

ويستمر ذلك دائماً لاأسبوعاً واحداً ؛ لأن الكماليات لامكان لها في بلد مهدَّد بالعدو الجاثم على الأبواب .

إن من حق الرجل أن يستريح في بيته ، ويستمتع بعد انتهاء عمله ، ويستلقي ويأخذ جريدته ودخينته وقهوته ، ولكن إن شبَّت النار في الدار لايبقى للمتعة والراحة مجال ، كلا ، ولاللطعام ولاللمنام ، إن الطعام والماء من الضروريات ، ولكن في حالة الخطر تترك الضروريات فكيف بالكماليات ، إن أهل فلسطين اضطروا إلى الدفاع عن أنفسهم ، كل يدافع بسلاحه عن بيته وحريمه وأولاده ، فاحمدوا الله أنتم ، على أنَّ لكم جيشاً يدافع عنكم ، ولايدع العدو يصل إلى أبواب بيوتكم ، حتى يدافع كل عن نفسه ، أو يهرب تاركاً ماله وأثاثه ، ولايريد منكم هذا الجيش إلا قليلاً من المال ، قليلاً لايزعجكم ولايبقيكم دفعه بلاطعام ، فإذا شحَّت نفوسكم ، وغلب عليكم حب المال ، وحب المال فطرة في النفوس ، فاذكروا الآن إخوانكم أهل فلسطين ، من كان أكثر مالا ، فخرج على وجهه لايملك شيئاً ؛ أفليس خيراً لكم أن تعطوا القليل ، ليبقى لكم الكثير ، من أن لاتعطوا شيئاً ولايبقى لكم شيء ، وانووا عند العطاء رضا الله ، لاالتفاخر والظهور ، ولارضا الحكام وثناء الناس ، قولوا : هذا ندفعه يارب ابتغاء وجهك فاخْلُفه علينا واكتبنا به مع المجاهدين بأموالهم في سبيلك .

ياأيها السامعون والسامعات من أهل الشام ، إن أرواح الشهداء تناديكم من كل بقعة في فلسطين ، والدماء تصرخ بكم ، وصخرة الأقصى ، وأمجاد الماضي ، والعروبة والإسلام ، والقرآن يهتف بكم :

﴿ هاأنتم هؤلاء تُدعون لتنفقوا في سبيل الله ، فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدلْ قوماً غيركم ثم لايكونوا أمثالكم ﴾ .

صدق الله العظيم

في افتتاح أسبوع التسلح

ياسيدي صاحب الفخامة . ياأيها السادة والسيدات :

أنا أمتطي صهوات هذه المنابر ، وأقارع الفرسان في حلبات البيان ، من ثلاثين سنة إلى الآن[1]، فلم تَحرن عليَّ هذه الأعواد ، ولم تعسَّر عليَّ الخطب إلا هذه العشيَّة ، لالأن الأحاديث الأربعة التي ألقيتها في (التسلح) قد استنفدت كل مالديّ من صور وأفكار ، بل لأن سلاح الخطيب الحماسة التي يهزُّ بها أوتار القلوب ، والعاطفة التي يستدرُّ بها دموع العيون ، وأنا أنزل الليلة إلى الميدان بلاسلاح ، والخطيبُ يسكر السامعين بخمرة البلاغة ، ويجيئهم وقد أذهب السكر قواهم فيُدعون فيلبُّون ، وأنا أواجه الليلة سامعين صاحين لم تلعب بألبابهم نشوة البيان ، ومالي وللخيال ؟ ومالي وللشعر ؟ وعندي من الحقائق الواقعة مايغني عن حَوك الأساطير .

ذهبت سنة ست وأربعين إلى مصر ، وكان الطريق على فلسطين ، فأقمت فيها عشرة أيام ، وكان لي فيها أصدقاء من الوطنيين العاملين ، فلُمتهم على قعودهم وقيام اليهود ، على قعودهم وإهمالهم جمع المال وشراء السلاح ، فقالوا إن الأيدي منقبضة والنفوس شحيحة ، قلت : لا ، بل أنتم المقّصرون ، قالوا هذا تاجرٌ من أغنى التجار ، فهلمَّ بنا إليه تنظر ماذا نأخذ منه .

وذهبت معهم إليه في مخزن كبير حافل بالشارين ، وحوله ولدان له شابّان يتفجران صحة ورجولة وجمالاً . وكلّمناه . وحشدت كل ماأقدر عليه من شواهد الدين ، وأدلة المنطق ، ومثيرات الشعور ، فإذا كل ماقلت كنفخة وانية على صخرة راسية ، ماأحسَّت بها فضلاً عن أن ترتجَّ منها .

(١) خطبت أول خطبة عامة سنة ١٣٤٥ هـ .

وقال : أنا لاأقصر ، أعرف واجبي ، وأدفع كل مرة الذي أقدر عليه .

قلت : وهل أعطيت مثل الذي يعطي تجار اليهود ؟

قال : وهل تمثلني باليهود ؟

قلت : وهل أعطيت مالك كله ؟

فَشُدِهَ وفتح عينيه ، وظنَّ أن الذي يخاطبه مجنون ، وقال :

مالي كله ؟ ولماذا أعطي مالي كله ؟

قلت : إن أبا بكر لما سئل التبرع للتسلح أعطى ماله كله .

قال : ذاك أبو بكر ، وأنا مثل أبي بكر ؟

قلت : عمر أعطى نصف ماله ، وعثمان جهز ألف . . .

قال : ياأخي ، أولئك صحابة رسول الله ، الله يرضى عنهم ، أين نحن منهم ؟

قلت : ألا ترى أن البلاد في خطر ، وأننا إذا لم نعط القليل ذهب القليل والكثير .

قال : ياابني الله يرضى عليك ، اتركني بحالي ، أنا رجل بيَّاع شرَّاء لاأفهم في السياسة وليس لي بها علاقة ، وهذا مالي حصَّلته بعرق جبيني ، وكدِّ يميني ماسرقته سرقة ، فهل تريد أن أدفعه وأبقى أنا وأولادي وأحفادي بلاشيء ؟

قلت : مانطلب مالك كله ، ولكن نطلب عُشره .

قال : دفعت ماعليَّ ، ماقصَّرت .

ياسادة ، هذه حادثة أرويها لكم كما وقعت ، ولو كان يجوز لي لعيَّنت البلد والتاجر ، ولولا أن قرأت في جريدة من الجرائد إشارة إلى قصة مثلها ماعَرضْت لها .

ومرَّت سبع سنوات .

وذهبت من سنتين إلى المؤتمر الإسلامي في القدس ، ومررنا في الطريق بمخيم للاجئين ، وأقبل الناس يسلِّمون علينا ، وإذا أنا بشيخ أبيض اللحية ، محني الظهر ، غائر الصدغين ، رثّ الثياب ، أحسست لما التقت العينان ، كأن قد

برقت عيناه برقة خاطفة ، وكاد يفتح فمه بالتحية ، ثم تماسك وأغضى ، وارتبك كأنه يريد الفرار ، فلما انتهى السلام راغَ مني ودخل في غمار الناس ، ولبثت أفكر فيه من هو ، وأين قابلته ، فما لبثت أن ذكرت ، وتكشَّف لي المنسي فجأة كأني كنت في غرفة مظلمة سطع فيها النور .

إنه هو ، هو ياسادة .

وكلَّمته فتجاهلني ، فلما ألححت عليه اعترف ، ولم أشمت به ، ومعاذ الله ، أن يراني انحدرت إلى هذا الدرك ، ولم أزعجه بلوم أو عتاب ، ولكن كان في نظرتي مايوحي بالكلام ، لذلك استبقني فقال :

لاتقل شيئاً ، هذا هو المقدر ، ولو كان لله ارادة لألهمني ، وألهم إخواني التجار النزول عن نصف ماكنا نملك .

قلت : أولم يبق لك شيء ؟

فابتسم ابتسامة يقطر من حواشيها الدمع ، وقال :

بلى ، بقي الكثير ، بقيت الصحة والثقة بالله ، وبقي هؤلاء وأشار إلى امرأة عجوز وطفل صغير .

قلت : لاتيأس من رحمة الله .

قال : الحمد لله أن جعلنا عبرة ، ولكن أرجو أن يكون إخواننا في الشام ومصر والأردن قد اعتبروا بنا .

وألقيت النظر إلى الطفل ، فقالت له العجوز :

رُحْ قبِّل يده .

فجاء ، وجسده المحمر من البرد ، يبدو من شقوق الثوب ، كزر من الورد ، أخذت تتفتح عنه الأكمام ، كان بثوب رقيق ممزَّق ، وأنا في المعطف الثقيل والعباءة من فوقه ، وأحسُّ البرد يقرص عظامي . . وأحسست بقلبي يتمزق كتمزق هذه الأسمال ، ولم يكن معي ماأساعده به ، كانت العين بصيرة واليد قصيرة ، فقلت ، فليسعد النطق إن لم تسعد الحال ، ورحت أكلمه ، فلم أجد إلا أن قلت له : أتحب بابا ؟ أحسب أن الشيخ أبوه .

قالت العجوز : قل له (بابا في الجنة) .

قال : (بابا في الجنة) ، أعاد لهجتها كأنه ببَّغاء ليس يدري مايقول ، فسكتُّ حائراً ملتاعاً .

قال : عمُّو . ذبحوه لبابا ، نزَّلوا له الدم ، ليش مابحبوه لبابا ، أنا بحبو شو عمل لهم بابا ؟

يقول : ذبحوا بابا ، وأنزلوا له الدم ، لماذا لايحبون بابا ؟ أنا أحب بابا .

قال : أنا أوفر ، لأشتري سكين أذبح اليهود اللي ذبحوا بابا .

وسكت اللسان ونطقت العيون ، لقد بكيت وبكى الحاضرون جميعاً ، ومشيت وأنا لا أبصر من الدموع طريقي .

وبقيت سنتين وأنا أفكر في ذلك الشيخ ، وفي ذلك الغلام ، وأسائل نفسي هل اعتبر التجار والأغنياء حقيقة ؟

إن الطفل قد هدَتْه فطرته إلى التفكير في توفير الفلوس القليلة التي قد تقع في يده ، ليشتري سكيناً ينتقم به[1] لأبيه . فهل هَدَتْنا عقولنا إلى شراء السلاح ؛ لنثأر به للوطن المسلوب ، والعِرْض المستباح ، والدم المهراق ؟

لقد كنت أرانا نتلقّى بوجوهنا ضربات اليهود ، فلانملك إلا أن نذهب إلى مجلس الأمن ، كما يذهب الولد المدلل الرقيق ، إلى المعلم ، ليقول :

أستاذ ، هذا ضربني . . .

ويكون المعلم مشغولاً عنه ، فيصرفه بحركة من يده ، ويقول :

اذهب ، أنا سأضربه .

نحن العرب ، نحن المسلمين ، نحن أبناء من فتحوا الدنيا ، نحن سلائل الأبطال الأماجيد ، نمشي إلى مجلس الأمن .

يامجلس الأمن ، إن اليهود اعتدوا علينا ، وأطلقوا النار علينا ، ويبحث مجلس الأمن ، ويناقش ، ثم إذا أدرنا ظهورنا وانصرفنا ، مدُّوا ألسنتهم لنا .

---

(١) (السكين مذكَّر ومؤنث) .

فأحني رأسي حياء ، وأفتش عن قبر أواري فيه وجهي ، ثم أرتد حياء من رُفات الجدود ، أن تطلع عليَّ من جوانب القبر . وكنت أتحرَّق ، وأقول ، متى نذكر رجولتنا ، متى نستعد للمعركة الحمراء ، بالحديد والنار ، متى نثبت للدنيا أننا لانزال أبناء المعامع ، وفرسان الحروب .

متى نقف على أرجلنا ، ونعتمد بعد الله على أنفسنا ، ونعلم أنه لاينفعنا إلا السلاح ، وكنت أخاف أن أموت قبل أن أرى ذلك اليوم ، فرايت هذا اليوم ، هذا اليوم السعيد ، هذا العيد المجيد ، عيد يقظة العرب .

اليوم استيقظ العرب حقاً ، وفارقت عيونهم آخر بقية للنعاس ، اليوم كتبنا السطر الأول ، في تاريخ أمجادنا الحديث .

اليوم استبشر الكبير والصغير ، والغني والفقير ، والمالك والأجير ، وأجمعت الأمة كلها برجالها ونسائها على تأييد أسبوع التسلح .

إن في المصائب ماهو أكبر من مصيبتنا في فلسطين ، هل تعرفون ماهو ؟ هو أن تجهلوا أقداركم ، وتحقروا نفوسكم ، وتجهلوا مكانكم تحت الشمس .

إن لكل أمة يوم عز ، تستفرغ فيه قوتها ، وتستنفد طاقتها ، ثم تعود إلى خمولها ، لقد حكمت إسبانيا أوربا كلها يوماً من الأيام ثم نامت ، وبسطت البرتغال سلطانها على أقاصي البحار ثم غفلت ، وركزت فرنسا رايتها على عهد نابليون على كل رابية في القارة ، وسارت اليونان يوماً تحت راية الاسكندر إلى حدود الصين ، واجتاح المغول الأرض يقودهم جنكيز ثم تيمور .

لكل أمة يوم واحد ثم تنام إلا هذه الأمة ، أمة محمد ﷺ .

إنها ياسادة بِدْعٌ في الأمم .

مافقدت قطُّ رجولتها ولانبلها من أيام الجاهلية الأولى ، يوم كان ينام العربي ورمحه أمام الدار وفرسه مرتبط في الفناء ، فإذا سمع النذير يقول واصباحاه ، نهض من بين شُعَبِ أهله ليستقبل الموت .

إلى أيام الوثبة الكبرى ، يوم هزَّ محمد ﷺ هذه القرية النائمة وراء رمال

البيد ، لم تسمع بها روما ولم تَدْرِ بها القسطنطينية ولم تبال لها المدائن ، فخرجت تنكس رايات رب المدائن وسيد القسطنطينية . إلى أيام صلاح الدين حين كان في سورية (من التفرقة والاختلاف) إحدى عشرة حكومة ، وكان في القدس حكومة أجنبية عاشت نحواً من مئة سنة تحميها أوربة كلها ، فدفنها صلاح الدين في حطين ، إلى أيام الرمْيَثة والغوطة والجبل ، وسوح الجهاد في المغرب ، لقد بذلت هذه الأمة ولاتزال مستعدة للبذل ، بذل المال وبذل الروح ، أتشكُّون في بطولاتكم ، وفي إرثكم من ماضيكم ؟

إن شككتم فالدليل في أنفسكم ، تصوروا لو أن واحداً كان رائحاً الظهر إلى بيته تعبان جوعان ، يجرُّ نفسه جراً ، لايستطيع أن يمشي ، فرأى فتاة يحاول الأشرار العدوان عليها وهي تصيح تفتِش عن المنقذ .

أما يحسُّ أن قد مشت النار في أعصابه ، وأنْ قد صبَّت القوة في عضلاته ، وأن قد طار تعبه وكلاله ، وأن قد اندفع من حيث لايفكر لإنقاذها .

أما يكون الواحد منكم يحسب أمواله ، يحصي مالديه ويفكر فيما عليه ، ويضع لنفسه ميزان نفقاته ، فتهتز أريحيَّته ، ويتحرك بالمكرمات قلبه ، فإذا هو يجود بنصف مالديه .

هذه هي بطولة العربي ، وهذا هو كرمه ، لا . إن هذه هي عزة الإيمان ، وهذا شيء لاتجدونه عند اليهود .

لقد أكثر الخطباء الاستشهاد بأخبار ماصنع المسلمون الأولون ، يوم أعطى منهم من أعطى ربع ماله أو نصفه ، أو أعطاه كله وترك لعياله الله ورسوله ، وكنت أستطيع أن أسمعكم في هذا الباب العجائب .

ولكن لماذا أذهب بعيداً والشواهد أمامي ، لماذا أمضي أنقب في التاريخ وفي مكارم الحاضر العجب العجاب .

لما كانوا يبنون مسجد نافذ في المهاجرين ، جاءت امرأة لايعرفها أحد بصرَّة فيها خمسون ليرة ذهبية وولَّت مسرعة ، قالوا : أخبرينا باسمك لنكتب لك

الوصل ، قالت هو يعرف اسمي ، ولاأحتاج منه إلى وصل .

ويوم كانوا يجمعون لجامع مضايا جاء مجلّخ سكاكين بصندوق نقوده كله الذي لايملك غيره فأفرغه .

ومالي أعدد بذل الفقراء ، إن في الشام طبقة من التجار والموسرين ، لو أعلنت حوادث بذلها لعاشت مثلاً مضروباً في صحائف التاريخ .

كلّمت يوم عُدنا من المؤتمر نفراً من التجار ، أسألهم كيف نبدأ الجمع لهؤلاء المرابطين في القرى الأمامية ؟ فقال رجل من المجلس : أنا أبدأ بدفعة متواضعة على الحساب ، وأمسكت قلبي بيدي ماذا يدفع .

فدفع ، عشرة آلاف ليرة .

ودفع الثاني مثلها ، ودفع الثالث نصفها .

وكلمت أصحاب معمل كبير جداً للمنسوجات في الشام ، فما احتاجوا لكلمة ثانية حتى بعثوا عشرة آلاف متر من أجود أنواع القماش .

أي بما يصل بين دمشق ودوما .

ومالي أذكر حوادث الأمس ، هذا هو واحد من التجار لايستطيع أن ينتظر ابتداء الأسبوع ، فيبدأه قبل ابتدائه بدفعة قدرها مئة ألف ليرة ، وفوقها ثلاثون غرفة يؤثّثها في المستشفى .

وهذا موظف من الموظفين ، لايكفيه أن أعطى معاش يوم ، فتبرع برواتب ستة أشهر ، يدفعها سلفاً وهو نقيب الأشراف .

ياأيها الإخوان إن كنتم جميعاً ستمشون على هذا الطريق فأنا عاتب عليكم .

لقد فضحتموني ، وجعلتموني الليلة أخيَبَ الخطباء .

لم تبقوا لكلامي معنى لأنكم بفعلكم قد سبقتم كلامي .

لذلك أنسحب لأنه لم يبق لي مكان .

أنسحب بعد أن أقول لكم كلمة واحدة فقط ، هي أن الجهاد بالمال أخو الجهاد بالنفس ، فانووا بماتعطون وجه الله ، قولوا يارب هذا ندفعه لأجلك وفي سبيل رضائك ولإعلاء كلمتك .

ياأيها العرب

نشرت سنة ١٩٤٩

يا أيها العرب جميعاً . . هل تدرون ماهو أعظم خطْب يمكن أن ينزل بنا ، وماهي أدهى مصيبة يُخشى أن تصيبنا ؟ لا ، ليست الاستعمار الأجنبي ، فسنجاهد حتى لايبقى في ديار العروبة ، ومنازل الإسلام غاصب أجنبي ، وليست مشكلة إسرائيل ، فسنحارب حتى نسلم (إسرائيل) إلى عزرائيل ، ولكن المصيبة أن نكفر بأنفسنا ، وأن نجهل أقدارنا ، وأن لانعرف فوق الأرض مكاننا ، وأن نحسب أننا خلقنا لنكون أبداً أضعف من الغربيين ، وأجهل منهم ، وأن ننسى أن أجدادنا لما خرجوا يفتحون الدنيا ، ماكانوا أقوى منا على عدونا ، وأنهم أقدموا بسيوف ملفوفة بالخرق على عدو كان أكثر عَدداً وأقوى عُدداً وأضخم عمراناً ، وأكثر علماً ومالاً ، فظفروا به ، وانتصروا عليه ، وأن الأيام دول ، والدهر دولاب ، يهبط العالي ، ويعلو الذي هبط ، ويذلُّ العزيز ، ويعزُّ الذي ذلَّ ، وإن دار علينا الدهر حيناً ، فافترقنا وتباعدنا ، ولفَّنا بعد إشراق النهار ليلٌ مظلم ، أغمضنا فيه عيوننا ، وأغمدنا فيه سيوفنا ، فلم نبصر اللص يدخل علينا ، ولم نَنْهَدْ إليه لنرده عنا ، وحسبنا لطول الليل أن لاصباح له ، فقد طلع الآن الصباح ، وانقضى الليل ، وهبَّ النائمون يمشون إلى الأمام . . .

إلى الأمام ! وإلا فما هذه الثورات ، وماهذه الوثبات ؟ وماهذه الوحدة في العواطف ، حتى لتهتزَّ الشام لكل حادث في العراق ، وتغضب مصر لكل عدوان على الشام ، ويثور المشرق لنصرة المغرب ، وتقوم مراكش لتأييد أندونيسيا ، وتهب الباكستان للدفاع عن فلسطين ؟

إلى الأمام ! وإلا فما لمصر ، عمرتها الفكرة العربية ، وكانت من قبل تعيش

عامَّتها في ظلام العزلة ، ويحيا (بعض) خاصَّتها في ضلال الفرعونية ؟

إلى الأمام ! وإلا فهل كانت تظن فرنسا ويظن عبيدها أن سيقطع الله دابرها من سورية ومن لبنان ، ومن لبنان ياأيها السادة ! وهل كان يظنُّ الإنكليز أنهم سيضطرون إلى الخروج من وادي مصر ، وأن العراق سيقطع اليد التي تحاول أن توقع معاهدة ليس فيها خير للعراق ، وهل كان يظنُّ أحد أن الهند ، الهند ستحرر ، وأنها ستكون في الدنيا دولة إسلامية فيها ثمانون مليوناً .

إن هذه المظاهرات ، وهذه الثورات ، حركات السائل الناري في باطن الأرض ، إنها الهزَّة ، ثم تكون الرجفة ، ثم يكون الزلزال ، ثم ينفجر البركان بالحمم ، وتفتح أبواب جهنَّم ، فلايقف أمامها شيطان من الشياطين ، ولو كان له مال (حاييم) ودهاء (جون بول) ، وقوة (الدب) وإقدام (العم سام) .

لسنا اليوم كما كنا من خمسين سنة ، كنا نخاف أوربة لأننا نجهل ماعندها ، وكنا نخشاها لأننا ماعرفناها ، أما اليوم فقد هُتك الستار ، وَكشف الأسرار ، وعرفنا أن هذه المدنية مدنية الظُّفُر والناب وأنها حضارة الذئاب .

فيا أيها العرب ، فوق كل أرض ، وتحت كل سماء ، لقد جئت الليلة ، ليلة هجرة محمد ﷺ ، أستحلفكم أن تثقوا بربكم ، وأن لاتعتمدوا إلا على نفوسكم ، وأن تعلموا أن النازلات امتحان للهمم ، وتمحيص للأمم ، وأن لاتكفروا بالبطولة التي صبَّها في دمائكم ياأيها العرب ، سيد العرب محمد ﷺ ، وأن تأخذوا من سيرة محمد ﷺ الذي اجتمعتم الليلة للاحتفال بذكراه دروس البطولة والعزم والنضال .

وأن تذكروا موقف محمد يوم كانت المدينة على حافة الخطر ، وكانت معرَّضة لأقوى هجوم يمكن أن تقوم به جزيرة العرب ، وكان على الطريق إليها ثلاثة جيوش فيها عشرة آلاف مقاتل ، والمسلمون كل المسلمين يومئذ ثلاثة آلاف ، وأن المدينة قد (تسقط) بين ساعة وساعة ، ويُقضى على الإسلام ، فماذا صنع رسول الله ﷺ ، وماذا صنع المسلمون ؟

هل تحيَّروا حتى لايدرون ماذا يصنعون ، فجعلوا يرتجلون الخطط ، ويبتدعون الآراء ؟ هل كفُّوا أيديهم عن العدو وأطلقوا ألسنتهم عليه ، فرموه بالخطب والتصريحات ؟ هل أضاعوا الفرصة وأمضوا الأيام في الاجتماعات والمؤتمرات ؟ هل اختلفوا وتنازعوا ؟ وهل فكر الأغنياء في أن يستأجروا بيوتاً في الأرياف ليفرُّوا إليها ، إذا نزلت الملمَّات وكانت (الغارات) ؟

لا ياسادة . . . لم يفكر في الفرار إلا (المنافقون والذين في قلوبهم مرض) . أما المسلمون فكانوا يعلمون أن المسلم الذي يفرُّ من بلده إذا دهمه العدو لايكون مسلماً ، وأن الإسلام يفرض القتال عند ذلك على الرجال والنساء فرض عين كفرض الصلاة .

لا ، ولم يعتكف رسول الله في مسجده ، ليدعو عليهم ، ولو دَعَا لاستجاب الله دعاءه ، ولكنه أراد أن يأتي البيوت من أبوابها ، ويجرَّ النتائج بأسبابها ، ويعلِّم هذه الأمة كيف تصنع إذا دهمتها المخاوف ، وحاقت بها الأخطار ، وشرع يحفر الخندق والخندق هو (الملجأ الفني) من (غارات) تلك الأيام ، ولم يكن العرب يعرفون الخنادق بل هي من طرائق العجم في قتالها .

وكذلك كان محمد ﷺ يعدُّ لعدوه أحدث المخترعات الحربية ، ويفاجئه بـ (أسلحة جديدة) لم يسمع بها ، لم يأمر بحفر الخندق وهو مقيم في داره ، هادىء هانيء مستريح ، بل عمل معهم ، يده قبل أيديهم ، حمل التراب حتى غطَّى بطنه التراب ، وجاعوا فجاع معهم ، وربط على وسطه من الجوع الحجر ، وكان أقواهم يداً ، وأثبتهم قلباً ، عرضت صخرة لم تعمل فيها المعاول ، ولم تؤثِّر فيها سواعد الرجال ، فلجأوا إلى محمد ﷺ ، فلم يستطع أن يكسرها إلا ساعد محمد ﷺ ، وهو يعمل بلاقميص شأن الرياضي القوي ، لاشأن هؤلاء (المشايخ) الذين يمشون ورؤوسهم مَحْنِيَّة ، وأطرافهم متخاذلة . . . كأنْ قد هدَّهم المرض ! .

أعدَّ الخندق لـ (الدفاع السلبي) ، ثم خرج ومعه المسلمون لـ (الدفاع

الإيجابي) ، وولّى على المدينة ابن أم مكتوم مااختاره لعصبية أسرة ، ولالجامعة حزب ، ولالصلة قرابة ، بل لأنه أحق بالولاية وأولى بها ، ولم ينازعه أحد ولايته لأن الأمة التي تشتغل بالحزبيات ، وتتنازع على الكراسي ، والعدو على الأبواب لاتستحق الحياة .

وأحاط العدو بالمدينة ، واشتدَّ الخَطْبُ وعظم البلاء ، وقلَّت الأقوات ، وجاءت في خلال ذلك قاصمة الظهر بأن الحلفاء من يهود قريظة ، خانوا العهد ، وأخلفوا الوعد ، وغلبت عليهم نجاسة طباعهم ، ونذالة أخلاقهم ، صفة اليهود أبداً ، أينما كانوا وحيثما وُجدوا . فلم يفارق محمداً ثباته وعزمه ، وبعث يتحقَّق الخبر ، وأمر رسوله أن يعلن إن وجده كذباً لتقوى العزائم ، وتشتد الهمم ، وإن وجده صدقاً لَحَن له به ، ولم يخبر به الناس ، لئلا تكون الأسرار العسكرية حديث المجالس ، وأسمار السمّار .

وأحسَّ بالأمر المنافقون ، وماتخلو أمة من (منافقين . .) ومن دعاة الشر وبغاة الهزيمة ، فأعلنوا ماكان مضمراً ، و (زاغت الأبصارُ ، وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ ، وتظنونَ بالله الظنونَ ، هُنالك ابتُلِي المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً . وإذْ يقولُ المنافقون والذين في قُلوبهم مرضٌ : ماوعدَنا اللهُ ورسوله إلا غُروراً . وإذْ قالتْ طائفةٌ منهمْ يا أهل يثرب لامُقام لكُم فارجِعوا ، ويستأذنُ فريقٌ منهمُ النبيَّ يقولونَ إنَّ بُيوتنا عوْرةٌ ، وماهي بعوْرة ، إنْ يُريدُون إلا فِراراً) . واجتمع على المسلمين العدوُّ القوي والبرد والجوع وخيانة الحليف وتثبيط المنافق ، فقضى رسول الله ﷺ على (الانقسام الداخلي) ، وصبر على الحصار ، ثم صمد للهجوم ، واستعمل كل سلاح ، فحفر الخندق ، وحارب بالسيف وحارب بالحيلة ، فكان الظافر في الحرب الدفاعية ، وفي الحرب الهجومية ، وفي حرب السياسية ، وفي حرب الأعصاب ، وكان له النصر المؤزَّر .

واذكروا بعد ذلك كم جُزنا من امتحان ، وكم نجونا من خطوب ، يوم كرَّ علينا الشرق كله بهمجيته وكثرته وقسوته بجيوش التتر يقودها الكلب الكلِب : هولاكو . فمرت كالسيل الحاطم ، فاجتاحت دول الإسلام (وماكان ينبغي أن

يكون للإسلام إلا دولة واحدة) ، حتى إذا عبثت بالخلافة ، وداست بغداد ، وفعلت في دنيا المسلمين الأفاعيل ، ولم تبق منها إلا ولايات متباعدات ضعيفات ، وقف لها شيخ واحد ، شيخٌ لم يتخذ الدين سُلَّماً للدنيا ، ولاالصلاح شبكة للمال ، ولم يكن همَّه مشيخة يزهى بها ، ولاضِيَاع يقتنيها ، ولاسيارة يركبها ، ولاوظيفة يحظى بها ، لم يكن يمدُّ يده للناس يقول قبلوها واملأوها مالاً ، ولايقول تصدَّقوا بأموالكم ليأخذ هو الصدقات ، قد احتقر الدنيا في جنب ماعرف من نعيم الآخرة ، وهان عليه أهلها ملوكهم وسوقتهم لما وقر في نفسه من عظمة الله شيخ اسمه العزُّ بن عبد السلام [1] .

أثار هذا الشيخ مصر ، حتى انتصر جيش مصر الضعيف على جيوش التتر القوية ، وحفظ الله به في عين جالوت الدين والدنيا ، وأنقذ به الإسلام والحضارة ، وماانتصر جيش مصر إلا بالإيمان الذي أثاره في النفوس هذا الشيخ .

واذكروا يوم كرَّ علينا الغرب كله ، يقذفنا بالجنود من كل لون ، ويرمينا بالأسلحة من كل نوع ، وكنا دويلات وإمارات متخاذلات متقاتلات ، فنصرنا الله على الغرب كله برجلين اثنين وماانتصرا إلا بالإيمان والإخلاص ، نور الدين وصلاح الدين الأيوبي بطلي الدنيا .

* * * *

ياأيها المستمعون جميعاً ، سألتكم بالله : انسوا لحظة واحدة جاهكم ومطامعكم ، وحبَّكم وبغضكم ، ومشاغل بيوتكم وأسواقكم وفكروا في نفوسكم ، فيما كان عليه أجدادكم ، وماانتهت إليه حالكم ، هل صنعتم مثلما صنع النبي يوم الخندق ، هل عندكم اليوم مثل الملك صلاح الدين ، هل لديكم مثل الشيخ عز الدين ، هل أعددتم لليوم العبوس عدته ، هل أحسستم إلى هذه الساعة أنكم في حرب ؟

---

(١) اقرأ خبره في كتابي (رجال من التاريخ) .

ياناس !

هل تعيش أمة في الحرب مثلما كانت تعيش في السِّلْم ، لاتنقص شيئاً من لهوها وتبذيرها وغفلتها ، وإضاعتها أموال العامة وأموال الخاصة فيما لاضرورة له ، ولاجدوى منه ، وإنفاقها في (الكماليات) التي يذهب ثمنها إلى عدوها ، فيرجع إليها رصاصاً وقنابل تنزل على دورها وصدورها ، هل تختلف أمة على الصغائر ، وتتنازع على المناصب ، والعدو قد غشيها في أرضها ؟ هل يُنفق في الأمم الحية المحاربة قرش واحد إلا في شراء النصر ؟

ياناس !

إني أكون خائناً لديني ولأدبي إذا أنا غششتكم في يوم هجرة نبيكم ، أو كتمت الحق عنكم ، إنكم طالما تنكَّرتم لدينكم ونسيتم أقداركم ، واحتقرتم نفوسكم ، وأضعتم سلائقكم الخيِّرة ، وخلائقكم النبيلة ، في تقليد الأوربيين في التافه من شؤونهم ، وفي إعظام الأوربيين والرعب منهم ، ولاسبيل لكم إلى النصر إلا بأن تعودوا فتتخلَّقوا بأخلاق النضال التي خلق بها أجدادكم نبيُّكم ، أجلوا كل اختلاف بينكم إلى نهاية هذه الحرب ، وأرجئوا كل نفقة لاضرورة لها ، وكل لهو لاداعي إليه ، وواجهوا العدو صفاً واحداً ، وقلباً واحداً ، قد وقفتم على الظفر قواكم كلها وأموالكم ، واعلموا أنه لن ينفعكم والله منصب ولامال ، إن تركتم عدوكم يقوى بضعفكم ، ويشتد بتخاذلكم ، ويزيد بنقصكم .

إن الدنيا مقبلة على غمرات سود ، ومرتقبة أحداثاً جساماً ، وستكون معركة لايخرج منها إلا البطل ، فياأيها العرب : تيقَّظوا وتنبهوا وثقوا بربكم وعودوا إلى خلائقكم ، واعرفوا أقداركم ، واعتمدوا على نفوسكم ، وأيقنوا (إن فعلتم) أنكم منصورون منصورون منصورون . .

يستحيل أن تغلبكم كلاب يهود ! .

إلى الشعب المصري

نشرت سنة ١٩٥٢

يا أهل مصر ، اثبتوا على جهادكم ، فإنا جميعاً معكم ، قضيَّتكم قضيتنا ، وعدوكم عدونا ، ماضرًنا أن تفرق بيننا الحدود على الأرض ، والألوان على المصور ، مادام يجمعنا القرآن ، وتوحد بيننا الضاد ، وتربطنا الآلام والآمال ، وذِكرُ الماضي ، وأماني المستقبل ، فنحن الإخوة تعدَّدت بيننا المنازل ، ولكن الدم يلمّ الإخوة جميعاً ، والحب والمنشأ والمصير ، ومصر أختنا الكبرى ، فلئن خذلنا مصر ، إنا إذنْ لشرُّ إخوة في الدنيا .

وما نسينا ، والله ياأهل مصر ، موقفكم منا يوم عَدَا العادون من بني السين ، دعاة الحرية . . . وأحفاد من نادوا بحقوق الإنسان . . على جمهوريتنا وبرلماننا ، وحريتنا في أوطاننا ، أفتروننا نقعد عن نصرتكم وقد عَدَا عليكم العادون من أبناء التايمس ، أدعياء الديمقراطية ، وأبناء من (ابتدعوا) البرلمان !

فأين إذن ، حقوق الأخوة ، وأين واجبات الوفاء ؟

أننام على فرش الأمن ، وننعم بالدَعَة والخفض ، ونشرب العذْب من بردى ، ونؤم الضاحي من سفوح قاسيون ، نلهو ونتمتع ، وإخواننا على خفافي النيل ، وجوانب القناة ، يخوضون اللهب ، ويقحمون الحديد ؟ وإخواننا هناك تهدّ بيوتهم ، ويصرع فتيانهم ، ويعتدى عليهم في أوطانهم . لاوالله ، ولكن نألم إن أَلُموا ، ونجزع إن جزعوا ، ونخوضها حمراء عابسة الوجه ، يرقص فيها الموت ، إن دعتنا إلى خوضها الأخوة ، ونادانا الدم والدين واللسان ، ولامنَّة لنا ولافضل .

ولن نعيد مأساة فلسطين !

لن نعيدها . حلفنا وأيدينا مغموسة بدماء شهدائنا الذين أردكتهم المعركة مع اليهود ، ونسائنا اللائي بَقرت بطونهن أكفّ يهود ، وأطفالنا الذين ذبحتهم أيدي يهود!

حلفنا لنثأرنَّ لهم ، ولن ندع مأساة كمأساة فلسطين تمثل في ديارنا ، بتخاذلنا وانقسامنا ، واستسلامنا لخدع أعدائنا : الإنكليز وأحلاف الإنكليز .

نهضنا لنصرِ مصر على قدم واحدة ، اجتمعنا على ذلك على اختلاف الأحزاب والمذاهب والآراء ، وتعالوا انظروا ، تروا الشباب في الطرق ، والشيوخ في الأسواق ، والطلاب في المدارس ، والنساء في البيوت ، وحول كل راد [1] ، وأمام كل بائع جريدة ، على ألسنتهم جميعاً حديث مصر ، وفي قلوبهم جميعاً حب مصر ، وفي عروقهم تغلي الدماء حماسة لمصر ، وشوقاً إلى السفر لمصر ، للجهاد مع أهل مصر .

الشعب هنا كله معكم ، والحكومة معكم ، كلهم مع الحق الذي هو معكم ، وعلى الباطل الذي هو مع عدوكم .

وسيكون الظفر والله لكم .

إن هذه المصائب امتحان للشعوب ، لصبرها ولرجولتها ، وإن هذا الشعب العربي قد جاز آلاف المحن ، وخرج منها فائزاً مُجلياً .

أي أرض فوق الأرض ، وأي مكان تحت النجم ، لم يوارِ فيه هذا الشعب شهيداً من شهدائه ، ولم يبلغه رائد من رواده ، ولم يرفع علمه يوماً عليه ، ولم يشهد ظفراً له ، ولم يسمع نشيده العسكري ، يهتف به الجندي المسلم ، فيرتجّ منه كل واد ، ويرتجف كل جبل ، وتميد كل فلاة : (الله أكبر) .

(الله أكبر) هذا هو هتافنا في حربنا ، ونداؤنا لصلاتنا ، ودعاؤنا بين يدي ربنا . فكونوا مع الله ، ولاتخشوا الإنكليز ، لأن (الله أكبر) من إنكلترا ، ومن

---

(١) المذياع : محطة الإذاعة ، والراد : الراديو لأنه يردُ علينا الصوت المنتشر في الفضاء .

يشد أزرها ، (الله أكبر) من مدافع الإنكليز ، ودباباتهم ، وطياراتهم ، وأسطولهم .

فلا تخافوا سلاحهم فإن أجدادنا ماحاربوا الأبيض والأسود ، ولافتحوا الشرق والغرب ، ولاملكوا ثلثي العالم المتمدن في ثلث قرن ، لأن سلاحهم أمضى ، أو لأن عددهم أكثر ، ماانتصروا إلا بالإيمان .

الإيمان مكّن للفئة القليلة منهم أن تغلب الجيش الكبير من أعدائهم ، الإيمان جعل السيوف الملفوفة بالخرق ، أمضى في أيديهم من المهنّدات المذهبات في أيدي خصومهم ، الإيمان أظفر الأمة البدوية الجاهلة المتفرقة ، بدولتي الأرض ، وامبرطوريتي الزمان : فارس والروم ، ففتحت بلادهما ، وورثت أرضهما ، ثم أنشأت حضارة خيراً من حضارتها ومدينة أزهى وأنفع من مدنيتهما .

الإيمان بالله ، والإيمان بالظفر ، والإيمان بأن الحق معهم .

فإذا كنتم مؤمنين بأنكم تدافعون عن حقكم ، فلن يغلبكم أحد ، لاالإنكليز ولاحلفاء الإنكليز .

ولقد حاربت جماعات من أهل الشام فرنسا ، يوم كانت فرنسا أقوى دول أوربة في البر ، في أعقاب الحرب العالمية الأولى وماكان لهم سلاح إلا الذي يأخذونه من جنود فرنسا ، ومع ذلك فقد وقفت فرنسا بدباباتها ومدافعها سنتين أمام مئات من الثوار ، يقودهم خفير عامي من دمشق اسمه حسن الخراط .

فكيف ومصر الدولة العربية الكبرى ، وفي مصر العدد والعُدد والمال ، ومع مصر كل قطر عربي ، وكل بلد مسلم ؟

* * * *

إنه ليس على ظهر الأرض شعب كهذا الشعب الذي صبَّ محمد ﷺ البطولة في أعصابه ، حتى لايكون المرء عربياً ولايكون مسلماً حتى يكون بطلاً .

أما ترون العربي إذا دعي باسم العِرْض ، أو دعي باسم الأرض ، أو دعي

باسم الدين ، كيف تغلي دماؤه في عروقه فيحسّ حرَّها في قحف رأسه ؟ وكيف تشتد أعصابه ، وتفور عزيمته ، حتى ليقحم النار ، ويركب الأخطار ؟

أما ضرب هذا الشعب ، على بطولته ونخوته آلاف الأمثلة في الماضي وفي هذه الأيام ؟

أما حارب عبد القادر فرنسا سبع عشرة سنة ؟ أما نازل عبد الكريم فرنسا وإسبانيا معاً ؟ أما قاتل العراقيون الإنكليز في الرميثة ؟ أما فعل الفلسطينيون سنة ١٩٣٦ الأفاعيل ؟

أما كان لمصر سنة ١٩١٩ الأيام الغرّ المحجلات في مواكب الزمان ؟

فإن مضى سعد ، فكلُّكم يا أهل مصر سعد تسعد به مصر .

فإلى السلاح جميعاً ، إلى الحرب ، وإن فقدتم السلاح فحاربوا بالعصي ، وحاربوا بأيدكم ، واطلبوا الموت يعجزوا عنكم ؛ لأنهم لايستطيعون أن يقتلوا عشرين مليوناً تريد الموت .

وقبل حرب الميدان ، حاربوهم بالعلم ، وبالأخلاق ، وبالدستور الاقتصادي الصحيح ، وأعدُّوا لهم كل أنواع القوى : قوة الجسم ، وقوة العقل ، وقوة القلب ، وقوة المال ، وقوة الجيش .

ونحن جميعاً معكم :

هذي يدي عن بني (الشـام) تصافحكم   فصافحوها تصافح نفسها العرب

إلى السلاح ياعرب

(١)

يأيها القراء ! إني ماجئت أصبُّ في أعصابكم قوة ليست فيها ، ولكن جئت أثير القوة التي نامت في أعصابكم .

وماجئت لأجعلكم خيراً مماأنتم عليه ، ولكن جئت لأفهمكم أنكم خير مماأنتم عليه ، جئت أضْرم جمرة الحماسة التي غطَّاها في نفوسكم رمَادُ الكسل . فأعينوني على نفوسكم باستعادة الثقة بها ، وبسلائق العروبة التي ورثتها ، وبعزَّة الإسلام التي كانت لها ، واعلموا أنكم إن فقدتم عزتكم ، وأضعتم سلائقكم ، لم تكونوا جديرين بمحمد ﷺ ، ولم يكن لكم الحق في الاحتفال بمولد محمد ﷺ ! .

ياسادة ! إن الأمم كالأفراد : ألايكون الرجل منكم رائحاً من عمله ، خائر الجسم ، وإني العزم ، كل أمانيه أن يصل إلى الدار فيلقي بنفسه على أول مقعد يلقاه ، قبل أن يستنفد الجهد قواه ، فيجد في الدار بشارة بأنه رفِّع درجة ، أو نال جائزة ، أو هبط عليه إرْث ضخم ، من قريب منسي ، فيحسُّ بأنه انتفض كما ينتفض العصفور بلَّله القطر ، وانتعش كما ينتعش النبات أرواه الماء ، ونشط كما ينشط الجمل أطلق من عقال ؟

ألا يكون أحدكم مرخيَّ الأعصاب ، خامل الجسد ، قد خدَّره النعاس حتى مايقدر أن يفتح عينيه ، فيعدو عليه عَاد ، أو يطرقه لص ، أو يحقره إنسان ، فيشعل الغضب في دمه ناراً ، ويشد من أعصابه أوتاراً ، فيثب يريد أن يقتحم الجدار ، أو يخوض النار ؟

ألا يكون أحدكم تعبان كسلان ، يجرُّ قدميه من الونى جراً ، يظن أنه سيسقط

من كلاله على الأرض ، فيلحقه عدو فاجر ، أو يطارده وحشٌ كاسر ، فإذا هو ينطلق انطلاق القذيفة من فم المدفع ، ويعدو عَدْوَ الغزال المروَّع ؟

هذه أيها الناس القوة المدَّخرة في اعصاب الإنسان ، يظهرها الأمل ، ويبديها الغضب ، ويبعثها الخوف . وفي الأمم قوة كهذه القوة ، وما الأمة إلا الأفراد الأمة أنا وأنت ، وهم وهن ، أفلا تحسّ إن غضبت أو فرحت أو جزعت أن نبضك يسرع ، وقلبك يخفق ، ووجهك يصفرّ أو يحمر ، وجسدك كله يتبدل ويتغير ؟ فكذلك الأمم ، تكون الأمة نائمة آمنة ، قد غلب عليها الخمول ، وشملها الارتخاء ، فما هي إلا أن يبعث الله لها القائد العبقري ، يصرخ فيها ينذرها خطراً ، أو يحذرها عدواً ، أو يَعدُها نصراً مؤزَّرا ، حتى تَثِبَ كما يثب الجندي المستريح إلى سلاحه ، فتعمل العجائب ، وتصنع المعجزات ، وتدع التاريخ حائراً من فعلها مشدوها .

وهذه هي الأمثلة تملأ العصور ، وتُتْرِع صفحات التاريخ ، الأمثلة من الشرق والغرب ، من القديم والحديث ، حيثما تلفَّتم وجدتم مثالاً .

هذه مصر ! كانت على عهد المماليك ، بلد الجهل والافتراق والضعف والتخاذل ، فما هي إلا أن بعث الله لها محمداً عليًّا ، حتى نهضت نهضة الأسد ، فكانت لها المدارس والصحف والصروح والمصانع ومعامل السلاح ، وكان لها الجيش الذي فتح الشام ، وقهر الأتراك سادة الجحافل ، وابطال الميادين ، وكاد (لولا مكر انكلترا وغدرها) يهدّ عرش آل عثمان ، وكان لها الأسطول الضخم الذي كاد (لولا تلك الجريمة التي لم يُحاسب عليها بعد مجرموها) يعيد البحر المتوسط ، بحر العرب ، كما كان أيام عز العرب .

وهذه جماعة الأتراك من آل عثمان ! كانت قبيلة بدوية تسكن القفار ، وترعى الأبقار ، ليست في عير ولا نفير ، فلما بعث الله لها عثمان وشرَّفه بالإسلام ، صارت به وبخلفائه الأولين ، مراد والفاتح وسليم وسليمان ، صاحبة القسطنطينية ، ومالكة مابين خراسان وأسوار فيينا ، وصار البحر المتوسط بحيرة في أملاكها .

وهذه فرنسا ! ماذا كانت فرنسا في أعقاب ثورتها ؟ أمة الفوضى والانحلال ، والحيرة والضلال ، والتبدل من حال إلى حال ، فما هي إلا أن جاءها نابليون حتى ملكت تحت لوائه أوربة كلها ، وصارت أمة الأمم .

وهذه روسيا ! كانت بلاداً أدنى إلى الهمجية والجهالة ، فما هي إلا أن جاءها بطرس حتى غدَتْ به بلداً أوربياً من بلاد المدنية والعمران .

بل هذا هو المثل الأغرّ المحجّل ، الذي لا تدانيه الأمثلة ، ولا تضارعه في سموه النهضات .

هذه القرية التي كانت متمدِّدة وراء الرمال ، نائمة في ظلمات الجهل والفقر والجدْب فوق ظلمات ، لا تدري بها المدن الكبار ، ولم يسمع بها التاريخ ، هزَّها بيمينه سيِّد العبقرين ، وأعظم العظماء ،من كان في الأرض سفير السماء وكان إمام الرسل وأفضل الأنبياء : محمد ﷺ .

هزَّها ، فإذا هذه الرمال المحرقة التي لا تعيش فيها الحياة ، تُنبت السهول الخصاب ، والرياض والجنَّات! وإذا هذه القرية الضائعة تَلِد المدن العظام : الكوفة والبصرة وبغداد والقاهرة والقيروان ! وإذا هذه القبائل المتفرقة تُخرج الجيش الذي فتح الشرق والغرب ، وملك ثلثي العالم المتمدن في ثلث قرن !وإذا هذه الأمة الجاهلية تُنجب الأساتذة الذين علَّموا الدنيا ، وأرشدوا أهلها ، أقاموا أعظم حضارة عرفها البشر ، حضارة خير وحق وجمال ، ليست حضارة قتل وتدمير ، ومصائب وانكليز ، ويهود وبارود ، وقنبلة ذرية . . .

وأمامكم من هذه الأمثلة مئات .

بل إننا نستطيع اليوم في كل قطر عربي أن نضرب من أنفسنا الأمثال .

إنه لا ينقصنا لنعزَّ ونسود ونسير على سنَنِ الجدود ، إلا حرب تنبه ، أو زعيم عبقري يقود . إننا لا نريد إلا أن يتحمس العرب ، أو يغضب العرب ، أو يخاف العرب ، فتوقظهم الحماسة ، أو يثيرهم الغضب ، أو يحرِّكهم الخوف ، فيرجعوا إلى مكان الصدارة بين الأمم .

إن سوريا الصغيرة تستطيع أن تكون من الدول الأوائل على وجه الأرض حضارة وعلما وقوة ومالا .

لا . لا تقولوا نحن قليل ، فاليهود أقل منا .

لاتقولوا : نحن قليل ، فإن أرقى دول أوربة رقيًا ، وأفضلها وأكثر الأمم حضارة ، هي أقلها ناسا ، وأضيقها رقعة : سويسرا وهولندا ودول الشمال ، ونحن أحسن من بعضها موقعا من الأرض ، وبلادنا أوسع وخيراتها أكثر ، ونحن أسرع سيراً في طريق النجاح .

ألا ترون ما صنعنا من (يوم الجلاء) إلى اليوم ؟
أما عملنا في خمس سنين ما نعمل مثله في خمسين سنة ؟

أما صار لنا جيش ؟ أما غَدَتْ لنا جامعة ؟ أما أقيمت في بلدنا (معامل الشركة الخماسية) التي شهد كل من رآها بأن الحضارة لم تُوجد اليوم أعظم منها ؟ أما استبدلنا بالمحاريث التي كانت تجرها البقر أضخم الآلات فزادت زراعتنا أضعافاً ؟

هل لأمة مثل ما لنا من الحزم والعزم ، وركوب الفلوات ، واقتحام اللجج ، والضرب في الأرض ؟ هل على ظهر هذه الكرة بلد ليس فيه رجال منا ، نزلوه فقراء فصاروا فيه من كبار الأغنياء ؟ أليس في الأمريكتين وفي أوربة كلها وفي السنغال والكونغو وفي الكاب وفي شنغهاي وفي اليابان رجال من الشام يجاهدون للمال ، ويعملون للغنى ، ويُدهشون أهل كل بلد نزلوه ، بتلك الهمم وهاتيك العزائم ؟

هل نزل اليهود بلداً فلم يكونوا أرباب المال فيه ، إلا الشام ، فما كان اليهود في الشام إلا متَّجرا بعتيق الثياب ، يدور بها على الأبواب ، أو منظِّفاً لمجاري الكُنُفِ تحت الأرض ؟ ذلك لأن أهل الشام أبصر بالعمل ، وأعرف بطرق جمع المال من اليهود .

وهذا والله فخر لهم ، وإن عدَّه ناس طعناً عليهم .

أفَيُعْيينا (معشر العرب) ولنا هذه السجايا ، أن نتقلَّد السلاح ونُرجع أمجاد الأجداد ؟ أتعجزنا حرب إسرائيل ؟

أهؤلاء الزعانف أوْشَاب الأمم ، أم دول أوربا لما رمتنا عن قوس واحدة أيام الصليبيين ؟

أهؤلاء أم سيول التتر ، لما قادهم إلينا هولاكو فحطّوا علينا حطَّ الجراد ؟ أهذه (الدويلة . .) بنت ثلاث سنين . . أم دول الصليبيين التي شاخت في أرضنا إذ عاشت فيها أكثر من مئة سنة ؟

أهذه الدويلة . . . ونحن بالجيش والسلاح ، ولنا الاستقلال ، ومعنا المال ، أم فرنسا ذات الحول والطول ، لما حاربها رجال منا بأيديهم ، لا يملكون إلا السلاح الذي أخذوه من جنود فرنسا ؟ فوقفت فرنسا بدباباتها ومدافعها عند جسر تورا سنتين لا تستطيع أن تجتازه وما عرض النهر إلا خمسة أمتار ، وما يحميه إلا عشرات من الثوار .

أما نصرنا الله في أيام أشدَّ من هذه الأيام ؟

أضاعت ثقتنا بالله ثم بأنفسنا وبماضينا وبأمجادنا ؟

ألا ترونها تتلظَّى في العروق الدماء ، وتتفجَّر في الرؤوس الحماسة ؟

أما ترون شباب مصر ، طلاب الجامعة ، وتلاميذ المدارس ، وعمال المصانع يزلزلون الأرض ، لا يطلبون إلا أن يُفتح لهم الطريق ، ليمشوا إلى حرب انكلترا ؟

إنهم لا يحفلون جندها ، ولا يبالون سلاحها ، ولا يخشون حديدها ونارها ، ولو فتح الطريق لنساء مصر ، لمشت إلى حرب إنكلترا نساء مصر !

إن ها هنا شعباً يريد أن يموت ليحيا وطنه ، فهل تستطيع انكلترا أن تبيد الشعب كله ؟

فيا أيها الحاكمون في بلاد العرب ؟ لا تطفئوا هذه الحماسة ، لا تزهقوا هذه الروح .

يا أيها الحاكمون ، اجعلوا كل ميدان في البلد ساحة تدريب ، وكل قادر على الحركة جنديا ، دربوهم وخلُّوا طريقهم ، فإنكم لا تدرون متى تحتاجون إليهم ، (جندوا) كل يافع وكل كهل وكل عجوز ، ولا أقول ألبسوهم جميعاً بزَّة القتال ، وسوقوهم إلى المعركة ، لا ، فليس الجيش هو الذي يحارب فقط ، ولكن أقول سوقوهم إلى الأسواق وإلى المصانع وإلى الحقول ، حتى لايبقى في البلاد كلها عاطل ولا خامل ولا سائل ، ولا يبقى في البلاد كلها شبر واحد مُقْفر أو خال ، أقلُّوا عدد الموظفين ، وزهدوا التلاميذ في (الوظائف) ، وربوهم على حب العمل ، وكراهية الكسل ، وأقيموا النهضة على أساس شامل كامل واجعلوا للبلاد دستوراً اقتصادياً مبنياً على أساس العلم ، ودواعي الحاجة ، وعدلوا أسلوب الموازنة ، وقوانين الضرائب ، فإنه لا يجوز في شرعة الإسلام أن يدفع تسعة أعشار الضرائب الفقراء ، ويفلت منها كبار الأغنياء ، واستفيدوا من خيرات الأرض وبركات الوطن ، فإن هذا البترول العربي لو انفق ثمنه في أسباب القوة ، وفي سبيل الإصلاح ، ولم ينفق على الإثم والفسوق ومعصية الرسول ، لكانت به كل مدينة عربية ، مدينة أميركية !

ثم استنهضوا همم الرجال ، واستثيروا بذل الأغنياء ، وحرموا إنفاق المال في وجوه السرف ، والوان الترف ، وأنفقوا كل ما اجتمع لكم من مال في السلاح والعتاد ، دربوا الناس على القتال ، واجعلوا من الشباب جنوداً مستعدين ليوم الكريهة ، وانشروا في الشعب علم النجاة من الغارات والهجمات ، وسخروا الصحف والإذاعات لبثِّ القوة والرجولة في صدور الرجال .

إلى السلاح - ياعرب

إلى السلاح - فنحن في حرب ما بقي في فلسطين يهودي واحد .

إلى السلاح - فنحن في حرب ما بقي في القناة انكليزي واحد .

إلى السلاح - فنحن في حرب ما بقي في تونس أو في مراكش أو أي قطر عربي أجنبي واحد .

إلى السلاح - ياعرب .

إلى السلاح يا عرب

(٢)

هل تذكرون ، يوم ناديتكم من هذا المذياع ، وهتفت بكم ، إلى السلاح ياعرب ؟

لقد نَقَدَ كلامي يومئذ أقوام ، بأنه جاء في غير أوانه ، فكان صرخة في واد قُفْفر ، وكان الحق مع هؤلاء الناقدين .

كان الحق معهم لأني يوم ناديت هذا النداء ، وكان ذلك من ثلاث سنوات ، لم يكن قد طلع هذا الفجر ولم يكن قد أشرق الأفق بالنور ، وكنا لا نزال في بقية من سواد الليل ، فلم نعرف أين هو طريقنا ، أما الآن ، فقد طلع النهار ، وأبصرنا الطريق ، ورأينا أننا كنا نتخبَّط على غير هدى ، ونمشي على غير السبيل كنا نظن أن الطريق ، إلى المجد والظفر ، وغسل الهزيمة ، هو طريق مجلس الأمن ، وهيئة الأمم ، ذلك الطريق الملتوي ، الذي يَكمْن في جنباته قطَّاع الطرق من اليهود .

وقد عصينا الشيخ دريدا لما نصحنا بمنعرج اللوى :

أمـرتهمو أمـري بمنعرج اللوى   فلم يستبينوا النصح إلاضُحَى الغد

كان دريد العصر هو (فارس الخوري) ، الذي رأى الجادَّة حين ضلَّ عنها السارون فقال لنا :

إن قضية فلسطين لا تحلُّ في أروقة هيئة الأمم ، ولكن تحلُّ على سفوح الكرمل ، وشواطيء يافا ، وهضاب القدس ، ولا تحل بالخطب والأشعار ولكن بالحديد والنار .

كلمة الحق ، من الحق أن أسجلها له هنا ، وأن أقرر أنه كان أول من عرف الطريق ، الطريق الذي رأيناه الآن جميعاً .

الطريق الذي يوصل وحده ، إلى استعادة الحق المسلوب ، والنصر الضائع ، طريق المعركة الحمراء ، التي لا يظفر فيها إلا من حمل سلاحين ، سلاح الإيمان في قلبه ة وسلاح البارود في يده .

لذلك أعود اليوم ، لأنادي مرة ثانية إلى السلاح يا عرب ، أنادي أمة ، لم تعد تحتاج إلى ندائي ؛ لأنه لم يبق فيها نائم فأوقظه ، ولا ذاهل فأنبهه ، ولا ناس فأذكِّره ، ولاشحيح يضنُّ بالقليل من ماله على وطنه وأمته وشرفه ودينه ، حتى أسخِّيه وأرغِّبه في البذل والعطاء . أنادي شعبا ، دعاه ربه وهتف به قلبه ، فلبَّى قبل أن يسمع ندائي فعلام إذن أعود ، فأصيح إلى السلاح ياعرب ؟

وهل تروني أعيد ما كنت قلته ، وأنا أعلم أن أبرد الكلام الحديث المعاد ؟ لا . ما جئت لأكرر كلاماً سمعتموه من قبل ، ولكن جئت لأخبركم بشيء جديد لم تسمعوه ، بل طالما سمعتم نقيضه .

سمعتم أن اليهود أقوياء ، وأن لديهم ما لا يحصى من السلاح ، وأن كل من في إسرائيل من رجل وفتى وامرأة وفتاة جندي تحت السلاح ، ولكن ذلك يا سادة غير صحيح .

ولدينا (في مكتب المؤتمر الإسلامي) الحجج والبيِّنات على أن ذلك غير صحيح ، إن تسعة أعشار ما تسمعونه من هذا الكلام كذب . وأنا لا أريد أن تحقروا عدوَّكم ، فإن من يحقر عدوَّه ، ولا يبالي به ، لا يستعدُّ له ، وهذا ما لا يرضاه لنفسه شعب ، ولكن لا أريد كذلك أن تبالغوا في تقدير قوة العدو ، حتى تهابوه وتخافوه ، فينال ذلك من حماستكم ، ويكون دعاية لعدوكم .

إن اليهود لديهم سلاح ، ولكن ليس كما يشيع هؤلاء المرجفون ، واليهود يتدربون على القتال كل يوم ، ولكن قلوبهم هي قلوب من عرفتم في حارة اليهود في الشام ، وفي (الشورجة) في بغداد ، وهذي أيام فلسطين ، فاقرؤوا أخبارها ،

وتذكَّروا أحداثها ، وسلوا من كان فيها ، سلوهم هل تقابل اليهود والعرب مرة وجهاً لوجه في معركة مكشوفة إلا كان الظفر للعرب .

إن اليهودي يقاتل حينما يكون في قلعة حصينة ، أو دبابة متينة ، يستر جُبْنَه بالحجارة وبالحديد ، ولقد نبَّهني إلى هذه الظاهرة (التي رآها كل من شهد معارك فلسطين) قائد كبير ، وأفاض فيها وافتخر بأنه أول من انتبه لها ، هو (طه الهاشمي) ، وكان الحديث في فندق شطِّ العرب بالبصرة .

فقلت له : لقد سجِّلت هذه الظاهرة من قديم ، من ألف وثلاثمئة سنة ، حين أنزل الله في كتابه ، في وصف طبيعة هذا الشعب قوله ﴿ لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرىً محصنة أو من وراء جُدُر ، بأسهم بينهم شديد ﴾ .

فدهش ، وقال : آمنت بأن القرآن من عند الله .

ولو كان يتَّسع الوقت ، أو لو كان يجوز لي الكلام ، لعرضت عليكم من وقائع الحوادث ما تمتلئون منه عجبا ، مما يجري في هذه الأيام ، لا في أيام الحرب ، ولكني مع الأسف لا أستطيع ، ومع ذلك سأغامر وأروي لكم حادثة واحدة ، رأيناها في القرى الأمامية ، رأينا عربياً محبوساً في مخفر عند ضابط انكليزي فسألناه ، ماشأنه ؟ قال : إنه شوهد يجرُّ بقرة عند الحدود ، فسألوه من أين جاء بها ، فتردد وتلعثم ، ثم تبين أنه جاء بها من الجزء الذي تحتلُّه إسرائيل من فلسطين ، فعجبوا منه . وقال له الضابط الانكليزي : هل تستطيع أن تأتي بغيرها ، قال : نعم . وإن أعطيتني هذا المسدس جئت بالحارس اليهودي ، فأعطاه المسدس ، وغاب الرجل ساعات وحسبو قد فرَّ به ، وإذا هو يطلع أمامه بقرتان ، والحارس مكتوفا .

ياأيها السامعون يجب أن تعرفوا وتؤمنوا أنه لم يغلبنا اليهود على فلسطين ومتى كان اليهود يغلبون العرب ، ولكن غلبتنا الدول القوية التي تحمي اليهود الدول التي أكرهتنا على الهدنة ، ولم ننهزم نحن ، وهل حاربنا حتى ننهزم ، إنما انهزمت فينا الأخلاق التي استوردناها من بلاد غيرنا ، وتركنا لأجلها سلائق عروبتنا ،

وأخلاق ديننا ، ولولا الهدنة لقذفنا بإسرائيل إلى البحر .

ونحن إلى الآن قادرون على ذلك ، قادرون إن جَددَنا وأردنا ، وتسلحّنا ، فإلى السلاح يا عرب .

إلى السلاح فإن كل استقلال لا يحميه السلاح قلعة مبنيَّة على تل من الملح في مجرى السيل ،

إلى السلاح فإن كل حق لا يؤيده فمُ المدفع حق معرَّضٌ للاغتصاب ، إلى السلاح لتحموا به أوطانكم وإيمانكم ، وتدافعوا به عن أرضكم وعن عِرضْكم ، ولتذودوا به عن أجداث أجدادكم وآثار أمجادكم .

لقد كنا من عشرين سنة ، إذا دعونا إلى السلاح ، ألقت بنا الحكومة في السجن ، وكان في الشام حكومات يتنزَّل عليها الوحي من قصر الصنوبر في بيروت ، وكان في كل وزارة مستشار ، والمستشار هو الوزير والوزير كاتبٌ عند المستشار ، وعلى كل رابية قلعة فيها جنود من السنغال ، أعدُّوا بنادقهم لصدور من يهتف بالاستقلال ، وفي كل قلعة مدافع موجهة إلى هذا البلد تترقب همسته بالحرية لترمي البلد بصواعق من بارود .

فاحمدوا الله على أن فينا اليوم حكومات منا ولنا ، إذا نادت وجدت في الشعب المُصغي ، وإن نادى الشعب وجد منها الاستجابة ، وإن هذه القلاع صارت لنا بعد ما كانت علينا ، وإن الرجل الذي كان قائد الشعب في معركة الاستقلال في الشوارع والساحات وفي المضايق والأودية أيام الثورة هو رئيس جمهوريتنا اليوم .

فكيف كان هذا كله ؟

كيف ذهبت فرنسا من هذه الديار وما كانت تظنُّ أنه ستذهب كيف جاءنا هذا الاستقلال .

كلا ، لم يكن هديَّة جادت بها انكلترا ، ولكن نحن زرعناه ، في روابي ميسلون ، وفي جنّات الغوطة ، وفي شعاب الجبل ، وفي سهول حماة ، وعلى ضفاف الفرات ، وفي سوح حلب ، زرعناه بأيدينا ، وسقيناه بالماء الأحمر من

دمائنا ، وغذَّيناه بمهج إخواننا وأحبائنا ، وأجساد الآلاف من شهدائنا .

وإلا فهل تظنُّونه جاء سهلاً سائغاً بلا كد ولا تعب ، فأين إذن ثوراتنا ؟ وأين صبرنا عن الكسب والعمل ، وإضرابنا ستين يوماً متتاليات ؟ وأين تلك البطولات في شوارع الشام ؟

أنسيتم مقالتي (أطفال دمشق) التي تناقلتها سنة ١٩٣٦ أربع وعشرون جريدة[١] ، وترجمت إلى الفرنسية والانكليزية فعجب مما فيها الانكليز والفرنسيون ، المقالة التي لم أبدع فيها ولم أتخيَّل ولكن وصفت مشهداً من بطولة أطفال دمشق ؟ مشهد الطفل الذي هجم بالمسطرة على الدبَّابة وتسلَّقها وهي تطلق النار ، المشهد الذي بلغ من روعته أن الوحش الباريزي الذي كان في الدبابة تأثَّر به حتى اضطر أن يذكر إنسانيته التي نسيها ، ويفتح بُرْجه ويقبِّل الصبي ويقدم له قطعة شكلاطة ؟

فهل تظنُّون أن أمة هؤلاء أطفالها تعجز عن أن تنال استقلالها بأيديها ؟ أو تظنون أنها بعد ما نالت استقلالها من فرنسا تعجز عن قتال هذه الحفنة من كلاب الأرض : اليهود ؟

أنعجز عنهم وقد حاربنا فرنسا ، لما كانت أقوى دولة بريّة في العالم ، ولم تستطع فرنسا أن تجتاز النهر الذي كان عرضه أربعة أمتار إلا بعد ثمانية عشر شهراً .

لقد غلبنا فرنسا في معارك استمرت سنتين ، فهل نجزع من حرب يهود ، وكانت صورة المجاهد منا ترعب الضباط الفرنسيين ، فهل تُرعبنا صور المقاتلات من بنات اليهود ؟

لا يا أيها السامعون ، لا إننا لم ننهزم أمام اليهود في فلسطين ، ولكن انهزمت

(١) تجدونها في كتابي (دمشق) وقد نشر من قريب .

أخلاقنا المستعارة لا أخلاقنا الأصيلة أمام ضغط الأقوياء ؛ من حماة اليهود ، ولن نعيد أبداً تلك الرواية المخزية .

لقد طلع الفجر وأبصرنا الطريق ولن نرجع إلى ظلام الليل ، لقد عرفنا أنه لا يُحترم إلا حقُّ القوي ، فإلى القوة .

إلى السلاح يا عرب إلى السلاح أبذلوا في سبيله الغالي والرخيص ، إلى السلاح بيعوا الصحن والكرسي واشتروا السلاح ، امنعوا عن أفواهكم وابذلوا للسلاح ، فإنه إن كان معكم السلاح استرجعتم كل ما بذلتم ، وإن لم يكن معكم سلاح لم ينفعكم كل ما ادَّخرتموه ،

إلى السلاح اشتروه من الشرق ومن الغرب ، واطلبوه من الإنس ومن الجن .

إلى السلاح يا عرب .

سلاح الحديد في أيديكم ، وسلاح الإيمان في قلوبكم ، وسلاح الأخلاق والعلم والمال ، والله معكم إن تنصروا الله بأموالكم وأنفسكم ينصركم ويثبِّت أقدامكم .

حوادث مصر

أذيعت خلال أيام العدوان على مصر

أكتب هذا الحديث قبيل فجر يوم الخميس ، وأنا لا أستطيع السهر ، وليس السهر من عاداتي ، ولا أحب (الرادّ) وليس الاستماع إليه من صفاتي ، ولكني بتُّ الليلة أعانق الرادَّ في الدار ، أنتقل من محطة إلى محطة ، أتسقَّط الأخبار عن مصر ، حتى شربت ثمالتها ، ورافقت البرامج كلها حتى بلغت نهايتها ثم لم أستطع المنام ، ولا أظن أنْ قد استطاعه نصف أهل الشام ، وكيف أنام على ناعم الفراش ، وإخواني في مصر يبيتون مُسَهَّدين مستعدين ، قد تأبَّطوا بنادقهم ، ورابطوا يدفعون عن أرضهم وعِرضهِم ، عن بناتهم وأولادهم العدوان المثلَّث اللّعنات الذي نزلت به عليهم ؟ دول الشرِّ الثلاثة : إسرائيل وبريطانيا وفرنسا .

كيف أهنأ بالسلامة والدَعَة والأمن ، ومصر ما لها قرار من لذع النار ، وكيد الاستعمار ؟

كيف أشرب العذْب من ماء الفيجة ، وأنشق الناعش من نسيم الوادي ، وأصغي إلى أناشيد السكون في صفاء الليل ، وقومي هناك يتجرَّعون الصاب ، وينشقون رائحة البارود ، ويستمعون إلى دوي القنابل ؟

أأملأ عينيَّ بلذيذ المنام ، وأستمتع بشهي الأحلام وأهلي في مصر يعانون الغصص ويقاسون الآلام كلا ، ولست (إن فعلت) بالعربي ، ولست بالمسلم ، ولست بالانسان .

وكيف والأصل من مصر ، وتجمعني بمصر جوامع الدين واللسان ، والآلام والآمال ، والأخوة التي لا انفصام لها ، فأنا من مصر ومصر مني ، وكل شدَّة تنزل بمصر تنزل على ضلوعي ، وكل ألم يصيب مصر أحسُّ به في شغاف قلبي ، والدم

الذي يُراق على ثَرى مصر دمي ، والأرض التي يريد أن يستغلها العدو أرضي ، إن هتف المقطَّم لبَّاه قاسيون ، وإن أنَّ النيل أرق له بردى وإن جُرح جندي من جنود مصر وجع له كل قلب في الشام .

إذا ألَمَّت بوادي النيل نازلة ... باتت لها راسيات الشام تضطرب
وإن شكا في ذَرا الأهرام ذو ألم ... أجابه في رباع الشام مُنتحب

مضى العهد الذي كان فيه سوري ومصري ، ولبناني وعراقي ، وقوَّض المسرح وهتك الستار ، وعطلَّت الرواية التي طالما مثَّلها الاستعمار ، ولم تعد خشباتٌ تُنصب على الطريق أن تفرِّق بين أبناء الوطن الواحد ، فيا أهل مصر لا تراعوا فكلنا معكم والله معنا ومعكم .

لاتراعو إن واجهتم عدوَّين ، وحاربتم في جبهتين ، فقد مرَّ بمصر أيام كانت أشد وأقسى ، ونجت مصر بحمد الله من هول تلك الأيام .

وإذا كنتم قد نسيتم أيام مصر ، فدعوني أذكركم بيوم منها ، بيوم أغرَّ محجل ، وقفتم فيه موقفا ، لم ينقض بعدُ عجبُ التاريخ من عظمة ذلك الموقف ، يوم خرج هولاكو حفيد جنكيز بجيوش كالجراد فمرَّ على البلاد كلها مرور العاصفة المدمِّرة ، لا تصدم شيئاً إلا تركته هشيما ، وجعلت الحكومات تسَّاقط تحت قدميه والجيوش تتمزَّق بين يديه ، حتى أوصلته خيانة الوزير ابن العلقمي إلى بغداد ، ففعل فيها ما لم تشهد مثله مدينة في الأرض .

وكان في بغداد أكثر من مليونين من الناس ، فاستمر القتل العام فيهم بضعة وثلاثين يوما حتى قتل منهم أكثر من مليون ونصف مليون ، وانهتكت أعراض ، وارتكبت فظائع ، ومزقت مصاحف وديست ، وصيِّرت المساجد مواخير وخمارات ، وأحرقت ثمرات العقول ونتاج الأفكار ، ومرَّ جيش الموت على الشام حتى بلغ غزة ولم يبق إلا مصر ، وظنَّ ضعفاء النفوس أنه قضي على الإسلام فلا تقوم له قائمة أبداً ، وكانت مصر على عهد المماليك يحكمها غلام هو ابن أيبك ، وطار الجزع بألْباب المصريين ، وكادوا يستسلمون لولا أن قيَّض الله لهم شيخاً من

دمشق هو عز الدين بن عبد السلام ، لجأوا إليه والتفُّوا حواليه ، يلتمسون منه الهداية في هذه الظلمة المدلهمَّة ، وكان عنده ما يطلبون ، عنده المصباح الذي يبدِّد كل ظلمة ، ويهدي كل ضال ، القرآن ، فحملهم عليه ، ودعاهم إليه ، وشرع ينفِّذ فيهم أحكام القرآن ، فألزمهم بترك الخلاف الحزبي ، ونبذ الترف والسرف وإخراج الأموال المدَّخرة ، أموال الأمراء قبل أموال الشعب ، وانتخب الناس بالإجماع أميراً جديداً قويا قادراً هو (قطز) ، ومشت مصر إلى المعركة تحت راية القرآن التي رفعها هذا الشيخ .

كان التتار يا أيها السامعون في غزة ، والصليبيون في السواحل وفي أرجاء الشام ، وكانت مصر بين عدوين هما الشرق كله والغرب كله ، وكانت مصر ضعيفة ، فاسدة الحكم ، واهِيَةَ القوى ، ومع ذلك فقد استطاعت مصر ، لما أثار ذلك الشيخ الإيمان في صدور أبنائها ، وهاجَ النخوة في رؤوسهم أن تواجه التتار في عين جالوت ، وأن تنتصر عليهم ، وأن تنقذ الإسلام والحضارة ، ثم استطاعت بعد سنين أن تحارب تحت راية الملك الظاهر بيبرس ، ثلاثة أعداء معا ، أتدرون من هم ؟ التتار والصليبيون والبزنطيون ، وأن يكون لها الظفر بهم جميعا . هذه وقائع من التاريخ ليست خطبة حماسية .

فأي الفريقين أشد وأقوى ، التتر والصليبيون ، أم اليهود وفرنسا وانكلترا ؟

هذا ومصراليوم غير مصر تلك الأيام ، والشعور الإسلامي والعربي ليس كالشعور في تلك الأيام ، نحن الآن أفضل وأنبه بلا شك .

فلا تجزعوا من تلك المصائب المتتالية ، فما هي إلا تدريب لنا ، نحن كالبطل الرياضي ، الذي كان المصارع الملاكم (السابق) ثم تكاسل ونام حتى فترة حماسته ، ووَنَتْ قوته ، ماذا يصنع هذا البطل إذا جاءت المباراة الجديدة ؟ ألا يكلف أنواع التمرينات الشاقَّة ليعود إليه نشاطه ، ويرتدَّ إليه جلده ؟ كذلك يصنع الله بنا .

لقد كنا أمة نزال وصدام ، وكنا أبطال المعارك وفرسان الميادين ، ولقد فتحنا

الشرق والغرب وملكنا ما بين الصين وفرنسا ثم هجعنا طويلا ، وتوالت علينا أيام الخمول ، حتى لقد شككنا في أنفسنا ، وهانحن أولاء ندعي مرة ثانية لقيادة العالم ، إي والله لقيادة العالم ، ولا بد لذلك من تمرينات شاقة ، وهذه هي التمرينات ، وقد يموت منا رجال ، وتخرب لنا دور ، ويصيبنا الأذى ولكن ذلك كله يهون في جنب الغاية التي يريدها الله لنا ، لقد خبّرني من شهد أواخر أيام الحرب في ألمانيا أنها كانت تُغِير على برلين خمسة آلاف طيارة ـ خمسة آلاف ، هل تسمعون ؟ تضربها ضرباً يزلزل الأرض ، ويرجّ الجبال ، حتى لكأن القيامة قد قامت ، وجهنم قد فتحت ، فإذا أفرغت أحمالها ، وصبَّت رزاياها ، وانصرفت ، سكتت المدافع وخرج الناس من الملاجيء ودارت سيَّارات الحكومة تقرع الأجراس معها صفائح كبيرة من الأخشاب ، والورق المقوَّى ، ومسامير ، فكل من سقط جداره ، أو هدمت داره ، أخذ من هذه الصفائح ، فجعل منها جداراً مكان الجدار الذي انهدَّ ، وبيتا بدل البيت الذي سقط ، فلا يكاد ينتهي الإصلاح ، حتى تعود الغارة ، ويتكرر ذلك كل يوم وهم صابرون ، فلماذا نخاف إن ألقيت علينا بضع قنابل ؟ ولِمَ نهرب واحتمال الخطر في المكان الذي تهرب إليه ، كاحتماله في المكان الذي تهرب منه ، وما الفرق بيننا وبين الألمان ؟ أنحن مخلوقون من الطين ، وهم مصبوبون صبَّ الحديد ؟ لا ، ولكنها العادة والمِرَان ، ومكابدة الأهوال ، وممارسة الخطوب ، وأنا لا أكره أن تتوالى علينا الغارات ، وأن نذوق لذْع الحرب ، ونكوى بنارها لنتخلَّق بمثل تلك الأخلاق .

إننا سنجزع عند الغارة الأولى ، وهذه طبيعة الإنسان ، عند الغارة الأولى فقط ، والألمان جزعوا كذلك ، لما رأوا الغارة أول مرة ، ثم نتعوَّدها كما تعودوها ، إن الألمان ليسوا أصفى منا جوهراً ، ولاأطيب أصلاً ، ولاأقوى أعصاباً ، ولكن حياة الدعة والخمول ، والقعود عن الحرب ، كادت تفقد العرب أجمل سلائقهم ، وأحسن سجاياهم ، وهي الصبر والجلد ، واحتمال الشدائد ، ومقارعة الأعداء ، فجاءت هذه الشدائد لتردنا إلى سلائقنا وسجايانا ، فياأهل مصر لاتَرُعْكم الأحداث ، فالظفر لكم .

لن يعود يوم نابليون ، ولايوم عرابي ، لقد كنا يومئذ نجهل الغربيين فنخافهم ، ونقابل بارودهم ونارهم بالسيف والرمح ، فعرفناهم الآن وأعددنا لهم مثل سلاحهم ، عرفنا أن دهاء الإنكليزي وشجاعة الفرنسي خرافة من الخرافات ، وهؤلاء الفرنسيون يعجز نصف مليون منهم عن عشرة آلاف تجابههم في الجزائر ، وهؤلاء هم الإنكليز ، قد فقدوا ذلك الدهاء وتلك البرودة ، وصاروا (يوم بور سعيد) في الطيش والحماقة مثل الفرنسيين .

ولقد وقفنا يوماً في وجه فرنسا ، يوم كانت فرنسا في أعقاب الحرب العالمية الأولى أقوى دول الأرض على البر ، وحاربناها سنتين وكنا وحدنا مامعنا أحد ، ومامعنا من السلاح إلا مابقي بأيدينا من أيام الأتراك ، أفتعجز مصر اليوم ومعها نصف دول الأرض ولديها السلاح ، ولديها الإيمان ؟

فلا تخافوهم ، فما هذه الإنذارات وما هذه التهديدات إلا سلاح العاجز ، ولو كانوا يستطيعون النزول في أرض مصر لنزلوا ولكن ثقوا أنهم لايستطيعون ، ولو استطاعوا أن ينزلوا فلن يستطيعوا البقاء ، أو ما كانوا في القناة ، وكان لهم فيها قاعدة حربية لانظير لها ، ولهم فيها ثمانون ألف جندي ، ثم أنزل بهم الهزائم وحمَّلهم الخسائر بضعة آلاف من المجاهدين قبل بضع سنين ، أنسيتم حديثي عنهم[1] ؟

فإذا عجزوا عن بضعة آلاف من المجاهدين أفلايعجزون عن جيش كامل ومن ورائه أمة بقضِّها وقضيضها ، ومن وراء هذه الأمة العرب والمسلمون وكل محب للسلام كاره للحرب ؟

لا لن يكون إن شاء الله إلا الخير ، ولكنه امتحان لصبركم وإيمانكم ، فاصبروا فياأهل مصر ، اصبروا واثبتوا ، واذكروا أنها قد مرَّت بكم أيام أشد هولاً ، وأقسى وطأً ، وقد أعانكم الله عليها ، وستنجلي هذه الغمَّة عنا وعنكم ، ونحن كلنا معكم ، ويكون النصر لكم ماكنتم مع الله ، وماعملتم لإعلاء كلمة الله ، ومانشرتم راية القرآن وحاربتم بقلوب ملؤها الإيمان ، والسلام عليكم ورحمة الله .

---

(١) انظر فصل (بطولاتنا في القناة) من هذا الكتاب .

في حوادث مصر أيضاً

أذيعت أيام العدوان

ياأصدقائي السامعين السلام عليكم ورحمة الله .

لقد قطعت صفّارات الإنذار حديثي الماضي ، وكنت أخاطب فيه أهل مصر ، وأضرب لهم الأمثال بما كان ينصبُّ على برلين في أواخر الحرب الماضية من ألوان البلاء ، من طيّارات الأعداء ، حتى إذا زلزلوا بها الأرض ورجُّوا من حولها الدنيا ، وحسبوها قد سقطت إلى الأبد ، إذا هي تقوم على رجلها حتى كأن لم يصبها شيء .

كنت أقول هذا الجمعة الماضية ، وماكان يقال الجمعة الماضية ، فيكون وثبة من وثبات الخيال وقبساً متّقداً من نار الحماسة ، يهزُّ النفوس ويسمو بها عن الواقع ، صار الآن كلاماً خامداً ، مملولاً متخلفاً عن الواقع ، صار كلاماً فارغاً ، لأن الحوادث تسبق في هذه الأيام خيال الأديب .

إن العرب الذين ناموا قروناً حتى سبقتهم أمم الغرب مراحل في طريق الحياة ، قد وثبوا الآن يسعون سعياً ليعوِّضوا مافات ، إنهم يقطعون في أسبوع واحد من الطريق ماكانت قطعته هذه الأمم في ربع قرن .

وإذا كنت قبل أسبوع أضرب لمصر الأمثال على الصبر والاحتمال ، فأنا اليوم أضرب بمصر الأمثال للعالم .

لقد قاسينا نحن في الشام ، وقع المدافع ، ورأينا الحريق والدمار من الفرنسيين المجانين ، وكنا معهم في نضال مستمر خمساً وعشرين سنة بلاانقطاع ، فتمرَّسنا بالحرب ، وتعودنا مسَّ الهول ، وكنت أخاف أن ترتاع مصر المسألة ، أو تفزع إذا أحسَّت نار العدو ، وإذا بمصر تُدهِش لشجاعتها واحتمالها الدنيا ، وإذا

بمصر تغدو مثلاً أعلى في البطولة والإباء تتحدث عنه الأرض كلها ، وإذا بمصر تقف موقفاً ، لوجاءت كل أمة بمواقفها المشرفة ، التي تكون أول ماتعقد عليه خناصرها إذا هي عدَّت مفاخرها ، لم تجد فيها إلا القليل النادر من أمثال الموقف الذي تقفه الآن مصر ، لقد بطلت خرافة بريطانيا العظمى ، بريطانيا التي لاتغيب عن أملاكها الشمس ، بريطانيا التي لاتغلب ، وأنها مثل الأسد الذي اتخذته شعاراً لها ، فهي تضرب دائماً ضربة الأسد ، وتنال دائماً حصَّة الأسد .

لقد مزَّقت مصر جلدة الأسد البريطاني ، فكشفت الخدعة الكبرى ، ظهر أن الأسد البريطاني ليس أسداً حقيقياً ، ولكنه ذئب هَرِمٌ عجوز قد لبس جلد الأسد ، إنه أسد مسرحي .

إنه كان يمرح في الأجمة ويهدِّد بأظفار مستعارة .

إن فرنسا وإنكلترا ياأيها السامعون كانتا تقاتلان بسيوفِ غيرهما ، إن كل نصر نالوه خلال القرن الماضي إنما نالوه بسيوفنا نحن ، بسيوف الهنود ، الذين كانوا يبنون صروح النصر لبريطانيا من جماجمهم ، وسيوف المغاربة الذين كانوا يغسلون عار الهزيمة عن فرنسا في كل معركة بدمائهم ، وانظروا كم مات من المغاربة ومن الهنود ، لتنتصر هاتان الدولتان اللئيمتان الجاحدتان الناكرتان للمعروف ؟ كم تيتَّم من طفل ؟ وكم ترمَّل من امرأة ؟ وكم ثكل من أم ؟ ليعلق وسام الانتصار على صدر جوفر في معركة المارن في الحرب الأولى ، وعلى صدر مونتغمري في معركة العلمين في الحرب الثانية ؟

بسيوفنا نالت فرنسا وإنكلترا كل مانالت من نصر ، أم حسبتم أن الإنكليز هم طاردوا رومل أسد الصحراء وعبقري الحرب ، إنما طارده حتى تركه مايقرُّ له قرار فرسان المغاربة ، الذين تكافئهم فرنسا على ذلك بهذه الحرب الوحشية الدنيئة في الجزائر .

وها نحن أولاء نجيء اليوم لنكفِّر عن هذه المواقف أمام الله وأمام التاريخ .

إن السيوف التي طالما كانت مع المستعمرين بالباطل جرِّدت الآن لتكون عليهم بالحق .

لقد بدت بوادر الظفر .

لقد ظهرت تباشير النهار ، ولايزال ظلام الليل ممتداً ، ولكن الأفق الشرقي قد بان فيه النور .

إنهم لايزالون أقوى ، ولكنهم في مثل ضياء الأصيل فيه بقايا النهار وأمامه الليل . ونحن في مثل غبش الفجر فيه بقايا الليل وأمامه النهار الطويل .

لقد رأينا أوائل الظفر ، كما رآها العرب يوما في ذي قار . أرأيتم كيف كانت فارس والروم تقتسمان الأرض ، فلما انتصر العرب على الحملة الفارسية في ذي القار ، كان هذا النصر مقدمة للقادسية ونهاوند اللتين قضتا على الإمبراطورية الظالمة العجوز ، امبراطورية كسرى ، لتقوم مقامها الجمهورية العادلة الفتية جمهورية محمد ﷺ .

إن التاريخ يعيد نفسه ، وإن ذي قار صار اسمها بور سعيد ، إن سيادة العالم لاتزال دُولة بين الشرق والغرب ، تنتقل دائماً من ههنا إلى ههنا .

وهاهي ذي اليوم تعود كرة أخرى إلى المشرق ، وليرين من يكتب له العيش إلى مابعد أربعين سنة ، أننا قد عدنا إلى مكان الصدارة في الأرض .

وليس هذا خيال شاعر ، ولاكلام خطيب ، ولكنه المنطق الذي يسبقه دليله إلى الأذهان .

لقد كنا نحن أقوى من أوربا وكنا أعلم منها ، وكنا الأساتذة لها ، وكنا الفاتحين لبلادها ، ولقد دخلناها مرة من الغرب حتى ركزنا رايتنا ونشرنا حضارتنا في قلب فرنسا ودخلناها مرة من الشرق حتى نصبنا إعلامنا وأذعنا علومنا ، حول أسوار فيينا ، فلما كان البعث الأوربي (الرونسس) وظهرت علومٌ لم تكن ، وأسلحة لم تعرف ، كان يتولى أمرنا العثمانيون ، فقعدوا مع الأسف ، أشد الأسف ، عن حمل هذه الأسلحة ، وتعلُّم هذه العلوم فسبقنا القوم ، فالنقص

ماجاءنا إلا من فقد السلاح الجديد ، وجهل العلوم الجديدة ، ومن أننا أضعنا حماسة الإيمان نتيجة لذلك ، وفقدنا الثقة بنفوسنا ، فاجتمعت علينا الدواهي الثلاث .

وهانحن أولاء قد تعلَّمنا تلك العلوم ، وحملنا ذلك السلاح ، وشيء آخر هو أن حياة الغرب بأيدينا نحن بالبترول الذي ينبع من أرضنا .

ولم يبق إلا أن نستعيد أيامنا لنعود كما كنا .

فلاتشكُّوا بالنصر ، فإن الشك في النصر شك في نفوسكم ، وشك في الله .

هاهو ذا السلاح في أيديكم فاستكملوا إيمانكم ، واستعينوا بربكم ، فإنكم غالبون .

أنتم الغالبون ماكنتم مع الله ، والنصر لكم مانصرتم الله ، وحاربتم لإعلاء كلمة الله .

وسيصاب منا رجال ورجال ، وستخرب لنا دور ودور ، وسيأخذ العدوُّ مناطق من أرضنا ومناطق ، هذه هي الحرب ولكن هذا كله لايفتُّ في أعضادنا ، ولايُدخل الضعف على قلوبنا .

ولقد مُحيت بولونيا من خريطة أوربا مرات ثم أعادتها عزائم أبنائها ، وقد اكتُسحت روسيا مرتين ، مرة على عهد نابليون ومرة على عهد هتلر ثم حررت روسيا نفسها ، وكل أمة في الدنيا تنال ويُنال منها ولكنها لاتموت ، وإذا أصيبت مصر بأبنائها وديارها فقد أصيب الإنكليز والفرنسيون أكثر ، ﴿ إن يمسسكم قرحٌ فقد مسَّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتَّخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين ﴾ .

وإذا كان الإنكليز يجعلون الانسحاب من دنكرك من بطولاتهم فإن بطولة المصريين في الانسحاب من غزة وسيناء كانت أكبر ؛ لأنها قضاء على هذه المؤامرة الوسخة التي أرادوا فيها إقصاء الجيش عن مكان المعركة ليدخلوا مصر . على أن الذين قاتلوا في سيناء ليسوا اليهود ، وَيْلي على اليهود ! متى كان اليهودي فتى

الصدام وفارس المعارك ؟ لا ، ولكنهم أعداؤنا في كل زمان وفي كل مكان : الإنكليز والفرنسيون ، هم الذين لبسوا ملابس اليهود ، وقاتلوا في سيناء تحت راية اليهود .

ومع ذلك كله لم يستطيعوا أن يملكوا القناة ، ولاأن يقتحموا هذه القلعة المنيعة التي يحميها آساد مصر .

لقد استطاعت مصر أن تقف في وجه إنكلترا وفرنسا ، فمن كان يصدِّق ذلك ؟

مصر استطاعت أن تقف في وجه إنكلترا وفرنسا ، وأن تتلقَّى غاراتهم الجنوبية المجرمة بأعصاب الرجال الصابرين ، وأن تسقط طياراتهم وتغرق مدمِّراتهم ؟

ماكنت آمل أن أعيش حتى أرى هذا ، فيارب لك الحمد . الحمد لله . الحمد لله .

اللهم ثبِّت أقدامنا ، وأتمَّ نعمك علينا .

وهبُوهُم عادوا لاسمح الله فملكوا القناة ، أما كانوا يملكون مصر ، أما كان لهم في القناة قاعدة حربية فيها ثمانون ألف جندي ؟ أما طيَّر أحلامهم فيها وروَّعهم وحرَّم النوم على أجفانهم بضعة آلاف من الشبَّان المتطوعين ؟ الشبان الذين حدثتكم حديثهم من وراء هذا المذياع ؟ فكيف يؤمِّلون الاستقرار في مصر الآن وأمامهم جيش مصر كله وشعب مصر كله ؟

إن أمل الإنكليز بالعودة إلى مصر كأمل إمامهم إبليس بالرجوع إلى الجنَّة .

لقد دالت دولة فرنسا وإنكلترا .

لقد هُتك الستار وظهرت الأسرار ، فافتضح الفرنسيون في سورية ثم في الهند الصينية ثم في الجزائر . وافتضح الإنكليز في الهند ، ثم في مصر ، وظهر أن قوَّتهم ادِّعاء ليس وراءه إلا الضعف ، وأن مدنيتهم غِشاء ليس تحته إلا الوحشية .

إن الإنكليزي أو الفرنسي ، لايتأخر عن شكرك إن ناولته المملحة على المائدة ، ولايقصر في الاعتذار إليك إن داس على رجلك خطأً في الطريق ، وإن

رأى كلباً مريضاً تألم عليه وحمله إلى الطبيب ، وهو أنيق نظيف مهذَّب اللفظ لايستهين بذرَّة من هذه الآداب ، ولكنه لايجد مانعاً يمنع رئيس وزرائه أن يأمر فيصبَّ النار الحامية على البلد الآمن ، فيقتل الشيوخ والنساء والأطفال ، ويدمِّر ويخرب ويذبح الأبرياء ، ويفعل مالاتفعله الذئاب ذوات الظفر والناب ، ويدَّعي أنه هو المتمدن ؟!

أهذه هي المدنية ؟ إن كانت هذه المدنية وهؤلاء هم المتمدنين فلعنة الله على المدنية وعلى أهلها .

وإنه لخير منها ألف مرة حياة النَوَرِ تحت بيوت الشعر ، إن أحطَّ النَوَرِ (اقسم بالله) ليترفَّع عن أن يفعل مافعله ايدن وموليه .

فاكفروا بالغرب وعودوا بوجوهكم إلى الشرق ، عودوا إلى سلائق العرب ، ففي العرب الوفاء والفضيلة والنجدة والإباء والشرف ، عودوا إلى آداب الإسلام ففي الإسلام الخير والعدل والحق والنصر والمجد ، وانصروا الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه لينصركم الله ، واعلموا أن أجدادكم مافتحوا الدنيا ولاحازوا الأرض بكثرة عددهم ولابمضاء سلاحهم ، فأعداؤهم كانوا أكثر عدداً ، وأمضى سلاحاً ، بل لأنهم كانوا مع الله فكان الله معهم .

ياأيها الناس دعوا اللهو والترف ودعوا الخلاف والنزاع ، وكونوا جميعاً جنود الله في المعركة الحمراء ، فهذي بشائر النصر قد بَدَتْ لكم ، وهذي طبول الظفر قد دقَّت أمامكم ، وهذا هو فجر يومكم الجديد قد انبلج من بور سعيد . فاصبروا فالنصر لكم .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ .

من بطولاتنا في القناة

أذيعت سنة ١٩٥٦

أسلاك البرق ، وأمواج الأثير ، والبرقيَّات والإذاعات والصحف ، جعلت الأرض كلها كالدار الواحدة وجعلت أهلها جميعاً كالأسرة ، يتكلم رجل من أمريكا فيسمعه وهو يتكلم من في الصين ، وتقع حادثة في مصر فيهتمّ بها من في الهند وأوستراليا على السواء .

وصارت هناك موضوعات تشغل الناس جميعاً ، ويتحدثون بها في وقت معاً ، من ذلك موضوع القناة الذي يشغل اليوم كلَّ ذهن ، ويتحدَّث به كل لسان ؛ لذلك جعلت حكايتي اليوم عن القناة[1] .

وهي حكاية ، بل حكايات من التاريخ ، من صميم التاريخ القريب ، حوادث حقيقية وقعت من خمس سنين ، أرويها بلازيادة ولازخرف ، ليعلم الإنكليز أن القلوب التي أبغضناهم بها لاتزال في صدورنا ، والسيوف التي حاربناهم بها لاتزال على عواتقنا ، وأنهم إن تقدموا للحرب شبراً تقدَّمنا لها ذراعاً ، ولانقول هذا حماسة ، وادعاء ، فإنا لنعلم أننا لسنا أقوى من إنكلترا عدَّة ولاعددا ، ولكن إن كانت الحرب ، لم تنفع إنكلترا ذات العَدد ولاالعُدد ، كما أنها لم تنفع فرنسا ، ذلك لأنه لاتغلب أمة في أرضها أبداً ، وليعلم السامعون من العرب ، ممن يحب مصر ، ويخاف على مصر ، ماذا فعلت مصر في القناة سنة ١٩٥١ ، لما كانت منطقة القناة كلها بيد الإنكليز ، وكان لهم فيها قاعدة حربية أعدَّت لتصمد لجيوش الألمان ، فلم تصمد لهجمات الفئة القليلة من شباب

(١) كنت أذيع برنامج (حكايات من التاريخ) .

الإخوان ، وكان لهم فيها ثمانون ألف جندي ، بطياراتهم ودباباتهم ومدافعهم وكل مايلزم جيشاً فيه ثمانون ألف جندي . فحاربهم بضعة آلاف من شباب المصريين ، كلّهم من الطلاب والمدرِّسين ، الذين تدربوا على الحرب لمّا كانوا متطوعين في حرب فلسطين .

ولست أروي الحوادث كلها ، ولاتتّسع لذلك عشرون من أمثال هذه الأحاديث ، ولكن أروي قليلاً منها ، على سبيل المثال عليها ، أرويه بلسان المحدِّث بإيجاز واختصار ، ولو أعملت فيه قلم الأديب لجعلت من القصة الواحدة ملحمة من أروع الملاحم .

وقد ترون هذه الأخبار ، أخبار مجانين ، يُقْدِمون على الموت الأكيد ، وهي كذلك حقاً ، والجنون في الدفاع عن الحق ، واقتحام الموت في سبيله إحدى المَكْرُمات ، ومثل هؤلاء المجانين يبنون للبلاد استقلالها على أساس متين من قبور المستعمرين .

وهذه حادثة من الحوادث .

علمت قيادة المجاهدين في منطقة القنطرة الشرقية ، بأن باخرة إنكليزية أفرغت في بور سعيد أسحلة وذخائر ، وأن قطاراً سيحملها إلى المستودعات البريطانية في الإسماعيلية ، ليصبّها على أبناء مصر ، والمدافعين عنها ، فقرروا نسف هذا القطار .

وكان في القطار حرسٌ مسلَّح متربِّص لكل حادث ، وكان على جانبي السكة طريقان للسيارات ، تمشي فيهما السيارات المصفحة تحمي القطار من كل خطر ، وكانت القطارات تمشي ببطء وحذر ، وأمامها كشّافون يتوثقون من سلامة الطريق ، فلم يكن بد من خطة انتحارية ، ووضعت الخطة ، فتسلَّل المجاهدون ليلاً ، واختاروا المكان الصالح ، وزرعوا فيه الألغام ، تحت السكة ، ولم يبق إلا أن يتقدم أحد الشباب لتفجيرها عندما يأتي القطار ومعنى ذلك موته الأكيد .

وتزاحم الشباب على ذلك ، تزاحموا على الموت في سبيل الله ، وكاد يؤدي بهم

الأمر إلى التنازع ، فاختاروا واحداً منهم بالقرعة ، وكان الذي اختير بالقرعة هو عبد الرحمن البنّان الطالب يؤمئذ في كلية الحقوق ، فذهب واغتسل وصلّى ركعتين وودّع إخوانه ووصّاهم بأهله واستعدّ لِلقاء ربه ، فلما جاءت الإشارة من بور سعيد بتحرُّك القطار ، لبس ملابس عامل بالسكة ، وذهب فاختبأ وسط الأشجار القريبة من الخط ، فلما ظهر القطار أشعل الفتيل ، فكان انفجار مروع ، زلزلت منه الأرض زلزالاً ، وتطايرت العربات ، فنزل بعضها في القناة وبعضها في الترعة الحلوة (أي الأنهر) المتفرعة من النيل .

أما هو فقد شاهده بعض الحرس قبل أن يتمّ الانفجار ، فوجّهوا إليه الرشاشات ، وألقت عليه المصفحات نارها ، قال محدثنا ، فاعتقدنا أنه مات ، وترحّمنا عليه ، وكيف ينجو والأرض منبسطة مافيها حفرة ولاأكَمَة ولابناء ، وقد ألقيت عليه آلاف الطلقات ، فلما انجلى الغبار ، إذا به قد أقبل يمشي ، ماأصابه والله خَمْش ، وخسر الإنكليز الذخيرة كلها ، وأربعين قتيلاً ، وعطِّلت السكة أكثر من شهرين .

وهذه حادثة أخرى :

علم المجاهدون أن الإنكليز يخزنون ذخائرهم في مستودعات كبيرة سرِّية ، في منطقة أبو سلطان بجوار الإسماعيلية ، فقرروا نسف هذه المخازن .

وكان نسفها بل الاقتراب منها يشبه المستحيل ؛ لأن حولها خطوطاً من الأسلاك الشائكة المكهربة ، وحقول ألغام ، ومراكز حراسة متلاصقة ، تطوف بها دائماً دوريات مسلّحة ، وتحرسها كلاب بوليسية مدرَّبة ، كان نسفها كالمستحيل ، ولكن هؤلاء الشباب ، قد باعوا حياتهم في سبيل الله ، واطَّرحوا الحذر جانباً وأقبلوا يريدون الموت ويتمنونه ، ومن يريد أن يموت ويحبّ الموت ، لاتستطيع إنكلترا أن تخوفه بالموت .

فانتخبوا سبعةً من طلاب الإسكندرية ، فلبسوا ملابس الرعاة ، وأخذوا معهم أغناماً ، ولبثوا أسبوعاً وهم يرعون حول منطقة المخازن ، ويتقرَّبون من

الحراس ، ويبيعونهم من اللبن ، حتى ألفوهم وأَلِفَتْهم الكلاب ، وهم يدرسون الموقف ، ويعيِّنون مواقع الألغام ، ثم وضعوا خطة التسلل إلى المخازن ، فجاؤوا في وسط ليلة شاتية ممطرة ، فغافلوا أحد الحرَّاس وقتلوه بضربة واحدة على رأسه ، وقصُّوا الأسلاك المكهربة بمقصَّات خشبيَّة ونزعوا من الألغام مايجعل لهم طريقاً يمرُّون منه ، حتى وصلوا إلى المخزن الرئيسي ، فوضعوا فيه ألغاماً زمنية ، وانسلُّوا ، فتفجَّرت المخازن ، وكانت نكبة على الإنكليز ، اعترف البلاغ الرسمي بأن الخسائر فيها قدِّرت بمليوني جنيه ، أي عشرين مليون ليرة ، وخمسة وعشرين جندياً ، ولم يصب أحد من المجاهدين بأذى .

ومن أكبر المعارك التي خاضها هؤلاء الشباب ، من المدرِّسين والطلاب ، معركة التلّ الكبير ، في أول يوم من سنة ١٩٥٢

وكان في بلدة التل قوَّة منهم ، علمت أن قطاراً إنكليزياً قادماً من الإسماعيلية محمَّلاً بالذخائر ، فوضعت الألغام فانفجر ، فجاء الإنكليز بالمهندسين تحميهم السيارات المصفحة لإصلاحه ، فتربَّص لها الإخوان وردُّوها بعد أن قتلوا عدداً من أفرادها ، فصمَّم الإنكليز على احتلال البلدة ، وأرسلوا قوى من مشاة الهاي لاندرز بقيادة البريكادير (الزعيم) ستيل ، ومعها كتيبة مظليَّة .

وكان المجاهدون يستطيعون الانسحاب ، ولكنهم آثروا الدفاع ، فنصبوا المتاريس في الشوارع ، وسلَّحوا القرويين ، وكان أمر القيادة ألَّا يدخلوا مع الإنكليز في معركة مكشوفة ، ولكنهم تجاهلوا الأمر .

ووصلت قوى الإنكليز ، وكانت معركة دامت ثماني ساعات ، واستعان الإنكليز بالدبابات الثقيلة ، وكان هجومٌ وصفته الصحف الإنكليزية بأنه أكبر عمليَّة حربية بعد الحرب الثانية ، وقتل من الفريقين عددٌ كبير ، وقتل القائد الإنكليزي ، واحتلُّوا البلدة ، ولكنَّ المجاهدين نظَّموا معارك متَّصلة من حرب العصابات ، تدمِّر مراكز الإنكليز ، وتصطاد رجالهم ، حتى اضطروا إلى اخلائها .

وهذا حادث أعجب .

كان في الرباح في منطقة القنطرة ، مجموعة من المجاهدين ، مهمَّتها ضرب السكة الحديدية ، وأنابيب المياه ، وأسلاك الهاتف ، باستمرار ومنع إصلاحها ، فسيَّر الإنكليز دوريَّات مصفحة من الدبابات الخفيفة لحمايتها ، فقرر المجاهدون ضرب هذه الدبابات .

وكُلِّف بذلك المدرِّس عبد الرحيم ، واثنا عشر من الشباب ، فخرجوا ليلاً مسلحين بالقنابل اليدوية والرشاشات ، ومشوا على الأقدام مسافة طويلة حتى وصلوا إلى بيت مهجور بجوار الطريق ، فاختبؤوا فيه ، وجعلوا يرتادون المنطقة ليلاً ويدرسونها ، ثم اختاروا بقعة فيها أنهار وسواق وأشجار عالية ، فنصبوا فيها كميناً ، وانتظروا طول الليل ، والليل بارد والدنيا في الشتاء ، فلما اقترب الفجر جاءت ثلاث دبابات تمشي على مَهَل ، وكانت الخطة لضربها ، خطة جنونية لايقدم عليها إلا من باع نفسه في سبيل الله ، هي أن يتربَّص أحد الشباب في الشجرة ، فإذا وصلت الدبابات وثب إليها ورمى القنبلة على برجها ، وأطلق رشاشه على من فيها ، وكانت الدبابات تمشي آمنة في هذا الليل الساكن ، قد اعتصم من فيها بالحديد ، ومادروا أن من الهمم مايخرق الحديد ، فماراعهم إلا الرصاص ينزل عليهم ، وتفجرَّت الدبابة الأولى من القنبلة ، وهوجمت الثانية وكانت على مسافة منها وسط المفاجأة بالقنابل اليدوية وزجاجات مولوتوف ، التي تشتعل عند ملامسة الهواء ، فأُخذتْ قبل أن تطلق طلقة واحدة ، أما الثالثة فقاومت وبعثت تستغيث باللاسلكي ، وبرغم أن النجدات وصلت من البلاح وبور سعيد ومعها طائرات الاستكشاف خلال خمس وعشرين دقيقة لكثرة القوى الإنكليزية المنتشرة في تلك المنطقة ، وتنظيم الحركات ، فإن المعركة انتهت قبل ذلك ، وقُضي على الثالثة قبل وصول النجدة ، ورجع الشباب سالمين بعد أن أخذوا معهم أسلحة المنهزمين .

وفتَّشوا المنطقة فلم يجدوا أحداً ، ووصف البلاغ الحربي الإنكليزي هذه الوقعة بأنها آية في النظام ، وأنها تدل على أن الذين قادوها من العسكريين الأجانب ، ورجَّحت أنهم من الألمان .

وبعدُ فلما جاء لويس التاسع ملك فرنسا يقود الحملة الصليبية الأخيرة ، هُزم جيشه وأسر وحُبس في دار ابن لقمان في المنصورة ، فلما فكَّر بالهجوم على مصر مرة ثانية ، قال له الشاعر :

قل للفرنسيس إذا ما جئته ... مقالةً من ناصح بر فصيح
دار ابن لقمان على حلها ... والقيد باق والطواشي صبيح

ونحن نقول للإنكليز :

لقد كان لكم سنة ١٩٥١ ثمانون ألف جندي في القناة ، وكانت لكم فيها قاعدة عسكرية ، وفعل بكم هذا كله أفراد من الشباب في خمسة أشهر ، منعوا فيها المؤن من دخول المعسكرات حتى وقعت المجاعة ، وأجبروا ٦٠٠ ألف عامل على ترك العمل ، ونسفوا السكك ، وقتلوا الضبَّاط والقوَّاد ، ودمَّروا الذخائر ، فكيف بكم الآن ، وليس لكم في القناة جندي ، ومصر كلُّها بجيشها وبنيها تنتظركم ؟

لقد جرَّبتمونا وجرَّبناكم ، فإن شئتم فتفضَّلوا .

إعلان حرب

نشرت سنة ١٩٤٧

كانت بُرهة ما بين الحربين ، امتحاناً لنا ، معشر العرب ، واختباراً لعزائمنا ، وقد خرجنا من هذه المحنة ناجحين مظفَّرين ، وأثبتنا أننا لم نُضِعْ إرثَ الجدود ، ولم نفقد عزَّة الإسلام ، وأنه لا يزال في عروقنا دم الأجداد ، ولا تزال في قلوبنا عزائمهم ، وأرَيْنا الدنيا كلها أن استماتة المحقِّ تغلب قوَّة المُبْطِل ، حين حاربنا ونحن شعوب عزْل جيوش الدول التي انتصرت في الحرب الأولى ، وسكرت بخمرة الظفر ، وحسبت أنها شاركت الله في ملكه ، وزاحمته على سلطانه ، فقابلتها شراذم منا ، مالها سلاح إلا سلاح الحق وماتنتزعه من أيدي عدوِّها ، وثبتت لها وأرهقتها عُسْراً من أمرها ، حتى لانَتْ لها ، أو نزلت على مطالبها : حاربنا الإنكليز في شوارع مصر ، وفي سهول العراق ، وفي ربوع فلسطين ، وحاربنا الفرنسيين في جِنان دمشق ، ورحاب حماة ، وشعاف الجبل ، وحاربنا فرنسا وإسبانيا معاً في سفوح الريف الأقصى ، وحاربنا الطليان في طرابلس ، وثُرْنا على الغاصب في كل بقعة من أرض العرب ، وماخلَّيناه ليلة من إزعاج ، ولا أرَحْناه ساعة واحدة ، ولكن كنا نحاربها شعوباً لا حكومات ، أما حكوماتنا فكانت علينا مع عدوها وعدوِّنا ، حتى استقر في أفهام الشعب أن حكومته خصم له ، وحتى صرنا في الشام إذا أثَرْنا ثورة أو سيَّرنا مظاهرة ، أعملنا سلاحنا في أخواننا من رجال الشرطة ، كما نعمله في خصومنا من الفرنسيين ، ومن كان ينصرهم علينا وقت الثورة من المغاربة والشراكسة والأرمن والسنغاليين ، وحتى كدنا نفقد على طول المدى ، توقير الأنظمة ، وتقديس القوانين ، لأنها من عمل الأجنبي وعمل عبيده ، لا يضعونها إلا لمصالحهم ، وضمان منافعهم إلى أن كان حادث مايو سنة ١٩٤٥ وجُنَّ الفرنسيون الجنة الكبرى ، فأبوا إلا أن يظهروا

ديمقراطيتهم ، وعدالتهم ، ومبادىء ثورتهم ، دفعة واحدة ، فضربوا المدينة الآمنة بقنابل الطيارات ، وقذائف المدافع ، من القِلاع المنصوبات على الجبال ، ورموا بالنار الأطفال في المدارس ، والمرضى في المشافي ، والمحبوسين في السجون ، وأحرقوا البيوت وهدُّوها على أهلها[1] ، وقتلوا رجال مصلحة الإطفاء الذين جاؤوا ليطفئوها ، وفعلوا كل مايليق بحضارتهم وتاريخهم وأمجادهم . . ولا ينتظر غيره منهم .

هنالك رأينا أول مرة ، رجال الشرطة والدرك يقاتلون معنا ويدافعون عنا ، ورأينا الرؤساء والوزراء في صفِّنا ، يحملون ما حملنا ، وينالهم ما نالنا ، فذكرنا ، وقد طالما نسينا ، أنهم إخواننا ، وأنهم منا .

ولبثنا من ذلك اليوم ، نرى الأدلَّة متتابعة متتالية ، على أننا قد استقللنا ، ونزح العدوُّ عنا ، وَجَلا عن أرضنا ، وصار حكَّامنا منا ، لا أقول إن الحكومات قد صلحت حتى ما نجد لها فساداً ولا نلقى منها ضرراً ، كلا ، ولا خلص رجالها من أوضار هذا الماضي ، ولا أزالوا آثاره ، ولا يمكن أن تزول في أربع سنين ، وقد لبث الغاصبون وأعوانهم ، يثبتونها ويبنونها ، دائبين على بنائها عاملين على تثبيتها ، خمساً وعشرين سنة ، ولكن أقول ، إننا (أخذنا) ننزع من نفوسنا تلك الصورة السوداء للحكومة ، ونغسل عنها صبغة العداوة التي كنَّا نراها مصبوغة بها ، ونعيد إلى أفهامنا توقير الأنظمة والقوانين ، لأنها (بدأت) تصير من صنع أيدينا ، و (شَرَعَ) واضعوها يفكرون في وضعها لمنفعتنا ، وضمان مصلحتنا ، لا لمنفعة الوزراء الحاكمين ، ولا لمصلحة الغرباء الغاصبين .

ثم تتالت الآيات والدلائل ، وكانت جامعة دول العرب ، وكانت المقاطعة القانونية للصهيونيين ، وكان اجتماع ملوك العرب ورؤسائهم ، وكانت رحلة النقراشي إلى أمريكا ، وقوله فيها ما أجمعت الكلمة على أنه لا يقول أكثر منه خطيب متحمِّس ، ولا مؤرِّخ حكيم ، ووجد فيه كل مصري ترجماناً عن أفكاره ،

---

(1) انظر خبر ذلك في كتابي (دمشق) .

ومعبِّراً عن مقاصده ، وكان موقف فارس الخوري من قضيَّة مصر ، موقفاً سرَّ كل عربي في الدنيا ، وكانت فتنة سورية الكبرى ، وكان رأي الحاكمين في الشام والمحكومين جميعاً ، ورأي الدول العربية كلها (إلا مملكة الأردن) واحداً فيها ، ثم كان هذا الحادث العظيم الذي عقدتُ له هذا المقال ، والذي سيعقد عليه في تاريخ العرب ، فَصْلٌ مُترَعٌ بالفضائل والأمجاد ، والذي سيكون مولد (الشرق الجديد) كما كانت هذه الحرب الماضية مصرع (الغرب العتيق) . والأيام دول ، والدهر ميزان ، فما ترجح كفَّةٌ إلا لتطيش ، وما يرتفع طائر إلا ليهبط ، ولقد أشرقت من الشرق شمس الحضارة ، من مصر وبابل والشام ، ثم مالت إلى الغرب ، إلى اليونان وروما ، ثم عادت تَطْلُع من الشرق مرة ثانية ، من المدينة ودمشق وبغداد والقاهرة ، ثم مالَتْ إلى باريس وبرلين ولندن ، وهذا يوم ثالث ، قد أوشكت أن تشرق شمسه على هذا الشرق ، فينفض عنه غبار المنام ، ويهب . لقد انقضى الليل ، وأذَّن المؤذِّن من ذرى لبنان . من اللجنة السياسية للدول العربية ، التي قرر فيها رجال مسؤولون ، لا أدباء متحمسون ، وأعلنوا بلسان حكوماتهم ، أنهم سيحلُّون عقدة فلسطين ومصر ، كما حلَّ الاسكندر عقدته المشهورة : بالسيف !

هذا هو الحادث العظيم ، وقد قرأ القرَّاء تفصيله في الصحف فما أعيده عليهم . وهذا أول الجد ، وهذا الذي كنا نتمنىً بعضه فلا نصل إليه ، ونطلبه فلا نجده ، وهذا الدليل على أننا استقللنا ، وعلى أن حكوماتنا منا وإلينا ، وأنها تنطق بألسنتنا ، وأن هواها هوانا ، وأنه لم يبق في رجالها من يصانع عدواً ، أو يخافه ، أو يتزلَّفُ إليه . وأنَّ جيوشنا لنا ، تسالم من سالمنا ، وتعادي من عادانا ، وتَذودُ عن بلادنا ، وكل بلد عربي بلد العرب كلهم ، وكل عدو له عدو لهم ، وكل قضية له قضية لهم .

* * * *

إننا نغفر لحكوماتنا ، بهذا الموقف ، كل ما لقينا منها في السنين الخوالي ، ونعدُّه إسلاماً منها بعد كفر ، والإسلام يُجبُّ ما قبله ، فلْيحسن إسلامها ، ولا

يكن كلمة تقال باللسان : إنها قد أعلنت الحرب في الخارج ، فلْتُعلنها في الداخل ، لتمنع المدد عن عدوِّها ، فما في الدنيا عاقلٌ يحارب عدواً ويدفع إليه ماله ليقويه به على نفسه ، وولده ليُربِّيه على كُرهِه ، ولنبْحث عن الثغور التي تذهب منها أموالنا إليهم فنسدَّها ، بالمقاطعة الاقتصادية ، لا بإلقاء المواعظ للترغيب فيها ، والخطب للحثِّ عليها ، لا ، فهذا كلام فارغ ، ولكن بالقوانين الصارمة ، والعقوبات الشديدة ، كما حرَّمت معاملة الصهيونيين بقانون ، وحدَّت لها الحدود الرادعة ، والعقوبات المانعة .

وبذلك ترتقي صناعتنا . وتجود أخلاقنا ، لأننا سنصنع ما نستطيع صنعه مما نفقده بالمقاطعة ، ونصبر عن باقيه ، وقد صبرنا مدة الحرب عن كثير من الضروري ، وتصبر انكلترا اليوم عن الخبز المُشْبع في سبيل وطنها ، ولا تقول شيئاً ، فهلاَّ في مثل هذا قلَّدناها ؟

على أن في بلادنا (أعني في بلاد العرب) كل ضروري ، ولا نفقد بهذه المقاطعة إلا قليلاً من وسائل الترف ، مما يضرّ ولا ينفع .

ولتضع الحكومات العربية القوانين الصريحة بإغلاق كل مدرسة أجنبيَّة ، انكليزية أو فرنسية أو أمريكية ، وإلا ذهب عملنا هَبَاء ، وكان عبثا ، وأخرجت هذه المدارس من أبنائنا أعداء لنا ، وأعواناً لعدونا ، كما وقع في الشام ، حين تولَّى ضرب دمشق رجل عربي أبوه شيخ ، اسمه علاء الدين الإمام ، عليه لعنة الله .

فإذا صنعت ذلك ، كان علينا أن نعلن الهدنة بيننا وبينها ، ونكفَّ في هذه الأيام عن معارضتها ، لنتعاون جميعاً على حرب عدونا وعدوِّها ، وكان على كل شاب في بلاد العرب كلها ، وكل شيخ ، وكل امرأة ، أن يعلم أنه جندي في هذه الجبهة ، وأنه يجب عليه أن يعمل فيها شيئاً : يمشي إلى القتال ، إذا جدَّ الجدّ ، وجاءت ساعة القتال ، وكان قوياً قادراً ، أو يبذل الفضل الزائد من ماله إذا كان من أصحاب المال ، أو يحارب بقلمه وبلسانه ، إذا كان من أصحاب الألسنة والأقلام ، وعلى كل واحد منا ، وعلى كل واحدة ، أن يحرم على نفسه كل شيء

أجنبي ، فلا يأكله إن كان مأكولاً ، ولا يشربه إن كان مشروباً ، ولا يمسَّه إن كان طيباً ، ولا يَلْبسه إن كان ثوباً ، ولا يقرؤه إن كان كلاماً ، ما لم يكن علماً خالصاً ، أو أدباً إنسانياً صرفاً ، ولا يتدواى به إن كان عقَّاراً[1] ، ما لم يكن مضطراً إليه ولا يجد مايسدّ مسدَّه ، ولا يرسل ابنه إلى مدرسة أجنبية ، ولا يَدَعَه يذهب في السياسة والاقتصاد مذهباً أجنبياً ، وأن نمحو أسماءهم من شوارعنا وميادينا ، ونَطْمس ذكرهم من مدارسنا وبرامجنا ، إلا ببيان حقائقهم ، وهَتْك السُتر الخادعة عنهم ، وأن نداوي نفوسنا من هذا السلِّ القاتل الذي هو احتقار نفوسنا ، وتعظيم الغربيين ، وأخذ كل ما يأتي منهم أخذ الضعيف ، وأن نوقن أننا أقوياء حقاً ، أقوياء بماضينا وأمجادنا ، وبما تركنا في الدنيا من أثر خيِّر نبيل ، وأقوياء بعَددنا وبعزائمنا ، وبأن الحق معنا ، وأن البلاد بلادنا ، وأن فلسطين لنا ، لن يغلبنا عليها ، (شحَّاد) صهيوني ، ولا مُحتال انكليزي ، ولا لصٌّ أميركي ، لا والله ولا الجن ولا العفاريت ، إننا والله سنمضي إليها على كل سيَّارة وكل قطار وكل دابَّة ، ونمشي على أقدامنا إن عزَّ الظَهْر ، ونملأ إليها كل طريق ، ونسلك إليها كل سبيل ، حتى نَتْرعها رجالاً ، إن أعوزهم السلاح ، فما يُعْوِزُهم النُبْل ولا الإقدام ، رجالاً لا يحبُّون الحياة الذليلة ، ولا يهابون الموت الشريف ، ولا يتزحزحون ولا يَريمون ، ما دام في صدورهم قلوبٌ تخفق ، وفي صدورهم نَفَسٌ يطلع وينزل .

فيا أيها الحاكمون ، يا من صرخوا من قمم لبنان هذه الصرخة المدوية ، اثبتوا وأعلنوا الحرب ، إذا لم تُعطَوا الحقَّ إلا بالحرب : حرب الكلام ، وحرب الحسام ، وحرب الاقتصاد ، فنحن وراءكم ، ونحن أمامكم ، ونحن معكم ، مانحن للجزيرة ، ولا نحن لهذا الماضي ، ولا نحن لمحمد ﷺ ، إن وقفنا أو ارتددْنا ، حتى نطهِّر فلسطين من كل رِجس صهيوني ، ونطهر من أنجاس الاستعمار كل بلاد العرب ، ونعيد الحضارة والعزَّة إلى الشرق ، على رغم أنف الظالمين !

---

(١) العَقار الدواء وجمعه عقاقير .

تحية البطلين

نشرت سنة ١٩٧٤

إلى البطلين العربيين اللذين علّما أهل الأرض ، أن في الوجود شيئاً أقوى من الحديد ، وأمضى من السيف ، وأحمى من النار ، وأنكى من القنبلة الذريّة ، هو الإيمان .

اللذين تخلّفا عن بدر والقادسية واليرموك ليطلعا في الغوطة ونابلس والريف ، فيكتبا بالدم على جبهة الثرى ، أن العزيز لا يذلُّ ، وسليل من حكموا الدنيا لا يحكمه في بلاده أجنبي ولا غاصب .

اللذين أثبتا أن العرب الذين سادوا في أول الدهر سَيَسودون في آخره .

إلى القائدين العبقريين[1]

* * * *

تقدير الأدب للبطولة ، وتحية القلم والحسام .

أمّا عبد الكريم فلم أره ، ولا أحبُّ أن أراه ؛ لتبقى له في نفسي هذه الصورة العلوية الخالدة ، لا تفسدها معالم اللحم والدم في الإنسان الذي يأكل كما يأكل الناس ويشرب ، ويرضى ويغضب ويجدُّ ويلعب ، وليكون اسمه أبداً في ذاكرتي مع أسماء العباقرة الخالدين ، القادة السادة الهداة ، خالد وعمر وقتيبة وابن القاسم وابن نافع وطارق ، الذين أفاضوا على الحرب الحقَّ والرفق فجعلوها مقدَّسة

---

(١) أما أحدهما فالرجل الكبير الصالح الثابت على الحق الأمير عبد الكريم الخطّابي ، وأما الآخر فنسأل الله حسن الخاتمة .

مشروعة ، وأثاروها لله لا للكسب وللخير لا للشر ، فاستولدوها الحياة والحضارة والسلام ، وماكانت تلِدُ إلا الموت والخراب والانتقام .

وأما الآخر فقد عرفته في بغداد ، قبل أن تعرف بغداد بطولته ويشهد العراق عبقريته ، فكنت أزوره في داره في الكرَّادة ، أنا وأنور العطار ويزرونا في مثوانا في الفندق ، وأضرب معه في آفاق الأحاديث ، وأراه مسترسلاً على سجيَّته ، منطلقاً مع طبيعته ، وأتحرَّى خلائقه ، وأتقرَّى سلائقه ، فأراه يعلو في نظري إن طالما نزلت الخلطة بالرجال ، ويكبر إن صغرتهم وأنا أشهد أني لم ألق في عمري من (الرجال) ، وقد قاربت الأربعين ، وقد سكنت الشام والعراق ومصر والحجاز إلَّا (رجالا) لا يشغل عدُّهم أصابع اليدين ، وأشهد أن أكملهم رجولة ،وأفتاهم فتوة ، وأظهرهم قوَّة ، في جسمه وعقله وقلبه وضميره : فوزي القاوقجي .

عظيمان جهلا نفسيهما ، فحسبا أنهما اثنان من الناس ، خلقا ليعيشا كما يعيش الناس ، ويموتا كما يموتون ، لا تحتفل بمولدهما الدنيا ولا تضطرب لموتهما الأرض ، ولا يحسُّ بهما التاريخ ، وتلفتا يفتشان عن مهنة يعيشان منها ، فوجدا في قلبهما الميل إلى الجنديَّة لأنها مهنة البذل والبطولة والنبل وخوارق العادات ، ولكنهما لم يجدا في أمَّتهما الجيش العربي ، فتطوَّعا لخدمة الجيش الأجنبي . . . وتحرَّكت العظمة الفطرية فيهما فكانا ضابطين نابغين ، ولكنها ظلَّت حبيسة في سجن الوظيفة ، مقيَّدة بقيد القانون ، حتى جاء اليوم المقدور ، فنقبت السجن ، وحطَّمت القيد ، وانطلقت تملأ الأرض ، وتُتْرِع الزمان .

أخوانِ ائتلفا ولم يتعارفا ، وتكلَّما وما كان بينهما كلام ، وتواعدا وبينهما بحر العرب[1] بعرضه ، على أن يلتقيا في مصر ، فجاآها بعد ما زرعا طريقيهما إليها مفاخر للعرب وأمجاداً ، وبعدما حارب هذا بشعب أعزل ، وقبائل بدويَّة ، دولتين عظيمتين : فرنسا واسبانيا حشدتا له مائتين وخمسين ألفا ، ونازلهما فأنزل بهما الهزائم وجرَّعهما شراب الموت ، وقارع ذلك دولتين عظيمتين : انكلترا وفرنسا

---

(١) هو بحر العرب لا البحر الأبيض المتوسط .

وفلَّ جيوشهما في الشام وفلسطين والعراق . وبعدما أثبتا للدنيا أن العربي لا يُستعبد ولايَهون .

لقد عاد فوزي إلى وطنه سورية على رغم فرنسا ، فلما لم يَرَ فيها مستشاراً في دائرة ، وكانت الدائرة هي المستشار ، ولا شاهد قلعة فرنسية على رابية ، ولا داراً فرنسية في شارع ، ولا لوحة فرنسية على مَتْجَر ، بكى فرحاً ، بكى (الرجل) الذي لم يبكِ وهو بين شقَّي الرَحى التي تديرها يد الموت ، واستقرَّ عبد الكريم في مصر على رغم فرنسا ، فلما رأى الملك العربي ، والجامعة العربية ، والشعب العربي بكى فرحاً ، بكى (الرجل) الذي لم تُبْكِهِ خمس وعشرون سنة ، في منفى سحيق ، وضعته فيه فرنسا التي أقسمت له بشرفها أنها لن تأسره . . . فلمَّا تمكنَّت منه كان وفاؤها له ، على مقدار شرفها . . .

لقد شهد الرجلان مئات المعارك ، وحملا مئات الجروح ، ولقيا مئات الشدائد ، وها هو ذا فوزي يفتِّش عن ميدان جديد للجهاد ، وعبد الكريم يستجم ليعود إلى النضال . . . وكذلك تكون الرجال .

لم يرض فوزي أن يكون كهؤلاء الذين جَنوا على الجهاد لما تسمَّوا كذبا بـ (المجاهدين) . . . وما جاهدوا ولكن قتلوا الثورة ، وفرَّقوا أهلها ، وسرقوا أموالها ، وعادوا اليوم يأكلون ويشربون ، وينعمون ويتمتَّعون باسم الجهاد الذي لم يكونوا من أهله ، فَعافَ المناصب والمراتب ، وعزف عن الأموال ، وآثر أن يبقى كما كان مجاهداً حقاً ، لا يلقي سلاحه ، ولا يغمد سيفه ، حتى لا يبقى في الوطن الأكبر شبر واحد يحتلُّه مستعمر ، وكذلك تكون الرجال .

هذان هما القائدان البطلان ، فتقدَّما يا أيها البطلان القائدان فهذا هو الجند مُعَداً ، وهذا هو الجيش لا ينقصه إلا القائد . . .

هذا الشعب كله جيشٌ مُعَد ، لا يملُّ الجهاد ، ولا يضنُّ بالضحايا ولايعرف الونى ، ولا يدركه الكلال ، فادعواه باسم الوطن ، باسم الأرض ، باسم العِرْض ، باسم الدين ، وانظرا كيف يلبِّي هذا الشعب الدعاء . . .

هذا الشعب لا أعني (كبَاره . . .) الذين فتنتهم المناصب ، ولا تجّاره الذين تعبَّدتهم المكَاسب ، ولا فُسَّاقه الذين عاشوا لتقليد الأجانب في البلايا والمصائب ، وكانوا في جسم أمَّتهم حيَّات وعقارب ، ولكن أعني الشباب . . .

إن الشباب هم أرباب المُثل العليا ، هم الأطهار ، هم بناة الوطن هم الذين إذا جدَّ الجدُّ سدُّوا آذانهم عن أصوات المفرِّقين الهدَّامين ، فلم يكن فيهم من حزبيين ، يتقاتلون ليخسر الوطن ويربح الزعماء ، ولكن عرباً مجاهدين ، كارهين للاستعمار والمستعمرين ، ثائرين على الظلم والظالمين . . .

أولئك الشباب الذين تعلمّوا منكما أيها البطلان كيف يتَّخذون قضية فلسطين والمغرب عقيدة ويجعلونها لهم دينا ، لا يرون لمن يقرُّ الاستعمار في بلاده وهو يقدر على دفعه إيماناً ، ولو صلَّى وصام وحجَّ وزكىَّ ، لأن العزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين .

ولأن من مات ولم يجاهد ولم تحدِّثه نفسه بجهاد مات ميتةً جاهلية . لقد أقسم هؤلاء الشباب ليبْذلن الدماء والمهج ، وقاموا للنضال ولكنهم افتقدوا القائد فقعدوا . فتقدما يا أيها البطلان ، يا بطل المشرق ويا بطل المغرب .

واعلما أنكما حاربتما عدواً قوياً ، بأمة كانت غافلة ، وقد ضعف اليوم العدو وتيقَّظ الغافلون ، فحاربا مرة ثانية وثالثة وتاسعة وعاشرة ، حاربا إذا لم تُعْطَيا الحق كاملاً فما في الدنيا شريف يزدري الحرب في سبيل الحقِّ والحرية والشرف ، وقد حارب الفرنسيون لما وطئت بلادهم ، وإن كانوا في الحرب نعاماً تُحسن الفرَّ لا أسوداً تجيد الكرَّ ، وحارب الانكليز ، وحارب الأمريكيون ، وحاربت قبائل البوير ، وحارب أهل الحبشة ، وحارب هنود أميركا يوم دخلوها عليهم . . . وحاربت كل أمةٍ على ظهر الأرض . وكانت هذه الحرب المقدَّسة خلقاً في طبع كل أبي شريف ، لا يكون من يفقده أبيّاً ولا شريفاً ، لا يكون إلا كلباً ، بل إن الكلب يحارب دون وجاره ، وكل حيوان حي يدافع عن ذماره ، حتى الخنزير البري . . . فَهل يريد أنصار المفاوضات والمحادثات أن نكون أقلَّ من الخنازير ؟

كلا ، وأنف الكاره في الرغام . كلا . ولكن ، أكرم من كل كريم ، وأعزُّ

من كل عزيز ، وأسمى من كل بشر أظلّته السماء وحملته الغبراء . وإلا فما نحن لأولئك الأجداد ، ولا نحن لرمال الجزيرة ، ولا نحن لمن حملوا نشيد (الله أكبر) ومشوا حتى صكُّوا به سمع الزمان ، وراعوا به جنّ الفلا ، وملأوا به كل سهل وجبل حتى دانت لهم الأرض ومن عليها ، ولا نحن لمحمد ﷺ .

كلا ، نحن سلائل الفاتحين ، في عروقنا دماؤهم ، وفي صدورنا قلوبهم ، ولنا عزَّتهم ، ولئن فقدنا السلاح فما فقدنا العقل الذي يصنعه ، ولا اليد التي تَشْحَذُه[1] ، على أنه إذا أعوزنا السلاح أخذناه من يدِ عدوِّنا وجالدناهم به . وكذلك فعلنا .

لن نهاب بعد اليوم غربياً ، ولن نثق به أبداً .

لقد مات العهد الذي كنا نخاف فيه أن يغضب صعلوك من المتسبين إلى فرنسا فتغضب الامتيازات .

لقد قضى العهد الذي كنا نرى فيه فرنسا وأخوانهم أمم الحرية والديمقراطية والمدنية وحقوق الإنسان .

لقد أبدت الحقائق وجوهها التي كانت مُبَرْقَعَة ، ورآها الناس كلهم إلا هؤلاء العميان ، الذين طمست أبصارهم وبصائرهم المدارس الفرنسية في الصغر ، والمواخير الفرنسية في الكبر ، وهم بحمد الله أقلّ من القليل .

لقد رأى الناس فرنسا على حقيقتها ، أمة همجيَّة تمنع الخبز عن الجائعين ليموتوا جوعاً ، وانكلترا تنصر الصهيونيين على الفلسطينيين ، والهولنديين على الجاويين ، وأمريكا تقول لصاحب البيت ، اخرج ليدخل اللص ويأخذ دارك ، ولكن خسأ اللص وخسأ من ينصره .

إن دون الحمى آساداً .

أنتم أيها الأميركيون لا تدركون ما هي قوانا ؛ لأنكم لا تعرفون إلاَّ المادة ،

---

(١) تشحذه أي تسنّه وتحدّه لاتشحده!

إنكم لم تسمعوا بأخبار الفتوح الأولى في الشام والعراق ومصر والأندلس ، ولا بأخبار الفتوح الآخرة في الغوطة والرميثة وجبل النار وريف المغرب ، فاسألوا عنها فارس والروم واسبانيا وفرنسا وانكلتر . . .

إنكم تحسبون قضية فلسطين كقضية سرقة في شيكاغو ، تدخلون بالرشاشات فتنهبون المخزن . . .

كلا ، والحيِّ القيوم ، لن تكون لليهود دولة في فلسطين[1] ولن يكون للفرنسيين اتحاد مع المغرب ، حتى لا يبقى في هذه البلاد كلها حي يمشي . لن يأخذوها حتى يروا ويرى من يعينهم يوماً يذْهَلُ له كتّاب التاريخ ، ويصيبهم من هوله الجنون ، يوماً لا ترون فيه تاجراً في دكانه ، ولا موظفاً في ديوانه ، ولا تلميذاً أو مدرساً في مدرسته ، ولا قاضياً في محكمته ، ولا أمرأة في دارها . وإنما ترونهم يسيرون إليكم جميعاً يقاتلونكم ، إن عجزوا عن السلاح بأيديهم ، وصدورهم ، ويستنزلون غضب الله عليكم ، فأبيدوهم يومئذ بقنابلكم الذريَّة ، إذا مُحيت الإنسانية من الأرض ، واستبيح قتل الشعوب ، وإذن فستنبت الأرض التي تسقيها دماؤهم أمة جديدة تقاتلكم دون أرضها وحماها .

ويْلكم إن الله في الوجود ، ما استقال ولا أحيل على المعاش ، وإننا مع الله نستعينه عليكم ، والله أكبر منكم هذا نشيدنا الذي يهوِّن علينا كل خطر ، ويصغِّر كل عدو مهما تكبَّر : الله أكبر .

لقد علَّمنا ديننا أن نستوهب الحياة بطلب الموت ، وحبَّب إلينا نبيّنا الشهادة . نلحقها إذا هربت منا ، ونفتِّش عنها إذا ضلَّت عنا . فبماذا تخيفون أمة تريد الموت ؟

نحن نريد الموت ونسعى إليه ، قد أعددنا الجيش للجهاد ، وهيأنا القوى للجلاد ، فتقدَّما يا أيها البطلان القائدان ، تقدما فاقتحما النار ، وخوضا البحار ،

---

(١) وإن هي كانت فلن تبقى .

فإننا معكما لن نرجع ، ولن نلقي السلاح ، ولن ندع الجهاد ، حتى لا يبقى في دنيا الإسلام ، وأرض العرب ، علم لأجنبي ، أو حكم لمستعمر ، والله معنا . والله أكبر !

القول للسيف ليس القول للقلم

نشرت بعد قرار التقسيم سنة ١٩٤٧

لو كان للكلام الآن مكان لقلنا فبذَذْنا القائلين ، ولبعثناها في الأرض مقالات تشتعل حروفها ناراً ، وتتفجَّر كلماتها قنابل ، ويكون منها براكين تنفث الحمم ، ونحن (العربَ) أقرَّت لنا الدنيا بأنَّا أصحاب البيان ، وفرسان المنابر ، وأنا أرباب الفعال ، وأبطال الميدان ، ولكن عهد الكلام قد انقضى ، وستسمع الدنيا غداً عنا ، كما سمعت منا ، أحاديث تشيب ناصية الدهر ، وتحرق فؤاد الصخر ، وتحيِّر من هولها ذوي الأحلام ، وسترى الدنيا أن الذي نهدِّد به من القوة التي خبأها الدهر في أعصابنا ، والتي صنعها لنا ميراث آباء صدق ، في عشرة آلاف معركة مظفَّرة خاضوها ، ومائة ألف قلعة منيعة اقتحموها ، وألفِ ألفِ روح طاهرة ، في سبيل الله والحق أزهقوها ، حقائق ، ليست خطابيات تسود بها الصحف ، ويتسلى بها القراء .

ولئن أخذت الأيام السلاح والمال منا ، فوضعتهما في أيدي عدوِّنا فما أخذت منا إيماننا ولامضاءنا ، ولاسلَبْتنا عزَّتنا ولانُبْلَنا ، ولابدَّلت جوهرنا ، ولاجعلت عدونا مثلنا ؛ لأن الجبان الشاكي السلاح ، لايغدو بالسلاح بطلا ، والبغل المحلّى سرجه بالدرِّ لايصير بالدر جواداً . . . والأمم الواغلة على المدنية ، العابثة بالمبادىء الإنسانية ، المتَّخذة العلم ذريعة إلى التدمير ، والفنّ وسيلة إلى الفساد ، ليست مثل الأمة التي حملت وحدها أمانة المدنية دهراً طويلاً ، فما عرفت يد آمن عليها ، وأنفع لها ، من يدها : أخذت المنجل فنقَّت روضة الحضارة من الأشواك ، ثم مهدتها وحرثتها وشقَّت لها الجداول ، وأقامت لها السدود ، وسقتها الماء عذباً نقياً ، حتى إذا بسقت أدواحها ، وامتدَّت ظلالها ، وملأ الجِواء رَيًّا زهرها ،

وانتشى الناس بخمرة عطرها ، وارتووا بعصير ثمرها ، وعاشوا بوافر خيرها ، سلّمناها إلى هؤلاء . . . المتمدينين . . . ليحفظوها للأجيال الآتية ، فلم يكن منهم إلا أن رموا عليها قنبلة ذرية . . .

وماذا تصنع القنبلة الذرية ؟ إنها تميت ولكنها لاتحيي ، فهل عندهم قنبلة أخرى تحيي هذه الحكومة اليهودية التي ماتت من ألفين وخمسمائة سنة ، وتعيد إليها الروح ، وإذا هم استطاعوا اليوم إقامتها وتسنيدها بالأخشاب حتى تبدو كأنها حيّة ، ولن يستطيعوا ، فهل يبقون معها دائماً يحمونها أن يبتلعها هذا اللجُّ العربي الذي يحيط بها ، أو تهدمها موجة عاتية من موجاته ، فتأتي عليها من القواعد ؟ . . أفلم يفكروا في هذا ؟

أنا أسمع من زمان أن السياسة لاأخلاق لها ، ولكني لم أعلم قبل اليوم أنها لاعقل فيها . . . ولاحياء !

أفلا يستحي هؤلاء (المحترمون) أعضاء هيئة الأمم المتحدة ، أن ينكروا بالأمس على هتلر أنه سلب حقوق اليهود فأعطاها الألمان ، وأنه أراد العلوَّ في الأرض بغير الحق ، وأن يثوِّروا عليه الدنيا ، دفاعاً عن الحق وعن الديمقراطية ، ثم يجيئوا اليوم فيفعلوا مالم يفعله هتلر ، ولا موسوليني . وماأدافع عن الملعون موسوليني ، ولكن أقول إنه كان كالذئب يقتل الخروف ليأكله ويتغذّى به ، لذلك عَدَا (لارحمه الله) على طرابلس ، أما هؤلاء فيعتدون ليغذُّوا غيرهم ، ويبيعون دينهم بدنيا سواهم !

أولا يعقلون أيضاً ؟! ولايخطر على بالهم أنه ربما نشأ هتلر آخر ، يكون اسمه ستالين مثلاً ، وربما احتاجوا أن يثيروا الناس عليه مرة ثانية باسم الحق والإنسانية وميثاق الأطلنطي . . فهل يجدون في الأرض مغفَّلاً واحداً يصدِّقهم ، بعد الذي رأى منهم ؟

أولا يعتبرون بما انتهى إليه هتلر ، ومن قبل هتلر نابليون ، ومن قبلهما كسرى وقيصر ، وكل طاغية جبَّار ؟ فهل دامت الدنيا على أحد حتى تدوم لهم ؟ أهم أشد

سلطاناً في الأرض من الاسكندر ، وتيمورلنك ؟ لقد كان الاسكندر ، وكان تيمور بطلين ليس أمامهما كفؤٌ لهما ، وهؤلاء مهما قويت كل دولة منهم ، فإن لهم أكفاءُهمْ أعداء في ثياب أصدقاء ، وسيضرب الله بعضهم ببعض ، ويريح الإنسانية منهم ومن حضارتهم ، ولايبقي منهم إلا أخباراً يقرؤها غداً تلاميذ المدارس ، فيعجبون من أصحابها ويلعنونهم عليها . وهذا أمر محقَّق وإن كان يبدو الآن كالخيال .

أولا يفكِّرون أنه لو اتخذ مثل هذا القرار ملكٌ عات من ملوك الحكم المطلق ، أو أمير ظالم من أمراء القرون الوسطى في أوربَّة ، لفضحه كتَّاب التاريخ ، وقالوا ، لص يأخذ مال زيد ليعطيه لعمرو ، وقالوا ، مجنون يجود بمالايملك ، ولملأوا صحائفهم غيرة على الإنسانية وحقوق الإنسان . فلماذا يخرسون الآن فلاينطقون ؟ لماذا لانسمع من أوربة وأميركة ، أصوات من يدَّعون أنهم أنصار الحق وأن أقلامهم للإنسانية ليست لفرد ولالشعب ؟

لقد غضب أميل زولا لدريفوس ، فقالوا إنه رجل الحقِّ والإنسانية ، وصدَّقنا ماقالوا ، فلمِ لانلقى اليوم في الغرب كله زولاً واحداً ، يغضب لأمَّة بقضِّها وقضيضها ، تُزاح عن مكانها وتطرد من أرضها ، ليحلَّ اللص الواغل عليها في محلها ، وتشترك في هذه المؤامرة الدنسة أمم الغرب كلها ؟

لماذا يخرسون الآن ؟ ألأنَّ الظلم صار ظلماً منظَّماً ؟ ألأن قطَّاع الطرق تركوا الجبال والمغاور وجلسوا في (ليك سكس) ألأن محكمة التفتيش صار اسمها (هيئة الأمم المتحدة) ؟ ألأنَّ الجزَّارين أميركا وروسيا وفرنسا ، والشاة فلسطين ؟

خسأتم ياحلفاء الشيطان . . والله مافلسطين بالشاة ولكنها القنفذ ، على ظهرها الشوك ، إنها السكين المشحوذة ذات الأربع شُعَب ، إنها زجاجة السمِّ الناقع ، فَلْيتقدَّم لابتلاعها من شاء أن ينتحر .

* * * *

لا ، مانريد أن نتكلم . ولو أردنا الكلام ، لدمغنا جباه هذه الأمم التي أقرَّت

التقسيم بخمسمئة مليون لعنة ، تلقى التاريخ بها غداً ، وتلقى الله بعد غد ، وهي مخزاة لها ، وعرَّة في جباهها ولكنا نريد العمل .

ونحن نعترف أننا لانملك مثل أموال اليهود ، ولا مثل أسلحة الأميركيين ، ولكنا نملك ثمانين مليون روح ، من ورائها أربعمئة وعشرون مليون روح ، نريد أن نزهقها كلها ، أو ندفع عنا هذا الضيم الذي تريدنا عليه أميركا وروسيا ، فهل عندكم من القنابل الذرية مايكفي لقتل خمسمئة مليون ؟

أما نحن فإن عندنا من القوة ماندمِّر به كلَّ شيء لكم في بلادنا . بضائعكم ومصالحكم ومدارسكم (وسمعتكم) فلاتستطيعون أن تأخذوا بعد اليوم بترولنا لتحرقونا به ، ولا أموالنا لتحاربونا بها ، ولا أولادنا لتجعلوها أعداء لنا ، ولا تجدون فينا بعد اليوم من يسبح بحمدكم ، ونحن نصْلَى بناركم .

لقد خُدعْنا بفرنسا أولاً ، حتى فَزِعَ إليها الزعيم مصطفى كامل ، وحسب أنها أمَّة الحريَّة حقاً ، وأمة حقوق الإنسان .

وخُدعنا بإنكلترا ثانياً حتى ترك الملك حسين إخوانه في الإسلام وحلفاءه في المعركة ، وانحاز إلى العدو ، وفعل فعلته التي فعل .

وخُدعنا بأميركا ثالثاً ومبادىء ولسن ، وميثاق الإطلنطي .

وخُدعنا بروسيا رابعاً ، والمبادىء الشيوعية المثالية التي تجعل الأرض جنَّة للفقراء . . فذقنا وبال ذلك كله علقماً مراً ، ثمالة كأسه تقسيم فلسطين ، فلن نخدع بهم بعدُ أبداً ، كفرنا بهم كفراً صريحاً لاتأويل له ، ولاشبهة فيه ، ولارجوع عنه . كفرنا بكل شيء غربي ، إلا الأدب الإنساني والعلم التجريبي ، فما فيها شرقي ولاغربي . كفرنا بموسكو وواشنطون ، ولندن وباريس . حين رأينا أنه لم يكن معنا من الأمم يوم التقسيم إلا أمم الإسلام ، وأمم كاليونان والهند حكمها المسلمون ورأت جمال الإسلام ، أفليست هذه حرباً صليبية دينية ؟ أليس أولئك هم المتعصِّبين حقاً ، ونحن المساكين نُتَّهم بالتعصب ، لأننا (من حماقتنا) نقول إننا متعصِّبون ولانتعصَّب . وهم يتعصبون ولكن لا يقولون .

أنا لاأقول في هؤلاء المؤتمرين بالحق والعدل شيئاً ، ولو أننا قلنا فيهم أقبح المقال ، لما جُزْنا عن القصد ، ولما حُدْنا عن الصدق ، ولا نقول إن العرب لايقرُّ لهم قرار ، حتى يمحوا بدمائهم هذا (القرار) ، ويطهِّروا ديار الشام من أقذار الصهيونية ، وينظِّفوا منازل العربية من أوضار الاستعمار الظاهر منه والمستتر . لا ، ولاأقول : سنفعل ، ولكن سأقول : فعلنا . ولقد جاءت الأخبار بأن العرب شرعوا بالعمل ، وهذي طلائعه بَدَتْ من دمشق ، ودمشق قلب العربية ، من القلب ينبثق دم الحياة إلى الرأس والجوارح والأعضاء . . .

هذي طلائعه وأوائله ، وأول الغيث قطْرٌ ثم ينهمر .

ولست أفخر بأن دمشق ثارت ، فما هي بأولى ثوراتها على الظلم ، ولابأنها سبقت عواصم العرب كلها ، فدمشق أبداً السبَّاقة إلى كل مافيه إعزاز العربية والدفاع عنها ، ولكن أفخر بخمسة أمثلة ضرَبتْها دمشق أول أمس ، فيها للعرب هدى ونور !

أولها : أن دمشق أدركت أن دعوى المساواة في الشيوعية كاذبة ، كدعوى العدالة في الديمقراطية ، وأنهم كلهم أعداء لنا يأتمرون بنا ، ولصوص يتَّفقون علينا ، وذئاب تجتمع على نهش لحومنا ، وشرب دمائنا ، فدمَّرت دار الحزب الشيوعي بعد مارأت فيها يوماً كيوم آذار (مارس) ١٩٤٥ .

ففي مارس كانت النار تطلق على أطفالنا ونسائنا من نوافذ دار البعثة الفرنسية في (الشهداء) ، بأيدي الفرنسيين وأذنابهم حمير الاستعمار ، وأمس كانت تطلق النار على شبانا وأطفالنا من نوافذ دار الحزب الشيوعي في (الشهداء) ، بأيدي حمير الاستعمار ، أذناب موسكو .

وثانيها : وهذه خلَّة في دمشق لاتوجد في غيرها ، أن الأحزاب كلها اجتمعت أمس على اختلافها ، وتقاربت على تباعدها ، فلم تبق في دمشق حزبية ، لأن الحزبية في مثل هذا اليوم تعدُّ في الشام خيانة وطنية .

وثالثها : أن الحكومة كانت مع الشعب ، وأن رئيس الجمهورية خطب في

الشباب والطلاب يدعوهم إلى الجهاد ، ولاعجب فقد كان شكري بك القوتلي الوطني المجاهد مقارع الاستعمار ، قبل أن يصير فخامة السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية .

وأنه خطب مثل ذلك رئيس الوزارة السيد جميل مردم ، ووزير الداخلية السيد محسن البرازي ، ووزير المعارف الصديق السيد منير العجلاني ، وأن ثلث نواب المجلس تطوَّعوا مع المطَّوِعين لنصرة فلسطين . وأنها لم تسُقْ كتائب الشرطة وفرق الجنود ، لضرب وجوه المتظاهرين ، وسدِّ الطرق عليهم ، وكل ماصنعته الحكومة أن حاولت منع الناس من الأذى ، فلما رأت أن الحماسة طاغية ، وأن المنع لايكون إلا بإيذاء الناس ، لم تستطع أن تحتمل مقالة التاريخ عنها ، « إن حكومة فلان وفلان ، ذبحت شباب البلد لأنهم خرجوا يدافعون عن فلسطين » ومافي الشام رجل واحد يرضى أن يكون رئيس وزارة ، وأن تنسب إليه هذه المعرَّة !

وكان أجمل من ذلك كله . أن قررت الحكومة حلَّ الحزب الشيوعي ، وغسل هذه البقعة النجسة في وجه دمشق وطرد الموظفين الشيوعيين ، وكانت حسنة من حسنات (المحسن) .

ورابعها : أن دمشق أغلقت ملاهيها وسينماتها إلى أجل غير مسمى ، لأن الأمة التي تجدُّ حقاً في جهاد هو لها مسألة حياة أو موت ، لاتفكر في تسلية ولالهو ، وإن هي فعلت كانت أمة لاعبة كاذبة .

وخامسها : أنها جمعت البضائع الصهيونية ، والأفلام الأميركية ، وأحرقتها في الشوارع ؛ لأنها عرفت أننا إن شتمناهم ونحن نروِّج بضائعهم ونشتري أفلامهم ، نكون قد أيَّدناهم وقوَّيناهم ، وأضحكناهم على أنفسنا .

وبعد فلن يصل عدد (الرسالة) إلى أيدي القراء ، حتى يكون هذا الجديد الذي أحدِّث به عن دمشق قد صار قديماً ، وحتى نسمع عن القاهرة ودمشق وحلب وبغداد والموصل ومكة وعمان والمغرب أدناه وأقصاه وأقطار الباكستان

وأندونيسية أخباراً أجلَّ وأعظم ، ثم نسمع من فلسطين الخبر الذي يأكل الأخبار . خبر الانتصار ، وتحرير الديار .

ولن تدوم للصهيونيين دولة في فلسطين ، مادام المسلمون في الأرض والله في السماء .

* * * *

حوادث دمشق

نشرت سنة ١٩٣٦

أحلف لو أنَّ ما جرى في دمشق ، في هذه الأيام ، جرى في فرنسا ، أو ألمانيا ، أو انكلترا أو في أي بلد من بلاد الله العامرة ، لكتب فيه عشرات من الكتب والروايات ، ومئات من القصائد والمقالات ، ولخلِّدت حوادثه تخليدا ، وصوِّرت مشاهده تصويرا ، وصارت حديثاً يسري في الأجيال الآتية ، فينفخ فيها روح البطولة والتضحية ، ويبثّ فيها حقيقة العزة القومية ، ويفهمها معنى الكرامة الوطنية ، وبمثل هذا تتربىً الشعوب وتقوى ، وتسمو هذا السمو الذي نراه في شعوب أوروبا الراقية ، ونعجب به ونعدّه شيئاً بعيد المنال ، وبمثل هذا يخدم الأدباء قضية بلادهم ، ويساهمون في العمل على رفعة أوطانهم ، ويثبتون للناس أنهم أحياء لا أموات ، وأنهم أوفياء لأمتهم ، وأن فيهم شعوراً بالغضب والفخر والتقدير والسرور والألم ، وأن لهم عيوناً تبصر ، وآذاناً تسمع وقلوباً تحسّ . . .

ولكن هذه الحوادث قد جرت في دمشق . وأدباء دمشق بين موظف يظنُّ أن حياته معلَّقة بهذا الراتب ، وأن عليه أن يثبت دائماً أنه بعيد عن الروح الوطنية ، غريب عن كل مشروع وطني ، مُوَال للحكومة ، مقيم على ولائها ، يحافظ على رضاها . ومثل هذا الرجل لا يؤمل منه خير . وبين شاعر يحسب أن الشعر مقصور على الأزهار والأطيار ، والحب والغرام ، وأنه ليس من الشعر ولا الأدب ، أن يصف الشاعر مآسي الوطن وآلامه ، ولا أن يشدو بمفاخره ، ومثل هذا الرجل مخطيء يجب أن ينبَّه إلى خطئه ، ويُدعي باسم الواجب الوطني إلى تسخير قوَّته الأدبية لخدمة الوطن ، أو يكون حاله كحال قائد يقود فرقة من الجيش ، يأخذ فرقته وينسحب بها من جبهة الحرب ، وميدان المعركة ، ليسمع محاضرة عن الفن والجمال .

وبين أديب له اسم كبير وشهرة واسعة ، ولكنك إذا حقَّقت وجدت هذه الشهرة تزويراً ، وهذا الاسم اختلاساً ، ولم تجد له من الآثار الأدبية ما يستحق أن يدعى به أديباً أو شبه أديب . ومثل هذا الرجل عاجز ضعيف ، ليس بشيء ولا ينتظر منه شيء .

فمن أي صنف من هذه الأصناف نطلب من الأدب القومي ؟ وكيف نرجو الفلاح لأمة أدباؤها أموات ، أو جبناء ، أو ضالُّون ، أو عاجزون ؟ أو ليس من العار على دمشق أن تجري فيها هذه الحوادث التي عجب منها الشرق والغرب ، وعدُّوها آية من آيات البطولة والتضحية ، ثم لا يسجل الأدباء منها شيئاً ؟ . .

ألم يحرك هؤلاء الأدباء ، أن دمشق تلبث خمسين يوما مضربة لا تجد فيها حانوتاً واحداً ، مقفرة أسواقها كأنها موسكو حين دخلها نابليون ، فتعطلَّت تجارة التاجر ، وصناعة الصانع ، وعاش هذا الشعب الفقير على الخبز ، وطوى ليله من لم يجد الخبز ، ثم لم يرتفع صوت واحد بالشكوى ، ولم يفكر رجل أو امرأة أو طفل بالتذمُّر والضجر ، بل كانوا جميعاً من العالم إلى الجاهل ، ومن الكبير إلى الصغير ، ومن الرجل إلى المرأة ، ومن الشيوخ إلى الأطفال ، راضين مبتهجين ، ويمشون ورؤوسهم مرفوعة ، وجباههم عالية اعتزازاً وفخراً . . . ولم يسمع أن دكاناً من هذه الدكاكين قد مُسَّت أو تعدَّى عليها أحد ، ولم يسمع أن لصاً قد مدَّ يده إلى مال ، برغم أن أغنى الأسواق وأعظمها في دمشق قد بقيت أياما وليالي مطفأة الأنوار ، ليس عليها حارس ولا خفير ، فهل قرأ أحد أو علم أحد أن بلداً في أوروبا أو أمريكا أو المريخ . يسير فيه اللصوص جياعاً ولا يمدُّون أيديهم إلى المال المعروض ، حرمة للواجب الوطني ، وقد بقي الأولاد في المعسكر العام (في الأموي) أياما طويلة يراقبون حالة البلد ، وينظرون من يفتح محلَّه ، فإذا فتح أغلقوه ، وقد اتفق أن بائع حلويات مشهور قد فتح محله فجاء بعض الأولاد بصدور البقلاوة والكنافة . . . من مخزنه إلى المسجد ، وتشاوروا ماذا يفعلون بها فقال أحدهم : نأكلها عقاباً له ، فصاحوا به : اخرس . إننا لسنا بلصوص ، ثم أرجعوها إليه بعد دقائق وما فيهم إلَّا جائع . . .

أفلم يحرككم هذا يا أيها الأدباء ؟ وهل قرأتم أن صبيان باريز وبرلين ولندن فعلوا مثله ؟ . . . وقد عمدت القوى آخر أيام الإضراب إلى فتح المخازن بالقوَّة ، فكان أصحابها يَدَعُونها مفتوحة ، ولا يقتربون منها ، حتى تكون القوى هي التي تغلقها من تلقاء نفسها ، أفليست هذه تضحية ؟

وقد حدَّثني بعضهم أنه اشترى ثلاثين قفلاً كلما كسروا قفلاً جاء فوضع مكانه آخر ، ولقد حدثني من أثق به أن محلات العُهْر والفواحش قد أضرب صاحباتها مع من أضرب ، أفرأيت أمَّة كل من فيها وطني حتى المومسات . . .

والتبرعات ؟ ألم يكن الناس يدفعونها من غير أن يطلبها منهم أحد ، ألم يكونوا يتسابقون إلى دفعها ، ألم يرفض كثيرون من الناس أن يأخذوا إعانة ويقولوا : أعطوها لغيرنا ممن هو أحوج إليها ، نحن نجد طعاماً هذا اليوم ؟

لقد وقع هذا ورأيته مرَّات ، وسمعت به ، فأي وطنية أعظم من هذه الوطنية ؟ وأي اتحاد أوثق من هذا الاتحاد ، الذي تصبح فيه المدينة كلها أسرة واحدة ؟

والبطولة والجهاد ؟ ألم يفعل الناس الأفاعيل ؟ ألم يهجموا على النار والحديد ؟ ويقاومون بالحجارة أروع وأبشع ما وصلت إليه الحضارة من ضروب التقتيل والتدمير والإهلاك ، ألم يدوسوا على جثة القتيل ثم يمشوا قدما إلى الأمام ؟ ألم يضعوا ارواحهم في أكفهم ؟ ويبيعوها في سبيل الله ، ومن أجل حياة الوطن ؟

وأطفال دمشق ؟ من رأى كالأطفال ؟ من فعل فعل الأطفال ؟ من ذا الذي لم يسمع بأعمال الأطفال ، ويرى مظاهرات الأطفال ، وحروب الأطفال [١] ؟ .

لقد رأينا طفلاً يسيل الدم من رأسه ، وقد وضع يسراه على رأسه يمنع بها الدم ، وأخذ الحجر بيمينه يضرب به وعمره أقل من عشر . . .

لقد حدَّثني أحد الأصدقاء أنه كان مارًّاً في سوق مدحت باشا ، فسأل الأطفال

---

(١) انظر مقالة (أطفال دمشق) في كتابي (دمشق) .

وكانوا مرابطين فيه : هل تسمحون لي يا أولادي أن أمر ؟ قالوا إذا كنت تستطيع أن تمشي بين العسكر مرفوع الرأس ، وتحملق فيهم فمر وإلا فَعُدْ . . .

وغير ذلك . . . وغير ذلك . . . ولكن ذلك كله لم يحرِّك « أدباء دمشق » .

فيا أيها الأدباء لقد قام الناس كلهم بالواجب عليهم ما عدا الأدباء والموظفين ، في حين أن المفروض في الأديب ، أنه أرقّ الناس شعوراً ، وأشدهم إحساساً فهل أنتم بِدْع في أدباء العالم ؟ أم أنتم ترتضون هذه المنزلة لأنفسكم ؟

إن الموظفين ميؤوس منهم اليوم ، وإننا نحتاج إلى زمن طويل حتى يفهم الناس أن الموظف خادم لهذه الأمة [1] ، أجير عندها يأخذ راتبه من مالها ليخدمها ويقوم بحقها ، ولا يزال في الموظفين من يظنُّ أنه يأخذ الراتب ليسحب على الأمة مسدسين يضرب بهما في وجوهها (كما فعل أحدهم يوم ٢٠ كانون) ، وفيهم من يحسب أنه يأخذ الراتب (ليخوزق) . . . أطفال الأمة ورجالها (كما فعل بعض رجال الشرطة في هذه الأيام حين استعملوا الخازوق) !!!

وفيهم من يرى الوظيفة سبباً لملء جيوبه ، وإشباع شهواته ، وإطاعة هواه ، وعلى المصلحة لعنة الله !

إن الموظفين ـ ما عدا طائفة منهم ـ لا يزالون بعيدين عن الاندماج في صفوف الأمة . . . ولكن أنتم . . . أيها الأدباء ؟ ما بالكم تهربون من المعركة ، وتتبرؤون من هذه الأمة المسكينة ، وتغمضون عيونكم عنها وتسدُّون آذانكم دونها .

وإذا كنتم لا تصفون أيام الجهاد ، أفلا تصفون أيام الظفر ، أيام العيد ، يوم جاء مئتان وخمسون ألفاً يقدِّمون الطاعة لزعماء الأمة ، ويبايعونهم على الموت . . . يوم برهن هذا الشعب على أنه قد بدأ حياة العمل المنظم ، بموكب الشباب الذي سار فيه تسعة آلاف وخمسمئة وستة وثلاثون شاباً بالضبط ، في صفوف منظمة ، بخطى موزونة ، يقودهم قائد واحد نحو غاية واحدة .

---

(١) لمّا كتبت هذا كنت موظفاً في وزارة المعارف .

يوم جاءت الوفود من كل بلد وقرية ودسكرة ، تقدِّم الطاعة للزعماء وتبايعهم على الموت ؟ ألم يحرِّككم هذا كله أيضاً ؟

أما إن الأمة قد خرجت من هذا الجهاد بأجلِّ النتائج ، لا أقول المفاوضة ولا الوعود ، ولكن النتائج العظيمة في التربية وفي الروح القومية ، إننا قد كسبنا المستقبل ؟ واطمأننا إلى النجاح ، لأن هؤلاء الأطفال الذين هاجموا الدبَّابة بالمساطر ، ورأوا هذه المظاهر الفخمة ، سيكونون إذا كبروا رجالاً لا كما نعرف من رجال ، وسوف لايعيش فيهم خائن ولا كسول .

فلله الحمد ، وعلى الشهداء الرحمة ، ولهذه الأمة الحياة .

* * * *

جهاد دمشق

نشرت سنة ١٩٣٦

على أبواب عيد الأضحى ، عيد الدين ، ويوم ٨ آذار[1] عيد الدنيا تُيتَّم الأطفال وتُرمَّل النساء ، وتُنتهك حرمة المساجد ، ويُراق دم المصلين الأبرياء على صحن الأموي ؟

أفي بيت الله تُزهق النفوس ، وفي أيام العيد تقام المآتم ، وبعد إعلان المفاوضة يُطلق الرصاص ؟ إن هذا لكثير . . . إن دمشق التي صبرت يوشك أن يخونها الصبر . . .

إنها خمسة وأربعون يوماً ، خمسة وأربعون يوماً ، وستصبح غداً ستةً وأربعين ، ثم تصير خمسين ثم تبلغ الستين ، وقد جرَّبتم الوسائل كلها ، وبذلتم الجهد ، فعمدتم إلى الوعد ، ولجأتم إلى الوعيد ، لتصدعوا صفوف هذا الشعب ، وتفلوا (إضرابه) فهل فتح في دمشق كلها ، من أقصاها إلى أقصاها حانوت لحَّام أو فحَّام ، بَلْه المتجر الكبير ، والمصرف الشهير ؟ هل رأيتم في هذا الشعب الفقير من يشكو البطالة ، أو يتألم من الجوع ، قد عزلتم الحرَّاس ، وسحبتم الخفراء ، وأطلقتم الجياع على مخازن الأموال ، وصناديق الذهب فهل رأيتم يداً تمتدُّ إلى مال باختلاس ؟ ألم يُضرب اللصوص عن السرقة كما أضرب التجار عن البيع ، والناس عن الشراء ؟

---

(١) ٨ آذار يوم اعلان استقلال سورية ، وتولى فيصل بن الحسين ملكاً عليها ، وذلك سنة ١٩١٨ وقد كنت تلميذاً في آخر المرحلة الابتدائية وقد حضرت الاحتفال ولكن (من برّا) فقد صفّونا أمام قصر الحكومة على حافة (بردى) أما كلمة العيد . فأولى ألا تطلق إلا على أحد العيدين الأضحى والفطر ، وكلاهما عيد ديني قرآني فالفطر عيد ابتداء نزول القرآن (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) والأضحى عيد اختتام نزول القرآن ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ .

هل رأيتم في هذا الشعب من يأكل اللحم والحلوى ، وجاره لا يجد الخبز ؟ ألم يواس الغني الفقير ، ألم يتساو الناس في الصبر والتقشف ؟

ألم تعش دمشق خمسة وأربعين يوماً على الخبز ، ثم تخرج لتقف مدافعة عن حقها في وجه الموت ؟

ألم يفتح الأطفال صدورهم للرصاص ؟ ألم يصمد الفتية العزل للجيش اللجب ، لا يزولون حتى يزول عن مكانه هذا الجبل ، ثم يصدمونه صدمة الندِّ للندِّ ، ثم لا تنجلي المعركة إلاَّ عن حق يظفر ، ومجد يؤثَّل ، وشهيد يفوز بالجنة ، وقتيل يعجْل به إلى النار ، وأسير ينقل إلى القلعة ، ألم تلبث دمشق خمسة وأربعين يوماً وكأن شوارعها وميادينها ساحة حرب ، فيها الخنادق والاستحكامات والرشاشات والمصفحات والدبابات ؟ ألم تلبث دمشق خمسة وأربعين يوماً وهي تلتهب التهاباً فلا تهدأ النار في ركن من أركانها ، حتى يندلع لسان النار في ركن آخر ودمشق ثابتة على جهادها ؟ ألم يشيِّع الأمهات أبناءهن إلى المقبرة ضاحكات هاتفات ؟ ألم يجاهد الطفل الصغير ، والمرأة العجوز ، والشيخ الفاني ؟ ألم تمتلىء السجون بالأبرياء ، ألم تضق القبور بالشهداء ؟ فهل تكلّم تاريخكم في آذانكم [1] ؟ هل عرفتم لهذا الشعب حقه ؟ هل قدرتم له تضحيته ، هل رفعتم قُبَّعاتكم حينما مرَّت بكم مواكب شهدائه ، وخشعت قلوبكم حينما رأيتم سيل دمائه ؟ ونسيتم أن أجدادكم الذين أعلنوا حقوق الإنسان وغسلوا بدمائهم صفحة الاستبداد والاستعباد ، فَجئتم في القرن العشرين تهدمون ما بنى أجدادكم ، وترجعون بالعالم إلى الوراء قروناً ثلاثة ؟

أم قد نسيتم ما كتب روسو وفولتير ومنتسكيو ، وما قال ميرابو وسييس ولافاييت ، وما جاهرت به فرنسا من أنها نصيرة الشعوب وأم الحرية ، ومعينة المظلوم ؟

أفي القرن العشرين الذي قالوا ، إنه قرن النور والحضارة . . . فلم نر من

---

(١) الخطاب للفرنسيين .

نوره إلّا بريق البارود ، ولهيب النار ، ولم نبصر من حضارته إلّا البنادق والدبابات وهاكم انظروا :

في كل رابية جسوم مزَّقت ... وبكل ناد رنَّة وعويل
توراة موسى تشتكيك وتحتمي ... بالله والقرآن والإنجيل

ليس الشعب السوري عدواً لفرنسا ، إنه يحب التاريخ الفرنسي ، ويعجب بأبطاله الذين رفعوا منار الحرية ، ويحب الأدب الفرنسي ، ويحفظ ما فيه من الشعر الوطني ، والخطب القومية ، ويحب الشعب الفرنسي الذي يعرف كيف يثور على الظالمين ، ويقمع المستبدين ، ولكنه لا يحب من ينازعه حقه في الحياة والحرية ، لا يحب من يسلبه أرضه ، ويضع المسدس على صدغه ؟ . .

فهل هو ملوم في هذا ؟ هل في الدنيا أمة تحب من يسطو على حريتها ؟ هل في الأرض عاقل يحب من يغلبه على داره ، وينزع منه أمواله ؟ ويتحكَّم في نفسه وأهله ؟

هل تحبون من ينازعكم أرضكم وبلادكم ؟ فعلام إذن لا تعطونا من الحق مثل ما تأخذون لأنفسكم ، وتعطون الناس أجمعين ؟

ألأننا لا نستطيع أن نخاطبكم بلغة المدفع ؟ ألأننا لا نملك جيش فرنسا وأسطول الانكليز ؟ ألأن حقّنا لم يؤيد بالقوة ؟ فأين إذن مباديء الثورة الفرنسية التي علَّمتمونا إياها في المدارس ؟ واين حقوق الإنسان ؟ إن الضعف ليس عاراً ولكن الجبن هو العار ، ونحن ضعاف ولكننا لم نجبن أبداً ، ولا نعرف ما هو الجبن ، نحن مغلوبون على أمرنا ولكنا لم نذل أبداً ، ولا ندري ما الذل ، إننا نعرف كيف نموت كراماً إذا نحن عجزنا أن نعيش كراما . . .

إننا اليوم لكما قال مليككم فرنسوا الأول من قبل : قد خسرنا كل شيء إلّا الشرف ، ومن يملك الشرف فقد ملك كل شيء .

إن شرف نفوسنا وشرف ماضينا وشرف جهادنا علَّمنا هذا الاتحاد وهذه الشجاعة وهذه التضحية ، وإننا ماضون في سبيلنا لا نخاف شيئاً ، وماذا نخاف ؟

هل بعد الموت منزلة نحابيكم عليها ؟ هل عندكم أشد من الرصاص ؟ لقد فتحت له صدورنا .

هل عندنا أغلى من الأرواح ؟ لقد أعددناها ثمناً للاستقلال .

هل بقي شيء نخافه ؟ قد رأينا الموت ، وألفنا الفقر ، واعتدنا الجوع ، وأصبحت مدينتنا بلقعاً ، وأهلها مفجوعين ، ونساؤها ثاكلات ، فماذا نخاف بعد هذا ؟

إننا لا نخاف إلاَّ شيئاً واحداً . نخاف أن نخسر احترامنا للشعب الفرنسي وحبنا الأدب الفرنسي ؟

نخاف أن يفصل بيننا وبين فرنسا برزخ من الدم فلا نلتقي أبداً . .

إن الدم العربي يا أمة الحرية كالدم الفرنسي ، فلا تحسبوه شراب الورد . . . إنه حار يغلي ويضطرم كما يغلي الدم الفرنسي ويضطرم ، إن لشهدائنا آباء وأمهات يتألمون ويبكون ، كما أن لشهداء فرنسا آباء وأمهات يتألمون ويبكون ، وقد أنبتت دماء فرنسا . . . وإن العرب ينتظرون الموسم .

إنهم مطمئنون فإن في ميدان التضحية متَّسعاً للجميع ، وإن أرض الوطن لا تضيق بشهيد . . وإن دمشق التي نامت عصوراً قد تحركت في مضجعها ، قد تقلبت من جنب إلى جنب ، فسارت بفعلها قطر البريد وأسلاك البرق وذارَّت الأثير ، وامتلأت باخبارها الأرض كلها .

فكيف بدمشق لو قعدت ؟ كيف بها لو قامت ؟ كيف بها لو ذكرت الثأر القديم ؟ فوثبت وثبة الموتور المستميت ، وقفزت مجنونة ثائرة تصرِّخ تصريخ الدم ، وتضرب ضربات المرَدَة ، فتحتفر تحت أقدامها القبور ، وتنفتح أبواب جهنم ؟

. . . ويل يومئذ للظالمين !

* * * *

كلمة إلى الجنرال ديجول

نشرت سنة ١٩٤٥

رأيت في سينما ديانا بالقاهرة منذ شهور جريدة الأخبار الفرنسية تعرض صوراً من انهيار ألمانيا ، فترى المهاجرين من النساء والعجائز هائمين مشرَّدين ، ثم تعرض منظراً مثله كان في فرنسا يوم انهزمت فرنسا ، ويعقب المذيع فيقول بصوت خافت رهيب : « إن في الكون عدلا ! » وترى المدائن المخرَّبة ، والذعر البادي ، والدمار الشامل ، ثم تعرض مثل ذلك مما كان في فرنسا ويعقب المذيع فيقول : « إن في الكون عدلا » !

نعم ، يا جنرال ، إن في الكون عدلا ! ولكن قومكم ما استوفوا بعدُ قسطَهم من عدل الله ، وآية ذلك أنكم أصبتم فبكى لكم أعداؤكم ، ورحمكم خصومكم ، وكنتم عند الناس ضحيَّة القوة العاتية ، وشهداء العدوان المجرم ، وكنت تثير الدنيا على الألمان إن حاربوا قومك ، وقومك هم أعلنوا الحرب ، وهم تقدَّموا إليها ، وهم (زعموا) بنوها ، قد غُذُّوا بلبانها ، ورُبُّوا في ميدانها ، فلما نبت ريشك ، ورُدَّ عنك عدوك ، وأغضى عنك الدهر إغضاءة ، نسيت كل ما كنت فيه ، وما كنت تقوله وتخطب به ، وأقبلت تجرِّب سلاحك فينا ، فأخذتنا على ساعة غرة بحرب ما آذنتنا بها ، ولا أعلنتها لنا ، فسخَّرت لقتالنا مدافعك وطياراتك ، وياليته كان سلاحك يا ايها المحارب الظافر ، ولكنه سلاح أعطيته عاريةً لتحارب به عدو صاحبه وعدوك ، فحاربت به قوماً آمنين !حاربت يا أيها البطل النساء في الخدور ، والأطفال في المدارس ، والمرضى في المستشفيات . . . وما هابك النساء ولا الأطفال ولا المرضى ، ولا رفعوا مثل العلم الأبيض ، الذي رفعه قومك حين كان لهم سلاح ، وكان لهم خط ماجينو ، لأن لهم من إيمانهم حصناً لاتهدمه قنابلك ، ولا تحرقه نارك !

وهذا الجيش (يا جنرال) الذي عقدت له اللواء ، ورفعت فوقه العلم ، وائتمنته على شرف فرنسا وتاريخها ، قد اهوى باللواء ، وطوَّح بالعلم ، وعبث بالأمانة ، حين سطا على المخازن ، فكسر أقفالها ، وفتح أبوابها ، وأخذ ما فيها ، وذلك فعل اللصوص لا الجنود !

ثم عاد فأوقد فيها النار ، فأحالها إلى جهنم الحمراء ، ليخفي باللهب سرقته ، وذلك صنع المجرمين لا المقاتلين !

ثم وقف يتربَّص ، فكلما أقبل من يطفيء النار ، وينقذ الأطفال رماه فأصماه ، وذلك عمل القتلة السفَّاكين ، لا الأبطال المحارين !

جيشك هاجم المستشفى الوطني ، وسلَّط ناره من أفواه رشاشاته ومدافعه على الجرحى والمرضى ست ساعات متواصلات متتاليات ، ولم يقدر بعد ذلك إلا على أربع ممرضات شوابٍّ أخذهن « سبايا » !

جيشك يا رجل الديمقراطية ، يا سليل من أعلنوا حقوق الإنسان[1] ، هاجم البرلمان وفعل به الأفاعيل ، ومثَّل بشرطته فبقر بطوناً ، وسمل عيوناً ، وقطع أطرافاً ، وهاهو ذا البرلمان تركناه ليشهد عليكم أبداً ، فتعال تَرَ الدماء على جدرانه المصدَّعة ، وأبوابه المخلَّعة ، ولقد وجدوا صندوق البرلمان وفيه المال . . . وجدوه بعد ذلك في دار القيادة الفرنسية ، وهم طبعاً لم يسرقوه ، ولكن أخذوه ليحفظوه !

جيشك رمى قنابل الطيارات على السجون ، حيث لا يملك من فيها فراراً ، فجعل السجن لمن فيه قبراً!

المستشفى العسكري ياجنرال جعله جيشك قلعة فيها مدافع الهاون ، ومنه أحرق سوق ساروجا هذا الحريق الذي أكل ثلاثاً وتسعين داراً . ومدرسة الفرنسيسكان كان فيها الرشاشات ، تطلقها بأيديها الطاهرات ، الراهبات المتبتِّلات ، ذوات الرحمة المسالمات !

---

(١) كذبوا ، بل ان حقوق الانسان أعلنت قبل ذلك بأكثر من ألف سنة ، أعلنها محمد بن عبد الله في (حجة الوداع) .

نسخة التوراة التي سرقت من سنوات ، وهي أقدم نسخة في العالم ، وجرت لها تلك المحاكمة المشهورة ، وقضي على طائفة من الأظناء بأشدُ العقاب ، وجدت في دار المستشار الفرنسي لما كبست بعد الحادث داره ، ويقدَّر ثمنها بنصف مليون فرنك !

القاضي الفرنسي الذي جئتم به إلى المحكمة المختلطة ، لأن قضاتنا في دعواكم لايُطمأن إلى علمهم ونزاهتهم ، المسيو سيرو ، وجد في داره رشاش كان يقتل به الناس في تلك الأيام السود ، وهو الذي جيء به ليقضي على القتلة والمجرمين !

إن بطريرك موسكو وكيل الروسيا ، كان في فندق الشرق (أوريان بالاس) يوم الحادث ، يوم عصفت هذه العاصفة في رأس قائدك أوليفاروجه ، فنسي كل مايعتزّ به البشر من فضائلهم ، فلبث في الملجأ المظلم تحت الأرض ليلة كاملة ، قال لما انقضت : « لقد كنت في ستالينغراد يوم ضربها الألمان ، فما رأيت أكثر مما رأيت الليلة » !

ولما قدمت دمشق زوجة رئيس الجامعة الأميركية في بيروت السيدة دودج ، ورأت آثار العدوان ، قالت : لقد قتل ابني الوحيد في فرنسا ، فكان يصبّر النفس عنه أنه مات في سبيل الحق والإنسانية ، أما الآن ، فواطول حزني وكمدي ، لقد أيقنت أن ابني مات في سبيل (لاشيء) !

* * * *

ياجنرال ! لما ذهبت أزور القلعة بعد الحادث بأيام ، لم أستطع أن أدنو منها من رائحة الموت ، إذ تفوح من آلاف الجثث ، جثث الأبرياء التي كانت بالأمس رجالاً كراماً ، كانوا ملء الدنيا حياة ونشاطاً ، وكانوا ذخر عائلاتهم وبلادهم ، فصاروا . . . أكواماً من اللحم العفن الذي يؤذي العين والأنف !

لم ينج من شرِّ جيشك الأحياء ولا الأموات . ولقد أبصرت في (الدحداح) قبوراً قد نبشتها القنابل ، وقذفت رممها ، أفإن عجزتَ عن حرب أعدائك

الأقوياء ، جثث تحارب موتانا ؟

لقد كان ذلك كله ، وكان أكثر منه ، أفهذا من العدل الذي تهتف به ؟ لا ياجنرال ، إن كلمة « العدل » أكرم من أن تمرَّ على لسان مرَّ منه ذلك الأمر الهمجي بضرب دمشق ، أقدم مدينة عامرة على ظهر الأرض بلااستثناء ، وأكاد أقول أجملها . إن الشفاه التي تعرف كلمة « العدوان » لايمكن أن تألفها كلمة (الحق والعدل) !

* * * *

ولكن « في الكون عدلاً » ! نحن نقولها الآن ! وإن من عدل الله أن جعل صبرنا نعمة علينا ، وعدوانكم وبالاً عليكم !

لقد انتهت الرواية ، وأسدل الستار ، فتعال ننظر ماذا ربحنا وماذا ربحتم ؟ لقد خسرنا منازل من أحسن منازلنا ، ورجالاً من أكرم رجالنا ، وملايين من حرِّ أموالنا ، ولكنا ربحنا الخلاص منكم ، والاستقلال عنكم ، وسنبني الدور ، ونلد الرجال ، ونعوِّض المال ، فماذا ربحتم أنتم ؟ ماذا ؟ يامن كشفت للناس عن حقيقتك ، وأنك ماخلقت لتسوس الأمم ، ولالتحكم الشعوب ، ربحت بغضاء لاتمحى . لقد أسأت إلى التاريخ الفرنسي والثورة الفرنسية والأدب الفرنسي ، ولطَّخت بالوحل أسماء كانت فينا لامعة نظيفة ، وكان لها في النفوس مكان ، وسيتوارث العرب كلهم والمسلمون هذه البغضاء بطناً بعد بطن ، وستزيد وتعظم ، وتغدو تراثاً مقدَّساً ، لايشذُّ عنه إلا هؤلاء النفر من الأدباء الذين باعوا دينهم وإخوانهم بذكريات غرام لهم هناك . . . وهؤلاء ليسوا منا !

لقد أثمرت هذه البغضاء باكورتها ، فلم يبق في سورية كلها لوحة عليها حرف فرنسي يقرأ في طريق ، ولاكتاب فرنسي يدرَّس في مدرسة ، ولقد كان مهرجاناً قومياً يوم أحرقت فيه الكتب الفرنسية في مدن الشام !

وبعد ياجنرال ، إن في الوجود شيئاً أعظم من الدبابات والطيارات والقنابل الذرِّية ، هو حب الموت !

فالذي لايخاف الموت لاتخيفه آلاته مهما جلَّت وعظمت ، فمن يطلب الموت فهو أكبر من الموت ، لأنه أكبر من الحياة ، ونحن قوم علَّمنا نبينا محمد ﷺ ألا نخاف الموت في سبيل الحق ، فلن يخيفنا شيء في الدنيا !

* * * *

إلى حامي الإسلام

نشرت سنة ١٩٤٥

(جاء في برقيات أمس أن موسوليني قد أسر ، ولو كان موسوليني البطل النبيل الذي حارب حتى سقط ، لنسينا عداوته وحيّينا بطولته ، وللبطولة حقها لايجحده كريم ، ولكن موسوليني دعي ظالم ، وخصم لئيم ، فلذلك وجهنا إليه هذا المقال) .

يامن يفتِّش في الكتب عن العبر! يامن يبحث في خرائب التاريخ ، تعالوا : فإن هاهنا عبرة مافي التاريخ أجلّ منها ، ومافي الكتب مثلها ، تعالوا فشاهدوا واعجبوا واعتبروا . . .

هذا الذي تكبَّر وانتفخ حتى ماتسعه ثيابه ، ومايحتويه جلده . . . هذا الذي تطاول وتعالى حتى مايجد محلاً يرتقي إليه . ولاعلا فوق علوِّه . . هذا الذي طغى وبغى حتى استلب فراش هيلاً سلاسي من تحته ، وطرده من بيته . هذا الذي تجبَّر وتنمرد حتى ألقى الشيخ المجاهد الصالح عمر المختار من الطيارة فتلقَّته الأرض ، أرضه وأرض قومه ، أشلاء ومزقاً . هذا الذي جنَّ من الكبر ، وحمَّ حتى صار يهذي في حمَّاه ، ويثرثر في جنونه ، يقول : أنا حامي الإسلام !

تعالوا انظروا إليه أسيراً ذليلاً ، يُقاد إلى الموت ، بأيدي قومه ، قد طار هواء الكبر من جوفه ، فانحنى واستخذى وهبط من بعد علاه إلى الحضيض ، ونزل من يفاعه إلى القاع ، فمن كان يظنّ أن موسوليني سيكون أسيراً في بلاده يساق إلى المشنقة ؟

ألا لايأمننَّ بعد اليوم ظالم ، ولو مدَّ الله له ومنحه قوة وأعطاه مالاً ، ولاييأسنَّ مظلوم ولو ابتلاه الله فقدر عليه الضعف وكتب عليه الفقر ، ولايفتحنَّ فمه ملحد

فاجر ، فإن لهذا الكون إلهاً منتقماً جباراً عادلاً ، يمهل ولايهمل ، ويمدّ للظالم ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

* * * *

ياموسوليني ، ياحامي الإسلام هلمَّ احْمِ رأسك غداً من سيف الجلاد ، إِحْمِ اسمك من لعنات التاريخ ، احم (عظمتك . . .) من سخرية الأجيال ، وهزء القرون الآتيات ، فإن للإسلام رباً يحميه ، وإن للإسلام ياأيها الدوتشي . . ولادوتشي اليوم ! جنداً إن لم يكن لهم (الآن) مثل رصاص جندك الذي لايقتل ، ومدافعهم التي لاتؤذي ، وأسطولهم الذي لايحارب ، فإن لهم قلوباً فيها إيمان ، وسواعد فيها عزم ، ونفوساً لاتهاب الموت ، ومن يجمع الإيمان والعزم وحب الموت لايغلبه شيء ، وسل إن كنت ناسياً ، سل عنهم بطاح طرابلس ، وبقاع الريف ، وجنَّات الغوطة ، وجبل النار . سل جنود إيطاليا الذين كنت تخطب فيهم خطبك المسرحية ، تظن أنك صرت بها قيصر ثانياً .

لقد أجاب عليها شاعرنا حافظ إبراهيم ، فقالها كلمة حق وصدق ، كلمة قوَّة ونبل ، فاسمعها إن لم تكن سمعتها :

قد ملأنا البرَّ من أشلائهم   فدعوهم يملؤوا الدنيا كلاما

نعم لقد امتلأت الدنيا أمس يادوتشي بالكلام عنك ، والهتاف باسمك ، باسم موسوليني الأسير الجاني . فهنيئاً لك هذه الشهرة وهذا المجد !

ياموسوليني ، لقد قوِّض المسرح ، ومزِّق الستار ، وبدا المكنون للعيون ، فإذا أنت وجندك كما قال الرافعي فيهم :

ياأمة النحت والتصوير ويحكم   حتى جنودكم الأنصاب والصور

ولقد هدِّمت الأنصاب ، ومزِّقت الصور . وَثُقبت هذه الكرة المنفوخة ، بإبرة ، فعادت قطعة من جلد ميِّت .

* * * *

يامن يفتّش عن العبر ، هذه عبرة فخذوها ، وأذيعوها ، واصرخوا بها في أذن كل ظالم ، علّه يسمع ويصيخ ، ويتّعظ ويعتبر ، قبل أن يقضي الله فيه قضاءه فيكون عبرة للمعتبرين .

قولوا لهم إن الظلم مرتعه وخيم ، وإن دعوات المظلوم سهام مسمومة ، وإن الدهر دوّار ، والأيام دولاب ، وربما عزّ غداً الذليل وذلّ العزيز ، وجاءت ساعة الانتقام ، وويل يومئذ للظالمين .

* * * *

ويأأيها المظلومون ، فرادى وجماعات ، في كل قطر وتحت كل كوكب ، اصبروا ولا تقنطوا من رحمة الله ، ولاتيأسوا من روحه وكونوا معه ، فإن الظالم مهما كبر ، فالله أكبر ، ومهما طالت يده وعلَتْ فإن يد الله فوق يده ، ومهما ملك من أمر يومه ، فإن غده وراء باب مغلق ، ومفتاحه عند الله ، ومايدري أحد بماذا يطلع عليه غده .

لقد قال هو جو شاعر فرنسا الأكبر لنابليون بطلها الأكبر الذي تجرّأ لما ولد له (ملك روما) فقرر أن المستقبل له : « ياأيها الملك ، إنك تستطيع أن تظفر في أوسترلتز ، وأن تفتح فيينا ، وأن تملك العالم ، ولكنك لاتستطيع أن تقول : المستقبل لي ، لأن المستقبل ياأيها الملك ، لله وحده ! » .

* * * *

وأنت يافاتح الحبشة ، وغازي طرابلس ، اخْلُ الآن بنفسك وابك على خطيئتك ، واستعدْ تلك الخطب ، وفكر في هاتيك الأيام التي كنت تطلُّ فيها من شرفة قصرك ، على أولئك الآلاف المؤلّفة من الشخوص السود ، أبطال الفاشست ، فتصرخ فيهم حتى تتمزق حنجرتك ، وتنفجر رئتاك ، وهم يجيبون بدوي يهتز له ذلك القصر . . . أين هؤلاء الذين أعددتهم ليكونوا عدّتك في بغيك على طرابلس ؟ أين ذلك الحماس وذلك الدويّ ؟ مجدٌ بنيته في الهواء فضربته الرياح ! ياغازي طرابلس ، لقد كانت فرقة المغاربة من الطرابلسيين وإخوانهم

المسلمين أول فرقة وطئت أرضك ، وغزت بلادك ، وطاردتك حتى سقطت في الفخ ، كما تسقط الضبع الخبيثة التي لاتأكل إلا لحوم الموتى ؛ لأنها لاتجرؤ على الأحياء ! لاالست الأسد الجريح ، ولاالنسر المهيض!

فكِّر في ذلك الشيخ الشهيد الذي ملأ مصرعه كل قلب بغضاً لك ، وكل عين دمعاً عليه ، لقد انتقم الله له ، ولكنا لانريد أن يفعل بك مافعلت به لأنَّا أكرم منك أصلاً وفرعاً ، وأنبل خلقاً وطبعاً ، ولأن نبيِّنا نهانا عن المثْلة ، وأمرنا بالرفق حتى بالحيوان فلانذبحه إلا بشفرة حادَّة ، فاطمئن فقد أحِدَّت لك الشفرة !

ياموسوليني ، ومإياك نخاطب . لقد صرت أقلَّ وأذلَّ من أن تُخاطب ، ولكن ليعتبر قوم لم يقلُّوا بعدُ قلَّتك ، ولم يذلُّوا ذلَّتك . ياموسوليني إنَّا لانشمت ، ومالشماتة سجيَّة فينا ، ولكنا ندلُّ على مكان العبرة فيك ، حين نلت جزاءك . لقد أوكت يداك ، ونفخ فوك ، فغرقت ، فالحمد لله الذي أنقذ الأرض منك ، وأقر بك عيون من ظلمت ، وأرانا فيك هذا اليوم الأسود[1] . اللهم أنعمت فزدْ ، فإنها لا تزال الأرض تعجُّ بالظالمين !

---

(١) قضى الله قضاءه العادل في موسوليني الظالم بين كتابة هذا المقال ونشره .

الانكليز واليمن

« بمناسبة ثورة عدن الجديدة على الاستعمار البغيض »

نشرت سنة ١٩٥٨

هل أتاكم نبأ من في أطراف اليمن ، إذْ كانوا آمنين في أرَضيهم ، ساكنين إلى أهليهم ، فما راعَهمْ إلا قصف الرعد من تفجُّر القنابل ، ولمع البرق من قدح البارود ، والسقوف تنقضُّ عليهم ، والجدران تنهدُّ من حولهم ، والأرض تَزَّلزل من تحتهم ، وأولادهم وبناتهم يصرَّعون على أعينهم ؟

وما قامت القيامة ، ولا تفتَّحت البراكين ، ولكنهم أدعياء المدنية ، وأعداء الإنسانية ، ومصيبة البشر ، وسبب البلايا كلها : الانكليز .

الانكليز . . .

الانكليز الذين صكّت وجوهَهم نعالُ المسلمين في بور سعيد ، وحقَّت عليهم لعنة الناس في هيئة الأمم . . .

الانكليز ـ طردوا من هناك ، فعادوا من هنا ، كالكلب تطرده من الباب ، فيعود من النافذة . . . خرجوا باللعنة من مصر ، فرجعوا يحاولون الدخول إلى أرضنا من اليمن ، ومن عُمان . ولقد كنا أيام كان الفرنسيون في الشام (لا أرجع الله تلك الأيام) كنا كلما لقينا حماقة من حماقاتهم ، وكلما رأينا من طيشهم وفيشهم[1] ، قلنا : أين رعونة هؤلاء من عقل الانكليز !

وكلهم شرّ ، ولكن بعض الشرِّ أهون من بعض .

---

(١) الفيش والفشار ، ما ندعوه بالعاميَّة الفَشْورة!

وكنا نعرف خُبْث الإنكليز ، ولكنا كنا نرى لهم مزيَّة السياسة والدهاء حتى كانت حادثة بور سعيد ، فهتكت الأستار ، وبدت الأسرار ، وسقط (المكياج) ، فإذا الإنكليز في الطيش كالفرنسيين ، وإذا هما كحماري العبادي في المثل القديم ، قيل له .. أي حماريك شر ؟ قال : هذا ثم هذا !

وإذا هما كما جاء في المثل الجديد ، (حَنًّا وحنين ، لعنة الله على الاثنين) !

* * * *

لقد سقط (المكياج) عن وجه الحسناء الصحيحة القوية ، فإذا هي عجوز شوهاء ، وإذا (الأسد البريطاني) الذي كان يزأر من كندا ، فيسمع زئيره من أستراليا والهند ، ليس إلا ضبعاً هرمة ، ذاهبة اللحم ، منخورة العظم ، تلبس للناس جلد أسد ميِّت .

والذي أرى الدنيا ، ماهي إنكلترا على حقيقتها هو (ايدن) .

(ايدن) الذي ذهب يمتار لأمته فكسب لها شرًّاً مما كسب الراعي لبني نمير ، لما جاءهم ببائية جرير .

كسب لإنكلترا لعنة الله والناس ، وألَّب عليها الإنس والجن ، ووصمها في جبينها بوصمة العدوان والنذالة ، وقد كانت تلك صفاتها من قبل ، ولكن الوصمة كانت مختفية تحت الوجه المسرحي المستعار .

فهل تظنُّونها عقلت إنكلترا ؟

هل ترونها اعتبرت بما جرى عليها في مصر ؟

لقد ذهبت فشرعت في جريمة جديدة ، عدوان آخر عليكم ياأيها العرب ، على بلدين هما لبُّ العربية ، وأصلها ، على ديار حمير وكهلان ، وأزد عُمان ، على الأرض التي خرج منها الغساسنة ملوك الشام ، والمناذرة ملوك العراق ، وكِنْدة ملوك اليمامة ، وخرج منها من كانوا أعزَّ من هؤلاء كلهم عزاً ، وأكرم على الله والناس ، الأوس والخزرج ، (أنصار) سيِّد البشر محمد ﷺ .

على اليمن ياأيها المسلمون ، ومابعد اليمن إلا الحجاز ، مابعد عدن إلا صنعاء ، ومابعد صنعاء إلا مكة البيت الحرام !

لقد كان البرقِ اليماني إذا لمع هزَّ قلوب العاشقين ، وحرَّك ألسنة الشعراء ، أفلا يهز قلوبكم (البرق) اليماني ، وهو يحمل أفظع أخبار النذالة والاعتداء من بريطانيا ، وأروع أنباء البطولات والثبات من اليمانيين ، من إخوانكم هناك ، في منازل بلقيس وتبَّع وابن ذي يزن ؟

لقد قمتم (ولكم الشكر) على قدم واحدة ، لما عَدَا الثالوث المدنَّس على مصر ، فأدَّيتم بذلك حق الأخوة ، وأجبتم داعي الله ، فهل نمتم اليوم والعادُون يعدُون على إخوتكم في اليمن ؟

لا ، ولكنكم لاتعرفون ماخبر من في اليمن .

لقد كان العرب في هجعة استمرَّت من القرن التاسع الهجري إلى ماقبل مئة سنة ، ثم صحوا ولكن اليمن بقيت نائمة لمَّا تكدْ تَصحو ، بعيدة عن خيرات الحضارة الجديدة وعن شرورها ، قد تنكَبت طريق الزمان ، وعاشت في الحاضر عيش أبناء الماضي ، تركت القافلة تمشي بسياراتها ، وركبت إبلها ، هاربة من هزَّة الدولاب ، وضجَّة الركَّاب ، واستلقت على الوسائد تَعْلِك (القاط) ، وتستمريء لذيذ الرؤى ، تنظر إلى الدينا نظر الشاعر الحالم من (تعز) من فوق ألف وأربعمئة متر ، ومن صنعاء راضية بحالها ، قانعة بمالها ، حتى قرع بابها إبليس البشر سنة ١٨٣٨ ، جاءها الإنكليز ، والإنكليز لايرون أرضاً طيبة إلا حاولوا امتلاكها ، كالمجرم الأفَّاق الذي يجوب الشوارع ، فكلما رأى بيتاً جميلاً ، ورأى أهله ضعافاً ، هجم عليهم فطردهم منه واستقرَّ فيه .

ولكن أهل اليمن ليسوا ضعافاً ولاجبناء ، بل هم جنُّ المعارك ، ومردة الميادين ، ولاتزال وقْدة البطولات في دمائهم ، ماأضاعوا إرْثَهم منها من يوم أن مشوا مع تبَّع فجالوا في الجزيرة كلها ، إلى أن خرجوا بعد سيل العرم ، فقاتل ناس منهم الروم ، ونازل ناس الفرس ، إلى أن وثبوا الوثبة الكبرى تحت راية

محمد ﷺ ، يمشون لينشروا العدل والحق والهدى في الأرض ، يزيحون كل من يعترض طريقهم ولو كان كسرى ، أو كان قيصر ، أو كان خاقان ، حتى ركزوا ، حتى ركز اليمانيون والعدنانيون [1] راية القرآن على كل قلعة ، وكل قصر من فرنسا إلى الصين . . .

إن الذين نازلوا دول الأرض كلها ، لايعجزون عن ردِّ قراصنة البحار عن عقر دارهم ، لقد ثبت اليمانيون وناضلوا نضالاً متَّصلاً من مئة وعشرين سنة إلى اليوم ، ومااستطاع الإنكليز أن ينالوا منها إلاَّ أن وضعوا أقدامهم الدنسة في السواحل ، وأقاموا فيها هذه المحميَّات .

ولم يكن في السواحل إلاَّ بُلَيْدات وقرى من أرض اليمن ، فجاء الإنكليز فقسموها وقطعوا أوصالها ، وجعلوا من كل قرية مشيخة أو إمارة ، ومن كل بليدة سلطنة ، كما فعلوا في الملايا المسلمة ، وكما فعلت فرنسا في الشام حين جعلت من دمشق دولة ، ومن حلب دولة ، ومن اللاذقية دولة ، ولولا بقية من الحياء لجعلت من جوبر ودوما دولة ودولة ، وأنا أؤكد لكم أن قضاء دوما أكثر عمارة وسكاناً من أكبر واحدة من هذه المحميَّات .

المحميَّات ؟ إن هذا الاسم وحده سخرية من الحق ومن الواقع ، محميَّات . . . ولكن ممن تحميها إنكلترا ؟ من أصحابها الشرعيين ! كاللص الذي يدخل دارك ، فيغتصب منه غرفة ، يحبس فيها ولدك ، ويرفع يدك عنه ، ويمنع صلته بك ، ويقول لك : إنه في حمايتي !

وهذه من ألاعيب الإنكليز !

إنها دولة عجيبة ، بينما تكون وزارة المستعمرات فيها تضع خطط الاعتداء على الجيران ، تكون وزارة الخارجية تهيىء لتغطية ذلك معاهدة حسن الجوار ومنع الاعتداء ، إنهما تقسمان العمل ، تلك تعدُّ عُدَدَ الظلم والعدوان ، وهذه تنتقي لذلك أحلى الأسماء ، تلك تصنع السمَّ وتصبُّه في القوارير ، وهذه تلصق عليه

---

(١) وإخوانهم المجاهدون جميعاً .

الأوراق المذهبة المزوَّقة ، التي تؤكد أن فيها العسل المصفَّى ممزوجاً بماء الزهر ، وأن فيها الدواء من كل داء ، وتلك تعدُّ قرار (الإعدام) وهذه تبعث به في كتاب لطيف بأسلوب ناعم مع الودِّ والأشواق و (تقبَّلوا تحيَّات خادمكم المطيع . . .) !

لقد نزل الإنكليز على اليمن نزول الطاعون من سنة ١٨٣٨ ، ولكن اليمانيين وقفوا لهم وقفة الأسود ، فلم يستطيعوا تجاوز عدن التي احتلوها ، حتى إذا مرَّت عشرات وعشرات من السنين استولوا على سبع بلاد صغيرة سمَّوها المحميَّات ، وعقدوا مع (الخونة) من زعمائها يومئذ معاهدات صورية ، ولكن الشعب لم يخضع لهم ، ولقد حاولوا أن يغزْوا الإمام يحيى رحمه الله بأن يعترف لهم بها بمعاهدة كتلك المعاهدات ، ووعدوه وأوعدوه ، فما لانَتْ له قناة ، ولارأوا منه بادرة إجابة ، بل لقد زاد على الرفض فأذاع بياناً على العالم كله ، أعلن فيه بالحرف (إن إمام اليمن الملك الشرعي للبلاد لم يعترف بوجود بريطانيا في هذا الجزء من اليمن ، ولن يعترف به ولابما يترتب عليه من نتائج) .

ولكن اللص الوقح لاتردُّه عن غرضه صفعة ، إن الإنكليز لايزالون يأملون ، (أمل إبليس في الجنَّة) أن تتنازل اليمن عن حقوقها في هذه الأرض الحرة المنيعة التي سمَّوها المحميَّات ، وهي لاتحتاج إلى حماية إلاَّ منهم هم ، واليمن تأبى أن تضيِّع الأمانة ، أو تخون الوطن ، فلما يئس الإنكليز من الترغيب عمدوا إلى الترهيب ، فضربوا الفالج بالطائرات سنة ١٩٢٨ ، وشبْوة سنة ١٩٣٨ ، وحاريب سنة ١٩٤٩ ، وفي سنة ١٩٥٤ ضربوا مدينة البيضاء بالمدافع الثقيلة وبقنابل الطائرات ، ثم شنُّوا من أواخر سنة ١٩٥٦ حرباً مدمرة فتَّاكة ، سخَّروا لها قوى الشر كلها ، وارتكبوا فيها ألوان القسوة والنذالة كلها ، ووراحوا مع ذلك يعلنون أن اليمن هي المعتدية الظالمة ، وأنهم هم الحمل البريء المظلوم .

ولكن هذه الحيل قد رثَّت وبليت ، وكشفها الناس من قديم ، يا أيها السادة الأذكياء جداً . . . الانكليز !

قد كُشفت اللعبة ففكِّروا في غيرها .

ولكن يظهر أن ذهن بريطانيا قد نضب ، وأن دماغها قد جفَّ ، وأنها قد أصفت كما تصفي الدجاجة العجوز من البيض ، فلم تعد بريطانيا تستطيع أن تبتكر .

لقد عاشت بريطانيا عمرها كله تثير الحروب ولا تحارب ، تعتزل عند القتال وتحضر عند الغنيمة ، ولقد فازت اليوم بأجلٍ الغنائم ، ولكن لكل شيء نهاية .

ونهاية بريطانية قد دَنَتْ

لقد بدأ نقصها ، فالهند خرجت من يدها ، وكندا وأستراليا وجنوب إفريقيا استقلت عنها ، وايرلندا لا تريدها ، ولا تزال تعلن كرهها لها وتثور عليها ، واسكتلندا لا تحبّها ولا ترى أنها منها ، حتى ويلز تتنكّر لها وتنتمي إلى غير أهلها ، ويتكلم شعبها غير لسانها ، فماذا بقي من انكلترا ؟ الذي بقى هو انكلترا ، هو (بريطانيا العظمى) الحقيقة ، وهو . . . هو لندن وضواحيها!

هذ هي أرض الانكليز ، أرض القبيلتين الجرمانيتين الأنكل والسكسون ، والباقي كله غصب وسرقة عارية مستردَّة .

وهاتان القبيلتان ، قد سرقتا هذه الأرض سرقة في قديم الزمان .

انتهت بريطانيا ولكل شيء نهاية ، لكل شيء : الدوحة الباسقة تَيْبس وتصير حطباً ، والقصر المشمخر يهدم ويغدو تراباً ، والدولة العظيمة تضمحلُّ ثم تموت فتصير أحاديث . . .

وستنتهي انكلترا ، كما انتهت من قبلها كل دولة مجرمة ظالمة .

أين دولة جنكيز وهولاكو وتيمور ؟ أين فرعون وهامان ونمرود ؟ أين كسرى ، أين قيصر ، أين نابليون ؟

لقد ذهبوا كما ذهب كل طاغية جبَّار ، وكل غاصب (مستعمر) . وليس يدوم في الأرض ملك ظالم .

كلا ، ولا مكان لمستعمر بعد اليوم في أرض عربية ، لا مستقر لغاصب في

بلدة إسلامية ، إن العروبة تأبى المذلّة ، والإسلام يحرِّم على أهله ، أين كانوا من الأرض ، أن يخضعوا لعدو يملكهم في أرضهم ، وأن يقبلوا حكماً يخالف حكم كتابهم وسنَّة نبيهم ، لا بقاء للانكليز في الجزيرة ، ولا لفرنسا في الجزائر ، ولا لليهود في فلسطين ، ولا بقاء لعدو للإسلام في بقعة من الأرض ، وسينصر الله دينه ، ويعزّ أولياءه ، ويمكِّن لهم في الأرض ، حتى يرجعوا كما كانوا ـ والله المستعان .

* * * *

نشيد الوداع

نشرت في جريدة فتى العرب سنة ١٩٣٠

(١) مالت الشمس إلى المغيب ، ولم يبق منها إلاَّ خيوط تنفذ من بين قطع الغمام المتناثر حيال الأفق ، تلفظ نفسها الأخير ، كما يلفظ نفسه هذا العام الراحل !

(٢) دنت قافلة الحياة السائرة في بيداء الزمن من محطِّها ، فتباطأت في سيرها ، وقاربت خطوَها ، فأمسيتُ أشعر بطول هذه الساعات الباقية في عمر العام ، ورحت أرقب عقرب الساعة الماثلة أمامي ، فلا أراه يتحرَّك . . فضجرت وتألَّمت ، وأحْسَسْت كأن هذا الفلك يدور وهو عاتقي . .

(٣) . . . بعد ساعة واحدة يُتم الفلك دورة جديدة من دوراته التي لا تحصى . فلا يترك بعدها إلا أنقاضاً مهدَّمة ، وأجساداً محطَّمة ، وقلوباً مهشمة ، كأنَّما هو رَحَىً تطحن الأمم والشعوب . . ثم يخرج منها النداء أن : لِدُوا وابنو وأمِّلوا . . ولكن للموت والخراب واليأس !

بعد ساعة واحدة ، ينقضي هذا العام ، فتبتلعه هوَّة العدم ، ويفتح الماضي ذراعيه ، ليضمّه إلى الأعوام الكثيرة التي مرَّت من قبله ، ويؤلِفها (رزمة) واحدة ، ثم يلقيها في بحر الأبد ، ثم تفنى عند جلال الله الباقي .

بعد ساعة واحدة ، يدع هذا العام مكانه من الوجود للعام الجديد ، ثم يذهب فيتبوَّأ مكانه من عالم العدم !

بعد ساعة واحدة تُختم من هذا العام صفحة كتبت أكثر سطورها بدموع المظلومين ، لِتُفتح صفحة أُخرى ، لاندري عنها شيئاً ، ولكنْ فيها ألم وفيها

سرور ، وفيها أمل وفيها خيبة ، وفيها ضحك وفيها بكاء . . . والقدر يضحك أبداً من هذا الإنسان ، لأنه يراه الظالم ويراه هو المظلوم!

وما الإنسان إلاَّ عدوُّ الإنسان . .

يكتب القوي سيرة حياته ، ويملؤها بآيات التبجيل والثناء ، ولكن مِدَادها دموع الأشقياء ، ودماء الأبرياء . . ، وينشيء القويُّ صرح مجده ، ويرفع ذرى عظمته ، ولكن أساسه جماجم المظلومين ، وعظام الشهداء ، ويملأ القويُّ بالذهب خزائنه ، ولكن دراهم قد جُمعت من أيدي اليتامى ، وأفواه الفقراء .

(٥) بعد ساعة واحدة ، تحطُّ القافلة رحالها ، فنلتفت إلى الوراء فلا نرى إلا ظلاماً ، يلمع في وسطه نجم من الذكرى ، نتبيَّن فيه (العلم المرَّبع الألوان) وهو يخفق على دمشق . . فتخفق قلوبنا لجلال الذكرى ، ومرارة الفقد! فنحوِّل أبصارنا إلى الأمام فلا نرى إلا الظلام . ولكن ماهذا النور الذي ينبعث من الأرض فيذهب صعداً في السماء ، فيهدينا الطريق ، ويُتْرَع نفوسنا قوةً وأملاً ؟ لقد علمت : هذا بريق الدماء التي سقينا بها صحراء ميسلون ، وجِنَان الغوطة ، لقد علمت : لا يزيح ظلمة المستقبل ، إلا هذا النور . . الأحمر!

(٦) تزيَّن الناس ولبسوا أحسن ثيابهم ، وراحوا يهنىء بعضهم بعضاً ، لقد امتلأت بهم الأسواق والشوارع ، والبيوت والمجامع ، لقد ناءت برسائلهم قُطُرُ البريد ، حتى ما ترى حيثما كنت إلا ثغوراً تبسم ، وما تسمع إلا مقالة تقال : كل عام وأنتم بخير . كل عام وأنتم بخير . . . غير أني لا أفقه من هذا كله شيئا !

(٧) فِيمَ الهناء ؟ وعلام السرور ؟ . . . أيهنؤون بتلك الأرواح التي دفعناها ثمن الحرية ، فكان للبائع الثمن والمبيع ؟ أم بالنفوس الكبيرة التي أزهقها الأقوياء ، أم بالمنازل التي خرَّبوا ، أم بالدور التي أحرقوا ، أم بالحق الذي غصبوا ، أم بالحرمات التي انتهكوا ؟ . . أم بالأزمة العامَّة ، والتجارة الكاسدة ، والصناعة العاطلة ، والزراعة البائرة ، والأخلاق الضائعة ، والرجولة المفقودة ، والحدود المستباحة ، والجهالة المنتشرة ؟ . .

أما إن أشدَّ البلاء ، ألَّا نشعر بالبلاء ! وأكبر المصيبة أن نجهل أنها المصيبة ! فما لهؤلاء الناس وماذا اعْتراهم ؟ أيفرحون بهذا كله ؟ . .

إني لا أفقه من هذا كله شيئاً!

(٨) عزفت عما فيه الناس ، ورحت إلى شرفتي كئيباً ، وكان الظلام قد ملأ الكون ، كما ملأ جوانب نفسي ، فغشيني ذهول عميق ، وانطلق لساني يقول :

* * * *

أيها الراحل المودِّع!

لقد كانت لنا آمال ، صبْبْناها على قدميك يوم خرجنا لاستقبالك ، وكنا كلما انقضى من عمرك يوم ولم تتحقَّق ارتقبنا بها يوما آخر ، وهذا يوم لا آخر له ، فأخبرنا عن آمالنا ، ماذا صنعت بها ، أدست عليها فحطَّمتها وقطعت طريقك على رُفَاتها ؟

وبعد يا أيها الراحل المودع!

أنبئنا ماذا يحمل هذا القادم المسلِّم ، هل يحمل إلينا تحقيق الآمال وبلوغ الأماني ؟ أم يحمل الشقاء والخراب والفقر والآلام والدموع والدماء ، كإخوانه الـ . . . العشرة ، التي مرَّت على سورية ؟

انظر ماذا خلَّفت فينا ، انظر إلى مدنيتنا ، لقد جعلتها ـ في ظلِّ المتمدِّنين ـ أطلالاً وخرائب ، لقد جعلت أهلها فقراء بائسين . . . انظر هذه هي خرائب الدرويشية والميدان ، وهذه قلاع المزَّة وقاسيون . . .

ولكن لا بأس أيها العام لا بأس ، إن أرضاً تسقى بـ (الماء الأحمر!) لابد أن تنبت (الحريَّة الحمراء) . . . وإننا لن نيأس أبداً .

* * * *

وأفقت من ذهولي ، وكان وهن من الليل ، وكانت اللحظة الأخيرة من العام

الراحل ، فأرسلت في فضاء الله الواسع زفرة طويلة ، ثم رفعت رأسي شطر السماء وقلت :

ـ سبحانك لا إله إلا أنت . . هذا قضاؤك يا الله !

وتبدَّدت اللحظة الأخيرة من العالم ، تَبَدُّد الحروف الأخيرة من مقالتي ، ولم يبق في الوجود ، إلاَّ . . . اسم الله .

باسم الله نستأنف العمل ، والله المستعان ! .

* * * *

يا للعار

نشرت سنة ١٩٣٦ وأنا أثبتها هنا للذكرى والاعتبار وهي واحدة من عشرات من المقالات ، نشرت (لي ولغيري) في تلك الأيام .

أنتم أيها الناس ؟ تأكلون وتشربون ، وتنامون على الفرش الوثيرة ، وتُصْغون إلى أصوات المذياع ، وتتمدَّدون على مقاعد المقاهي ، وكراسي السينمات ، وإخوانكم هناك يخوضون في الدم ؟

يا للعار !

إني لأكتب هذه الكلمة وأنا أبكي ! ولقد مرَّت عليَّ أيام شِداد ، ومصائب جِسام ، فما بكيت ولا ترقرقت في مقلتي دمعة ، ولكني « أقسم بالله العظيم » أبكي الآن من أعماق قلبي . .

أتدرون لماذا ؟

كنت قاعداً ، أشرب شايي ، وأشتغل بكتابي الذي أؤلفه ، فما سمعت إلاَّ ضجَّة في الدار ، وكلاماً لم أتبيَّنه ، ولهجة لم آلفها فسألت ، فإذا في الدار امرأة ، من فلسطين شريفة غنيَّة من أسرة كبيرة كشفت ملاءة عليها بالية ، فإذا ليس تحتها شيء ، وإذا هي عارية ليس على جسمها إلا سراويل وإذا هي قد قصفها الجوع ، وانطلقت تصف ، ما جرى عليها ، منذ قتلوا زوجها وأخاها وطفلها ، إلى أن نَجَت بالباقين وهي عارية من المال والثياب ، إلى أن وصلت إلى محطَّة الشام ، فتركت أطفالها فيها تحت حرارة الشمس ، ومشتْ على غير هدى ، حتى وجدت هذا الباب فولجته . . . انطلقت تحكي ، وأهل الدار يَبْكون حتى كادت تصير الدار كأنها في مناحة ، ثم وضعوا بين يديها كل ما يقدرون عليه .

ثم ذهبت !

لا أدري إلى أين ؟ . . ولا أدري ماذا تصنع غداً والذي بعده ؟ ولا أعلم من معها وماذا جرى لغيرها ؟ فهل في الناس من يعلم ويدري ؟ هل في الناس من يجب أن يعلم ؟

هل في البلد مسلم ؟ هل في البلد عربيّ ؟ هل في البلد شريف ؟ هل في البلد إنسان ؟

المسلم لا يترك أخاه المسلم ، والعربي لا يدع العربي ، والشريف لا يمتنع عن المعروف ، والإنسان يرحم الإنسان !

يا أيها الناس ماذا بالله ؟ ألا تفهمون الكلام ، أم لا تصدقون ؟ أم لا تشعرون ؟ أماتت من قلوبكم أخوة الدين ، ورابطة اللغة ، وصلة الجنس ورأفة الإنسانية ؟

إن في المحطّة - وفي غير المحطّة ، وحيث لا أدري - نساءً عاريات جائعات وأطفالاً عراة جياعاً ، خرجوا من ديارهم ، وطُردوا من بيوتهم ، وأصبحوا متشردين ضائعين ، يتوسدون التراب ، ويلتحفون السماء ، وأنتم تنامون على القطن والصوف والريش ، وتأكلون الحلو والحامض ، وتضحكون وتطربون ، وتدَّعون أنكم عرب مسلمون ؟

يا للعار !

أنسيتم أيام الثورة السورية ، يوم كانت الأسرة التي تملك الألوف تخرج بين ليلة وضحاها ، وصفراً ليس معها شيء ؟ ويذهب المال والمنزل والثياب ؟

هذه كتلك !

يا أيها الناس ، لا أقول لكم ، اذهبوا فحاربوا ، ولا أقول لكم تظاهروا وصيِّحوا وعطِّلوا المفاوضات ، ولكن أقول ساعدوا إخوانكم في الجنسية ، في الدين ، في الإنسانية ! تداركوا الجياع قبل أن يموتوا جوعاً إلحقوا العراة قبل أن يهلكوا برداً . . .

لا يقل واحد منكم ، أنا لا يعنيني !

كل واحد منكم مسؤول ، كل واحد بحسب طاقته ، الشحَّاد يستطيع أن يساعد فلسطين بقرش في الشهر .

قرش في الشهر ، (وفرنك) في الشهر ، وورقة في الشهر ، وخمس أوراق في الشهر تحيي فلسطين !

سيبكي بعض القرَّاء وينتحب ثم ينام ولا يدفع شيئاً .

سيهزُّ بعض الموظفين أكتافه ، ويقول : أنا لا أشتغل بالسياسة ، ثم يذهب إلى السينما ، أو البار ، أو دار القمار .

سيفرك الشيخ كفَّه ويقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم يذهب يعدُّ قروشه على سبحته .

سيلوح التاجر بيديه ، ويقول : التجارة واقفة ، ماذا نصنع ، ثم يذهب إلى السوق ليشتري بسبعين قرشاً طعام يوم واحد .

لا . يا سادة ! لا البكاء ينفعنا ولا الحوقلة . . .

لا . إن هذه ليست سياسة ، ولكنها واجب وطني ديني إنساني .

لا . إن أصغر تاجر يستطيع أن يساعد فلسطين .

يا أيها الناس . إن المئات من النساء يَدُرْن في الطرقات ، جائعات عاريات . . . في مدن فلسطين ، وفي أراضي الشام .

إن المرأة التي ذهبت الآن من دارنا مثال من هؤلاء النساء .

فمن يتطوَّع للبحث عنهن ومساعدتهن ؟ من يتقدَّم فيستأجر لهن الدور ، ويجمع من الناس فينفق عليهن ؟

أتذهب هذه الكلمة صيحة في واد ؟

ألم يبق في البلد مسلم ؟ ألم يبق عربي ؟ ألم يبق شريف . ألم يبق إنسان ؟

أتعاد مأساة أندلس جديدة ، وأنتم تنظرون .

ألم يكف هذا الموقف المخجل الذي وقفه ملوك العرب ؟ أتكون الشعوب العربيَّة أيضاً مقصرة ؟

مئة وعشرة أيام مرَّت على فلسطين ، لا البائع باع فيها ، ولا الصانع اشتغل ، ولا الأجير أخذ أجرته ، فمن أين يعيش فقراء فلسطين ؟ من أين يجدون ثمن الخبز ؟

ألم تفكِّروا في هذا ؟

ألم يخطر لكم على بال ؟

أتاكلون وتشربون ، وتلعبون وتطربون وأهل فلسطين يموتون ؟

ياللعار !

أما إنها والله ليست مسألة كلام يقال ، ولا مقالة تكتب ، ولا خطبة تخطب ، ولكنها مسألة حياة أو موت ، فتبًّاً لمن ينظر أخاه يموت ولا يمد إليه يداً وسُحقاً لمن يرى أخته تموت من الجوع ولا يقدم لها رغيفاً . .

إن من يفعل هذا ليس مسلماً ولا عربياً ولا إنساناً !

لكن في دمشق بحمد الله مسلمين ، وفيها عرباً ، وفيها ناساً ، فلننظر ما يفعلون !

* * * *

بمناسبة (أسبوع التسلح) في سوريا :

شعب لن يموت

نشرت سنة ١٩٥٥

أما والله لولا أني أصف مشاهد لم يمرَّ عليها الأسبوع ، ولا تزال في عيون الناس وأسماعهم ، ولا يزال حديثها على ألسنتهم ، ولا تزال روعتها في قلوبهم لَحَسبوا أني أتخيَّل ، وَلَقال القائلون منهم : نحن نستحبُّ صور الخيال ، ولكنها إن بلغت في الغلوِّ هذا المبلغ صارت من المُحَال . . .

ولو رُويتْ لي ولم أرها بعيني رأسي ، لم أصدِّقها ولو كان راويها أصدق الناس .

ولما خطبت في حفلة افتتاح (أسبوع التسلح) ، كنت أعلم أنه سيستجيب هذا الشعب ، وأنه سيلبي ، وأنه سيُقبل على البذل والعطاء ، ولكني كنت أقلِّب النظر في وجوه الحاضرين ، فلا أرى من أهل المال إلا عشرين أو ثلاثين ، فكان أقصى أملي أن يُعطي هؤلاء وحدهم ثم ينتهي الفصل ، ويرخى الستار . . .

فلم تكد تنتهي الخطب ، ويبدأ العشرة الكبار من رجال المال بالتبرُّع ، وتذكر مئة الألف ، والمئتان ويترقَّب الناس أمثال هذه الأرقام الكبار ، وإذا برجل عاميٍّ ويبدو عليه الفقر ، يقوم من غمار الناس ، فيقسم أنَّ بنته مريضة في الدار ، وأنه لا يملك إلا هذه الليرات الخمس التي استقرضها ليشري بها لِبنْتِه الدواء ، وهو يبذلها للتسلح . . .

ففتح بذلك الباب لهذه المكرمات التي زادت هذا الوطن شرفاً على شرفه ، ورفعته في عيون أهله ، وعيون الناس ، فوق رِفْعته !

ويجيىء جندي من جنود الدرك ، مرتبه مئة وخمسون ليرة للشهر كلّه ، فيسلِّم

السلام العسكري ، يقرع قدماً بقدم ، ويقدِّم مئة ليرة . . . ويأتي طفلٌ صغير بِمَطْمورته ويتزاحم الناس على منصَّة اللجنة ويتدافعون ، والرابح من استطاع أن يصل إليها وأعطى ما بيده ، وتتوالى مشاهد لم يَرَ الناس ولم يسمعوا ، ولم يقرؤوا في كتب التاريخ ، ما يماثلها ، أو يدانيها ، ولن أسجل هذه المشاهد كلها ، وأنّى لي ؟ وليست عَشْراً ولا عشرين ولكنها بلغت المئات .

مشاهد هؤلاء الذين لم يمنعهم المطر الذي كان ينهمر في تلك الليلة كأفواه القرب ، ولا الريح التي كانت تَلْسع الوجوه بأمثال السياط ، من أن يزدحموا على الباب يبتغون الوصول ، وقد حسبهم الشُّرَط قد جاءوا للتفرُّج فجعلوا يدفعونهم ، لم يدروا ولم يكن أحد ليدري ، أنهم ما خرجوا من بيوتهم في هذا البرد ، ولا وقفوا على الباب تحت المطر ، ولا زاحموا إلا ليعطوا ويبذلوا . . .

لقد كان هذا الأسبوع امتحانا لسلائق هذا الشعب وأخلاقه ، واستعداده للتضحية والجهاد ، فنجح فقراؤه وأوساطه ، نجاحاً مُفْرداً ليس له نظير ، لقد ضربوا (كما يقول الرياضيون) كل رقم قياسي ، وسبقوا كل سابق ، وسَموْا حتى لقد كان منهم من فعل فِعال الصحابة الأوَّلين .

فقراؤه وأوساطه فقط ، أما الأغنياء فقد سقط أكثرهم في هذا الامتحان .

* * * *

وهل يتصور إنسان أن يكون في روائع البذل والكرم ، أعجب من صنع هذا الحمَّال العجوز ، الذي كدح حياته كلها ، يحمل الأثقال على ظهره ، والهموم في قلبه ، حتى جمع عشرة آلاف ليرة ، جمعها في ستين سنة ، فبذلها كلَّها للتسلح ، بذل في لحظة واحدة ثمرة تعب ستين سنة ؟

وهاتان العجوزان اللتان لا تملكان من الدنيا إلا الدار التي تسكنان فيها ، فلما سمعتا بالدعوة إلى البذل للتسلح ، جاءتا بسند التمليك ، بسند التمليك يا ناس ، تبرَّعتا بالدار !

أرجو أن تقفوا قليلاً لتتصوَّروا مبلغ هذه التضحية ، إنكم تعرفون أن النساء

في العادة أكثر إمساكاً ، وأقبض يداً من الرجال ، فإن كنَّ عجائز ازداد إمساكهن وحرصهن ، وجرِّب (إن شئت الدليل) أن تقنع عجوزاً غنيَّة ، أن تنزل لك عن عشر ليرات ، تجد صعوبة في إقناعها وربما عجزت عنه ، فكيف جادت هاتانِ المرأتان بكل شيء ؟

والعشرات من الفتيات . . . العشرات ؟ بل المئات والله اللواتي نزعن أساورهنَّ من أيديهنَّ ، وأقراطهنَّ من آذانهنَّ ، وَجُدن بها .

وأنتم تعلمون أن المرأة تقطع الخبز عن فمها ، لتجعل الذهب في يدها . واللاجئة التي لم تجد ما تجود به ، فجاءت بِقِدْرِها (طنجرتها) وبثلاثة أثواب لها ، وبثلاثين ليرة لا تملك غيرها .

وليست في ذلك وحدها ، لقد أعطى كثيرون كل ما يملكون ، هذا بائع النفط مرَّ (الكشَّافون) على عربته فسألوه التبرُّع ، فأخرج درجه ، وفيه حصيلة يومه كله ، وصبَّه بين أيديهم . . . أعطاهم كل ما كان فيه ، كل ما كان يملك في الدنيا من مال ، وهل لهذا البيَّاع من مال إلا ما يجمع في يومه ؟ جَادَ به كله ، جاد بخبز عياله . . .

والموسيقي الفقير الذي لم يكن يملك من دنياه إلا (آلته) ، يناجيها ويسارّها ، ويلقي بصدرها يبثُّها شكوى نفسه ، ويفرغ فيها أحزان فؤاده ، جاء بها فوضعها على المنصة ومشى . . .

مشى كالحبيب الذي ينصرف من جنازة حبيبته بعدما يواريها التراب .

وبطل الدرَّاجات الذي جاء بدراجته ، وهي له كالآلة للموسيقي ، هي خليلته ونجيَّته وشقيقة روحه .

وهذا المثل الرائع في إنكار النفس والإخلاص لله ، وابتغاء ثوابه وحده ، مثلٌ ضربه رجل مجهول من دمشق ، تبرَّع بخمسين ألف ليرة ، وحلَّف اللجنة بالأيمان الغلاظ أن لا تبوح باسمه .

تصوَّروا هذا الرجل يسمع الثناء على هذا المتبرع المجهول فيملك نفسه لا

تحركه الأثرة حتى يقول ، أنا ذلك المجهول . ويجد آخرين ينتحلون هذه المزيَّة لأنفسهم أو لأصحابهم ، فيعلنون أن هذا المجهول هو فلان أو فلان ، لناس ما دفعوا شيئاً ، وهو الذي دفع خمسين ألفاً ، يسمع ويسكت لا يقول شيئاً ، ويلقى من يلومه على أنه لم يعط عطاء الكرام ، فلا يقول لهم ، لقد أعطيت ، وأنا صاحبِ تلْكم الخمسين ؟

أنا قد أتوهَّم في نفسي القدرة يوماً على أن أعطي كل ما عندي ، ولكني لا أظن أني أستطيع أن أسمو يوماً إلى هذه المرتبة ، إنها مرتبة الصدِّيقين !

ماذا أصف ؟ وماذا أعدد ؟ وهذه المواقف قد جلَّت عن الحصر .

هذا مشهد ما أظنُّ أن في المشاهد ما هو أروع منه ، رجل ضرير (شحَّاد) ، جاء هو وابنه الطفل المشلول ، يتلمَّس طريقه ، يُرْشِده هذا الولد المسكين ، الذي يجمع نفسه ثم يقفز على ساقين نحيلتين مقوّستين ، حتى إذا بلغ المنصَّة وضع عليها سبع ليرات .

سبع ليرات فقط ، ولكنها أعظم بسبع مرات ، بسبعين مرة من كل ما دفع الأغنياء ، وما أعطت الشركات والمصارف .

سبع ليرات ، هي طعامه ولباسه ودواؤه ، هي حياته وحياة ولده جاد بها .

لقد كانت جماهير الناس ، كلما شاهدت واحدة من هذه الروائع ، صفَّقت وهتفت حتى تحمرَّ الأكفُّ ، وتُبحَّ الأصوات ، ولكنها صمتت حيال هذا المشهد .

صمتت حتى ليسمع في المكان الرحيب ، وجيب القلوب .

ومن الصمت ما هو أدل على الإعجاب من كل هتاف .

وهذه أرملة ، لم يبق لها من زوجها الضابط ، إلا سيفه العسكري ، فلما كان أسبوع التسلح جاءت به ، فقطعت آخر ذكرى تربطها بمواضي أيامها ، بعهد العز والغنى ، إذ الشمل مجتمع ، والدهر باسم ، والعيش رغيد ، وولَّت تستقبل وحدها ، ليالي الفقر السوداء .

وهؤلاء المرضى الذين جاؤوا من أسرَّتهم ، في مستشفى الجامعة ، إلى القاعة

القريبة التي تقوم فيها منصَّة التبرع ، يحملون ما وصلت إليه أيديهم من مال أو متاع ، لم تشغلهم أوجاعهم عن تلبية داعي الله ، لما دعاهم إلى الجهاد بالمال ،

ومرضى مستشفى ابن النفيس ، الذين تبرَّعوا بثمن البيض طول أسبوع التسلح ، ولم يستطع الطبيب أن يقنعهم بالاكتفاء بيوم واحد ، إلا بجفاف الريق ، وشقٍّ النفس .

وأنتم تعرفون أن البيض ، هو حياة أولئك المسلولين ـ شفاهم الله ـ حياتهم وقد جادوا بها !

لا ، لا أستطيع أن أعلق على هذا الخبر .

إني قد عجزت ، وأنا مقر بعجزي ، ولن أدَّعي بعد اليوم أني من فرسان الكلام ، واني من أرباب الأقلام .

* * * *

لقد تكوَّمت على المنصة أكوامٌ من ساعات اليد ، ومن الأقلام ، ومن الأساور والأقراط ، ولقد قدِّمت مئات من آلات التصوير ، والرواد[1] والدرَّاجات ، والمسدَّسات والأحذية وأنواع الثياب وكل ما في البيوت من غال ورخيص .

لقد خلع كثيرون من الشباب أرديتهم ، ودُثُرهم[2] لأنهم لم يجدوا ما يعطونه غيرها ، وخرجوا يستقبلون برد الليل .

ومن أعجب ما رأينا في هذا الأسبوع ، وكل ما رأينا عجب ، ما صنع السجناء .

نزلاء السجون يا ناس . لم تحلِ الأسوار ولا الأبواب ، بينهم وبين المشاركة في هذا الواجب ، ولم تدفعهم كراهة الجند الذين يسدُّون عليهم منافذ الحريَّة ، من أن يعطوا ما عندهم لمساعدة الجند على التسلح .

---

(١) ج راد ـ راديو .

(٢) كنزاتهم .

وماذا ترونهم أعطوا ؟

أعطوا والله لحفهم ، وأرديتهم . . . لأنهم لا يملكون غيرها ، وناموا على أرض السجن بلا غطاء .

اللهم إن هذا شيء يجلُّ عن الوصف ، ويكبر عن التعليق .

وما هم وحدهم ، لقد قدمت مئات من فرش ولحف ، ومن ثياب العرس ، ومن (خواتم الزواج) . . .

وطالت حفلة الافتتاح ساعات ، وكان المذياع يحمل إلى البيوت كل ما كان فيها من أصوات ، وَسَرتِ الحماسة من هذا البهو إلى أطراف دمشق كلها ، فجفا الرجال والنساء والأطفال بيوتهم في هذه الليلة الشاتية العاصفة ، وتسابقوا إلى منصَّة التبرع .

وسرت إلى البلاد البعيدة ، فتعاقبت الهواتف من مرجعيون ومن حلب ، تُؤذِن بتبرع من فيها .

وأنا أحلف أن لو كان يوزَّع عند هذه المنصة المال ، ويُعطى جزافاً لما كان الناس أسرع إليها ، وأزحم عليها ، مما كان في تلك الليلة . وكان يسمع من المذياع صوت أعضاء اللجنة ، يرجون الناس أن ينتظروا دَوْرهم ، ولا يتزاحموا ، فلا يستجيب أحد ولا ينتظر .

ولَّما طالت صاح عريف الحفلة ، يرجو راحة خمس دقائق ، خمس دقائق فقط ليستريح فيها أعضاء اللجنة من تعب الأخذ ، لا ليستريح الناس من تعب البذل ، فما تعب من البذل أحد .

ورُفض الرجاء ، وتتابعت التبرعات .

فهل سمع أحد بمثل هذا ؟

أنا أعرفُ الناس بطيب عنصر هذا الشعب ، وأنا الذي يكتب من أكثر من ربع قرن يمجد سلائقه ومزاياه ، وأنا الذي جعل هذا موضوع خطبته في حفلة افتتاح أسبوع التسلح ، ومع ذلك دهشت .

دهشتُ والله مما رأيت .

كيف كان هذا كله ؟ كيف اندفع الناس إليه ؟

وما كانت الدعاية لهذا الأسبوع كافية ، لا والله ، ولا كان ترهيب ولا إكراه ، ولو كان إكراه ، لكان على الأغنياء الذين قصَّروا ، وقصَّروا ، وقصَّروا ، أعيدها ثلاثاً للتوكيد .

ما كان هذا بفعل بشر ، ولكن بدافع إلهي .

وأعجب الحوادث كلها ، وما أدري أيها أعجب ، أن غنياً معروفاً ، ضنَّ إلا بالقليل فقدَّم ثلاثة آلاف ، وهو يقدر أن يدفع ثلاثة ملايين ، فدفع ذلك موظفاً صغيراً فذهب إلى اللجنة وقال لهم :

إن مرتبي في الشهر ، مئتان وخمسون ليرة فقط ، وهاكم تنازلاً عنه لمدَّة سنة ، عن ثلاثة آلاف أصبرُ عنها أنا وأهلي ، ولو عشنا على الخبز القفار ، بشرط أن تردُّوا على هذا الغني آلافه الثلاثة .

* * * *

ألا إن ما كان في هذا الأسبوع شيء يفوق الوصف .

شيء لم يسمع به أحد ، ولم يَرْوِ مثله تاريخ أمة من الأمم .

لقد كان حصاد هذا الأسبوع شيئاً أكبر من المال ، روحاً جديدة صبَّت في أعصاب هذا الشعب فلن يموت معها أبداً ، ولن يغلب .

لقد ظهرت الحقيقة التي كانت خفيَّة ، حتى رآها القريب والبعيد ، وهي أن هذه الأمة (أمة محمد ﷺ) أطيب الأمم ، وأغناها بالمكارم والبطولات ، وأقدرها على التضحيات .

إنكم لاتدرون ماأثر هذا الأسبوع في نفوس الأطفال والشباب .

لقد أدركتُ وثبة سورية على عهد الاستقلال سنة ١٩١٨ ، وبقيتْ صور تلك الحماسة وذلك النشاط ، ذخيرة في نفسي إلى اليوم .

ومن مَدَدِها كل ما (كان) في قلبي وعلى لساني من الحماسة والاندفاع .

فكم تظنُّون هذا الأسبوع سَيُخْرِج من خطباء وكتّاب وقادة ؟ سترون أثره في مقبلات الأيام .

* * * *

إن أمة محمد ﷺ ، لاتزال خير أمم الأرض ، ولا يزال إرث الماضي المجيد في دمائها ، ولاتزال عزّة الإيمان في قلوبها .

ولكنها تحتاج إلى شيء واحد .

إلى قائد مؤمن مخلص ، يدعوها إلى الجهاد ويمشي إليه أمامها .

* * * *

أدب هذا . . . أم ماذا ؟

نشرت سنة ١٩٣٤

. . . إني ليسرُّني والله ويثلج صدري أن أرى إخواننا الشبّان النابهين من طلّاب البكالوريا ، ينصرفون إلى الأدب ، ويعالجون صناعة البيان ، ويكتبون القصّة والمقالة وينشرون في الصحف . . . وإني ليعجبني أن تنتعش الروح الأدبية في هذا البلد ، ويسجَّل في قائمة « المشتغلين بالأدب » أسماء جديدة ، إذا لم يكن لأصحابها بلاغة شيوخ الأدب ، واطّلاعهم الواسع ، وعلمهم وعقلهم ، فإن لهم الحماسة ، وإن لهم لنشاطاً ليس للشيوخ مثله .

ولكن لاأحب أن ينسى إخواننا الأدباء الجدد ، وهم يكتبون وينشرون ، أنه سيقرأ مايكتبون الفتى الناشيء ، والفتاة في الخِدْر ، وأنه سيقرأ الجريدة الأب على أولاده ، والولد على أبيه ، فلايكتبوا فيها ماتستحي الفتاة أن تقرأ على أبيها ، ولايألم الأب أن يقرأه على فتاته ، ولايكتبوا إلا ماتسمو به الأخلاق ويزكو به الأدب ، وتقوى به الوطنيَّة ، وتعزّ به الفضيلة . . .

. . . ولقد قرأت اليوم ـ في جريدة محلية ـ قصَّةً اضطررت والله معها إلى أن أمزق الجريدة ، وأخفي قطَعها عن إخوتي وأخواتي ، كيلا يقرؤوها ، وفعلت مثل ذلك من أيام . . . ولعلني سأفعله كثيراً إذا لم يشأ إخواننا الشبّان . . . أن يُقلعوا عن هذا النوع من الأدب ، ويستبدلوا به أدباً فاضلاً عفيفاً ، يصوِّر شيئاً غير هذه الثورة الجنسية ، وينظر إلى المرأة ـ إذا لم يكن بدٌ من ذكر المرأة ـ نظرة أسمى : يرى منها نفسها وأخلاقها ، ودينها وعفافها ، وعملها في الحياة ، لاجسمها وحده . . . وينظر إلى المرأة « الأم » ، وينظر إلى المرأة « الزوجة » ، وينظر إلى المرأة (الأديبة) أو (العالمة) أو (المُصْلِحَة) لاإلى المرأة من حيث هي « امرأة »

فقط . . ويتّخذ الأدب وسيلة للإصلاح ، أو يمتنع ـ على الأقل ـ أن يتخذ منه سبباً إلى الإفساد . . .

ومامعنى قصّة لاتصف إلا الجانب الأرضيّ من صلة الرجل بالمرأة ، الجانب الذي يبدوان منه زوجين من أزواج الحيوان ؟ وأي جداء لهذه القصة سوى أنها تنبه في قارئها هذا الحسّ الحيواني . . . وتدفعه إلى إرواء هذا الظمأ الجنسي من أقرب مستنقع ؟

على أن الذي يدفع « أدباءنا الشباب » إلى هذا الأدب العاري . . الأدب المخنّث . . . أنهم يقرؤون في قصص الغرب ويرون في روايات السينما مثله . . ولايعلمون أن الأدب في جملته والأدب القصصيّ على التخصيص ، يجب أن يمثّل الحياة الموضعية ، ويعرضها في أشكالها كلها ، ويصف جوانبها جميعاً ، ولايعلمون أنه إذا مثّل هذا الأدب حياة الغرب ، فإنه لايمثل حياتنا ، وإن زقاق الصخر ومافيه . . ليس دمشق كلها ، وإن في دمشق بحمد الله شيئاً غير حياة هذه « البنسيونات » الوضيعة . . إن فيها لحياة عائلية محترمة ، إن فيها لشرفاً ، إن فيها لجمالاً ، إن فيها لبطولة ، إن فيها أشياء كثيرة ، كلها شريف وكلها جليل ، ولكن إخواننا الذين يكتبون هذه القصص ـ كما يظهر لنا ـ لايريدون أن يعرفوا شيئاً منها ، ولايريدون أن يصفوها ، ولايريدون أن يخرجوا من هذه الدائرة التي تحدُّها مدرسة التجهيز الجديدة من هنا وشارع بغداد من هناك . . . ولهم أن يصفوا ماشاءوا ، ولهم أن يهتموا بالذي يحبُّون ، أمّا أن ينشروا في جريدة يومية قصصاً لافائدة منها ولاجدوى . . . إلا أنها تفسد أخلاق الناشئة وتدلهم على الطريق ، التي ينحدرون منها إلى الهاوية . . . فشيء لايمكن أن يحتمل .

* * * *

فيا إخواننا (الشبّان الأدباء) .

اعذرونا . . . إننا لانستطيع أن نتخلّى عن أ خلاقنا وشرفنا وعفاف أبنائنا وبناتنا إكراماً لخاطركم ، وحباً بعيونكم فأقْلعوا ـ والله يرضى عنكم ـ عن هذا

الأدب المخنَّث العاري ، واعملوا على تهذيب النفوس وكبح جماحها ، وإحياء الفضيلة فيها واجعلوا أدبكم السلاح الذي تقتلون به الرذيلة . . . لاالحبل الذي تجرُّون به الشباب إليها !

* * * *

حطين

أذيعت سنة ١٩٥٩

كان يوم أمس الأول ، يوم الأربعاء ، هو ذكرى معركة حِطِّين المعركة التي فتحت القدس ، وأنقذت الشام من استعمار الصليبيين .

وقد مرَّ من غير أن يشعر به أحد .

مرَّ كما تمرُّ الأيام كلُّها ، مع أنَّ من حقه علينا أن نجعله يوماً مُعْلماً من أيامنا الغرِّ المحجَّلات .

وأنا لاأستطيع أن أقول في هذه الدقائق كل ماينبغي أن يقال ، فدعوني أكتفي بالتلميح والتلويح ، عن التصريح والتوضيح

* * * *

القدس ياسادة في أيدي المستعمرين الغربيين الصليبيين لهم فيها دولة ، ولهم في أنطاكية دولة ، وفي أطرابلس دولة ، وفي يافا دولة ، ولم يكن هؤلاء المستعمرون أبناء أمة واحدة من أمم أوربة ولكنهم أبناء أوربة كلها ، قد اتَّحدت دولها ، واجتمع أمراؤها ، وحشد رجالها ، ليكونوا جميعاً في وجه هذه البقعة الصغيرة من الوطن الإسلامي ، ولم يكن قد مرَّ عليهم سنة ولاسنتان بل مرَّ عليهم والقدس في أيديهم ثلاث وتسعون سنة ، ولم يكن أمامهم دولة إسلامية واحدة قوية ، بل كان أمامهم دول صغار مختلفات مُحْتَرِبَات ، كان في سورية من الدول بمقدار ماكان فيها من المدن .

كانت هذه هي حال البلاد لما تسلَّمها نور الدين ، ثم سلمها إلى صلاح الدين .

وتوالت الوقائع ، وتتابعت المعارك ، وصنع هذان البطلان العجائب ، ولكن لم يكن في هذه المعارك كلها معركة أعظم من حطّين ، ولم تنزل على رؤوس الصليبيين ضربة أشد من هذه الضربة التي تلقّوها من صلاح الدين ، منذ وطئت أقدامهم ديار الشام سنة ٤٩٠ هجرية ، إلى أن كانت معركة حطين ، يوم الأحد ٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ .

بدأت هذه الحرب يوم الجمعة ١٧ ربيع الآخر ، وكان صلاح الدين يتعمّد أن يُواقعَ العدوّ يوم الجمعة ، تبرُّكاً به وبدعاء الخطباء فيه على المنابر ، سنّةً من كان يعلم أن إعداد القوّة إنما هو سبب من الأسباب ، وسبيل إلى الإرهاب ، ﴿ وَمَا النَّصْرُ إلا مِنْ عِندِ اللهِ ﴾ فجمع جيوشه كلَّها ونزل على بحيرة طبرية ، وكانت جيوش الصليبيين قد اجتمعت كلّها في (مرج صفوريّة) بأرض عكّار ، وكانت هذه أول مرة تجتمع فيها قوى الطرفين جميعاً على تعبئة ، وفي جبهة واحدة ، وأخذ الجيش مواقعه ينتظر أن يهاجمه الإفرنج ، فلما لم يتحركوا ولم يهاجموا ، ترك صلاح الدين الجبهة على حالها ، وتوجّه بقسم من الجيش إلى طبريّة ، ففتحها بعد معركة قصيرة لم تدم أكثر من ساعة واحدة ، وكان ذلك يوم الأربعاء ٢١ ربيع الآخر ، ولم يكن قصده طبرية بالذات ، بل كان قصده استدراج جيوش الإفرنج لتكون المعركة في المكان الذي اختاره . وهكذا كان ، فإن الجيوش الصليبية تحركت نحو طبرية ، فترك صلاح الدين في المدينة حامية صغيرة ، ورجع إلى الجبهة التي بقيت على حالها ، واضطر الإفرنج إلى منازلته في مكانه ، فكانت المعركة على سفح جبل طبرية الغربي ، وامتدّت إلى مساء الخميس ٢٢ ربيع الآخر ، فحجز الليل بين الطرفين ، فلما طلع النهار استؤنفت المعركة ، واشتدّت ، واستمرّت النهار كلَّه ، (أي نهار الجمعة) ، ووقفت في الليل ، وفي صباح السبت ، استؤنفت المعركة مرة ثانية ، واستمات الإفرنج في القتال ، وكادوا يطوِّقون جبهة صلاح الدين ، فأمر الخطباء أن يُحَمِّسوا الناس ، وأن يذكِّروهم بالله ، وأن يستثيروا في نفوسهم قوة الإيمان ، وهي أقوى سلاح لنا على عدوِّنا ، ثم أمر بالهجوم العام ، فصاح المسلمون صيحة واحدة ، وكبَّروا تكبيرة اهتزَّ لها السهل

والجبل ، وهجموا كالسيل الدفَّاع ، فتضعضع جيش الإفرنج ، وكان القونص (الكونت) حاكم طرابلس بمثابة المدبِّر لهذا الجيش ، فلما رأى هذا الهجوم هرب إلى صور وترك المعركة ، فكان ذلك من أسباب الهزيمة ، فلم تمرَّ ساعتان حتى انسحب الإفرنج انسحاباً مضطرباً بلانظام ، فاعتصموا بـ (تل حطين) .

ولحقهم صلاح الدين ، وكانت المعركة الكبرى يوم الأحد ٢٥ ربيع الآخر ، فانهزم الصليبيون هزيمة كاملة ، وأسِرَ ملوكهم الملك جفري (جود فروا) والبرنس أرناط (رينولد) وكان هذا البرنس غدَّاراً خوَّاناً ، أراد الغدر بالمسلمين بعد ماأمَّنهم ، فناشدوه الشرف والمروءة ، وذكَّروه بالمعاهدة والأمان ، فلم يردَّ عليهم وشتم نبيِّهم ، وقتلهم شر قتلة ، فنذر صلاح الدين إن مكَّنه الله منه أن يعاقبه بالقتل ، فلما دخل عليه مع الملك ، كان الملك في غاية العطش ، وكان بيد صلاح الدين كأس شراب مثلَّج فدفعها إليه ، فشرب منها وأعطاها البرنس ، فقال صلاح الدين للترجمان : قل له ، أنت الذي سقيته لا أنا .

لأن من جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم (كما يقول ابن شداد) إن الأسير إذا أكل طعام آسره أو شرب ماءه كان ذلك أماناً له .

ثم حاكم البرنس على جريمته فما استطاع دفاعاً ، فعرض عليه الإسلام لينجو من القتل ، فأبى فقتله بيده ، وطار قلب الملك ، وحسب أنه سيلحقه به ، فقال له :

لم تَجْرِ عادتنا بأن تقتل الملوك إذا أسرناهم ، وماقتلناه إلا عقوبة له على جنايته .

* * * *

ولم يأت الخامس عشر من رجب من تلك السنة (سنة ٥٨٣) حتى حُررت القدس واستُرِدَّت من أيدي الصليبيين .

وكان الإفرنج قد نزلوا في القدس سنة ٤٩١ فصنعوا فيها مالاتصنعه وحوش الغاب ، وارتكبوا فيها من ألوان الجرائم مالاتفعل أكثر منه الشياطين ، لبثوا

أسبوعاً وهم يقتلون المسلمين ، فبلغت عدَّة من قتل منهم في المسجد الأقصى وحده سبعين ألفاً ، منهم جماعة كثيرة من الأئمة والعلماء والمجاورين والمتعبِّدين ، وكانوا يجبرون المسلمين على إلقاء أنفسهم من أعالي البيوت ، لأنهم كانوا يشعلون النار عليهم وهم فيها ، فلايجدون مخرجاً من النار إلَّا بإلقاء الأنفس من السطوح ، وكانوا يجرُّونهم في الطرقات كما يفعل اليوم عملاؤهم في العراق ، وهذا الذي أرويه منقول كلُّه عن مؤرخي الفرنج .

فلما استردَّ القدس صلاح الدين ، كان فيها مئة ألف من الصليبيين ، مع أن عددهم لَّما فتحوها لم يكن يزيد على خمسين ألفاً ، وكان يستطيع صلاح الدين أن يعاملهم بمثل عملهم ، وأن يضربهم بالسيف الذي ضربوا به ، ولكنه لم يفعل ، بل أراهم كرم العرب وعدالة المسلمين ، وتركهم يخرجون أحراراً سالمين ، ويُخرجون معهم أموالهم ، ولم يأخذ منهم إلَّا مبلغاً قليلاً فرضه عليهم تعويضاً عما سببوا للمسلمين من أذى ، وهو عشرة دنانير عن الرجل ، وخمسة عن المرأة ، ودينار واحد عن الولد ، وعامل الكبار والوجوه بالإكرام ، وعامل النساء باللطف والإحسان ، ورفق بالأولاد ، ومنع التعدِّي على واحد منهم أو الإساءة إليه ، وكانوا يذكرون ماصنعوا بالمسلمين ، فلما رأوا هذه المعاملة ، امتلأت قلوبهم إكباراً للعرب وللمسلمين ، ولبث مؤرِّخوهم إلى اليوم يتحدثون مدهوشين بما كان من صلاح الدين .

هذه خلائقهم وهذه خلائقنا :

ملكنا فكان العدل منا سجيةً ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحلَّلْتموا قتل الأسارى وطالما ... غَدَوْنا على الأسرى نمنُّ ونصفح
فحسبكمُ هذا التفاوت بيننا ... فكل إناء بالذي فيه ينضح

* * * *

ياأيها السامعون :

هذه صورة تقريبية لمعركة حطين .

لقد استرد بها صلاح الدين القدس ، بعدما لبثت في يد العدو ثلاثاً وتسعين سنة ، فهل نعجز عن استرداد فلسطين ولم يمر على فقدها عشر سنين ؟ وكانت تحمي القدس يومئذ جيوش أوربة كلها بأبطالها ورجالها ، فما خفنا أبطال أوربة ولارجالها ، فهل نخاف حثالة البشر ورجس الأرض اليهود ؟

لما فتح صلاح الدين حلب أنشده ابن الزكي قاضي دمشق قصيدة قال فيها :

وفتحكمْ حلباً بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

فكان كما قال :

وهذي بشارة مني فاسمعوها :

في وادي اليرموك كانت المعركة الأولى التي هزمت الروم وحرَّرت منهم بلاد الشام ، وفتحتها للإسلام .

وفي تلِّ حطِّين (وهو إلى جنب اليرموك) كانت المعركة الثانية التي طهَّرت الشام من الصليبيين وردَّت القدس إلى المسلمين .

وفي سمخ وطبريَّة ستكون المعركة الثالثة التي تحرِّر فلسطين وتغسل عن هذه الأرض رجس الصهيونيين .

وسيكون ذلك بعد حين .

* * * *

عام ١٩٦٠

أذيعت في أول يوم فيه

إني لأتذكر اليوم ، وأنا واقف على رأس العام ، ماذا حملت إلينا الأعوام التي مضت ، وكم تبدَّلت من حولنا الدنيا ، وكم دار بنا الزمان .

كنَّا ونحن صغار نرى الحكَّام كلهم من الترك ، لهم السيادة ولهم التكرمة ولهم النعيم ، أوسع البيوت من سوق ساروجة وطريق الصالحية لهم ، وأعلى المناصب لهم ، ولغتهم التركية هي اللغة الرسمية ، لايصل أحد إلى حاجة في السراي إلا بها ، فإن كلَّمهم بالعربية ازدروه واحتقروه ، ودروس المدرسة تلقى بالتركية ، فمن لم يعرفها ويفهم بها عاقبوه وأسقطوه ، حتى لغتنا : اللغة العربية كانت تعلَّم باللغة التركية ، النحو العربي يدرَّس بالتركي فهل سمعتم بأعجب من هذا ؟ العربية أمُّ اللغات وسيدتها ، أكرم لغة في الدنيا وأعزُّها وأغناها وأشرفها ، تذلُّ أمام هذه اللغة المسيخة التي جمعت ألفاظها سرقة و (شحادة) من لغات الناس .

وكنا نسمع بآذاننا احتقار (ابن العرب) وسبَّه ، وتقديم التركي وتعظيمه .

كنا من حكم الاتحاديين المارقين في ظلام ، فأصبحنا يوماً فإذا الظلام قد انقشع ، وإذا العلم الأحمر الذي كان يرفرف على بناية السوقيَّات في سوق ساروجة حيث كان الشباب يساقون إلى الموت في سبيل الألمان ، وكان الأموات من الجوع مرميين في الطرقات ، إذا هذا العَلَم قد اختفى وعلِّق مكانه علمٌ جديد له أربعة ألوان ، وإذا هذا الهتاف الذي كنا نُلزم به كل صباح ، (يادشاهم جوق يشا) ، قد خفت وانقطع وارتفع مكانه هتافٌ جديد ماسمعنا بمثله من قبل : الهتاف بحياة الاستقلال العربي .

وكفَّت الألسنة عن ترديد تلك الأناشيد التركية ، وانطلقت بأناشيد جديدة ،

لاتمجِّد السلطان ، ولاتعظم الترك ، ولكن تمجِّد العرب ، وتعظِّم ملكهم ابن النبي ، أناشيد مضطربة الوزن ، فقيرة المعنى ولكنها جديدة ساحرة :

أيها المولى العظيم فخر كلٍّ العرب
ملكك الملك الفخيم ملك جدِّك النبي
سيروا للمجد طراً سيروا للحرب واستعيدوا بالمواضي دولة العرب

وفهمنا يومئذ أن العرب ماكانوا دائماً محكومين ، بل كانوا هم الحاكمين ، وكانوا هم أصحاب الدولة ، وهم كانوا سادة العالم وأساتذة الدنيا . وأن الترك لولاهم ، ولولا أن حملوا إليهم النور الذي انبعث من حِرَاء ، ماكان لهم في التاريخ مكان ، ولظلّوا أبداً هائمين مع الوحش في صحارى تركستان ، فاعتززْنا بعروبتنا ، وفخرنا بأصلنا .

وفتحنا أعيننا ، ورأينا في هذا النور الذي طلع علينا ، الحقائق التي كان يخفيها الظلام عنا ، ولكن هذا النور قد انطفأ فجأة ، كما طلع فجأة ، وإذا هذه السعادة حلمٌ مرَّ كما تمرُّ الأحلام .

لقد حسبنا أننا تخلَّصنا من الاتحاديين الذين كانوا أعداء العربية ، وأعداء دينها الذي نزل كتابه بلسانها ، وأعداء مجدها وحضارتها ، فإذا نحن نبتلى بمن هو شر منهم ، بالفرنسيين ، لقد نجونا من جمال باشا ، فإذا نحن نجد غورو .

وبدأت المحنة التي استمرَّت ربع قرن كامل ، لايزيد يوماً ولاينقص يوماً .

لقد أردناها وحدة شاملة ، سورية قطر من أقطارها ، فإذا نحن نرى في سورية وحدها أربع دول ، لقد جعلوا من دمشق دولة ، ومن حلب دولة ، ومن السويداء دولة ، ومن اللاذقية دولة . ولكل دولة حدود وعلم ورئيس ، ولكل دولة دستور وقوانين ، ورئيس هذه الدول كلها ، الذي يجمع فيها السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية ، موظف يأتي من باريز .

وكانت الثورة ، وكانت ثورة عجباً في الثورات .

قاتلنا فيها بلاسلاح ولاعدد ، الدولة التي خرجت من الحرب الأولى وجيشها أقوى جيش برّي في الدنيا .

لقد كانت تسوق فرنسا الحملة فيها خمسة آلاف ، فيتربَّص لها خمسون ثائراً وراء (دكوك) البساتين عند جسر تورا ، فيردوها ، لقد لبث اسم جسر تورا يتردَّد في البلاغات الفرنسية سنة ونصف السنة ، وفرنسا لاتستطيع اجتيازه ، لأن حسن الخراط يمنعها من أن تجتازه .

فهل يعرف تلاميذ المدارس اليوم ماجسر توره ؟ ومن حسن الخراط ؟ إن حسن الخراط ياأولادي ، لم يكن قائداً درس في الكلية العسكرية ، ولم يكن خريج الجامعة ، ولم يكن من أبناء الأسر المعروفة ، ولا من أرباب الأموال .

إن حسن الخراط حارس ليلي أتى من الشاغور .

لقد ترك وظيفته وخرج ليجاهد ويطرد الفرنسيين ، ولقد احتل يوماً دمشق ! وكنت تلميذاً في التجهيز (في مكتب عنبر) وكانت دارنا في الصالحية ، فنزلت إلى المدرسة والمدافع تضرب ، والرصاص يئزُّ ، فأرجعني شرطي ، فهربت منه ، ولقيت ثلاثة من رفاقي ، فنزلنا نمشي في طريق الصالحية ، حتى وصلنا إلى الأركان الفرنسية (الإيتا ماجور) التي غدت من بعد (ثانوية ابن خلدون) وهدمت من شهر ، فرأينا الضباط الفرنسيين والمصفحات ، فصرخ علينا أحدهم ، ولحقنا ، فدخلنا في (حارة بندق) إلى البساتين ، ولم يكن شارع بغداد ، ولم يكن على طرفي خط الترام إلاَّ صف أو صفَّان من البيوت ، ووراء ذلك بساتين متصلة ، ودرنا حتى وصلنا إلى العمارة ، وكانت الطرق خالية ، والثوار يركضون ، والقلعة تطلق رصاصاً فيسَّاقط من حولنا ونحن من صغرنا لاندرك الخطر ، حتى لقيت صديقاً لأبي من الثوار ، فزجرني وضربني كفًّا وأعادني إلى الدار .

ولكني لا أزال إلى اليوم أعتزُّ بأني رأيت دمشق لما احتلها الثوار . ولقد لبثوا فيها ثلاثة أيام ، ولو لقيت الثورة مدداً لَطُرِدَ الفرنسيون من الشام من تلك الأيام .

لقد عجز الفرنسيون عن الثوار فانتقموا من الأبرياء ، كما يفعلون الآن في الجزائر ، فأحرقوا الميدان وحيّ (سيدي عامود) ، الذي بقي خراباً سنين طويلة وسمي الحيُّ إلى الآن (الحريقة) ، كما سمي الحي الشرقي (الخراب) إلى اليوم ، لأنه خرب في غزوة تيمورلنك .

وذهبت بيوت من أجمل بيوت دمشق ، وقتل ناس من أكرم أهلها ، وبقينا سنتين وليس مع الفرنسيين إلاَّ لبّ البلد ، والباقي للثوار ، وكانت لهم في أطرافها (استحكامات) فيها جنودهم وراء أكياس الرمل ، ما يمرُّ بهم أحد إلا فتشوه ، ولا يمرُّ أحد إلاَّ بوثيقة منهم ، استحكام في العقيبة ، وفي باب الجابية ، وفي الباب الشرقي ، وعند جامع الشيخ حسن ، وفي سائر الأطراف .

وطالما هجم الثوار على البلد فاحتلوا الحيَّ الذي فيه مدرستنا (الثانوية الوحيدة في دمشق) (مكتب عنبر) .

ولمكتب عنبر هذا صفحة غراء في تاريخ النضال الوطني .

ولما نظم شوقي قصيدته (سلام من صبا بردى أرقُّ) تلوتها على الطلاَّب مجتمعين .

ثم ألقيت بعدها قصيدة خير الدين ، وكل ذلك أثناء الثورة ، ولما وصلت إلى قوله فيها :

وانظر إلى الآلاف من بُسَلائهم يغزوهم مئة من الثوار

صرخت بها صرخة وصلت إلى الشارع ، وكان المدير أستاذنا جودة الهاشمي رحمه الله ، فسمع الصوت فجاء ، فخفت وكدت أقطع الإلقاء ، فأشار إليَّ أن أكمل ، ووقف يسمع هو والمراقب الأستاذ عزة الرفاعي .

ووقف مكتب عنبر موقفاً لا يُنسى ، لما جاء المفوض السامي جوفنيل ، يزور المدرسة فاتفق الطلاب سرّاً على عدم استقباله . فدخل من الباب ومعه أركان

الحكومة ، فدعونا إلى الصف فما تحرك أحد ، ولذنا بالجدران ، فدخل مرتجفاً ، فخطب أحد الطلاب بالفرنسية خطبة زلزلت أركانه ، فقطع الزيارة ، ورجع من فوره ، وكان التحقيق فكانت الإدارة والطلّاب جميعاً على قلب رجل واحد ، ما استطاعوا أن يعرفوا من دبَّر الأمر ، ومن كان السبب فيه .

ثم بدأت حرب الشوارع ، وكانت تلك المواقف التي سطرها التاريخ لسورية بمداد الإكبار والإعجاب .

إني لأفكر في هذا كله ، وأنا أقف اليوم على رأس العام الجديد ، أفكر فيما كان وما صار ، فأرى أن الله أنعم علينا ، في هذه السنين الثلاثين بشيء عظيم .

هي حرب بين الغرب والشرق ، بدأت لما وصلت إلى بلادنا أول حملة صليبية قد انتهت يوم بور سعيد .

لقد كان ربحا كبيراً ، فلنحافظ عليه ، ولْنستدم هذه النعم ولْنستزد منها ، وإنما تدوم النعم ، وتزيد بشكر المنْعِم بها ، بحمد الله وطاعته واتباع شريعته .

لقد كان من برنامج الاتحاديين تتريك العناصر العثمانية ، أي محو العربية وإفنائها ، فخلّصنا الله من شرهم ، وأعاد علينا عربيتنا كاملة ، فلْنحافظ عليها :

على اللسان العربي ، على معرفة لغة العرب ، على التمسك بأخلاق العرب ، وفضائل العرب ، لقد كان العرب في جاهليتهم أصدق الناس ، وكانوا أغير الناس على الأعراض ، وكانوا أحفظ الناس للعفاف ، ثم اختارهم الله لأشرف مهمة ألقيت على عاتق بشر ، اصطفاهم من دون الناس لحمل النور الذي انبثق من حِراء ، ووضع في أيديهم المصباح الذي يضيء للناس طريق الخير والحق ، فحملوه ومشوا به ، فكانوا به أي بالإسلام سادة الدنيا .

فإذا أردتم أن تستعيدو في الدنيا مكانكم ، وتسترجعوا مجدكم ، فالطريق مفتوح أمامكم ، فاحملوا المصحف بيد ، والسيف بيد وامشوا على بركة الله .

وليكن هذا العام الجديد[1] مباركاً عليكم ، وليكن بداية مرحلة جديدة من حياة امتكم ، فيها الهداية ، وفيها السيادة ، وفيها السعادة ، وفيها كل خير لكم ، وكل عام وأنتم بخير .

* * * *

---

(١) وإن كان ليس عاماً لنا ، إنما عامنا الذي يبدأ بالمحرم ، ويدور مع القمر ، فياليت أنّا نعود إليه ، وندع الغربيين وعامهم وتاريخهم .

عدوان على مصر

نشرت سنة ١٩٤٧

« جلَّ الأمر عن المجاملة والهزل ،فدعونا نتكلم بصراحة وجد . . »

يعرض في مصر الآن فيلم اسمه (لبناني في الجامعة) ، تظهر فيه الجامعة أولا ببنائها وقبّتها حتى لا يبقى عند أحد شك أنها الجامعة المصرية ، جامعة فؤاد الأول التي في الجيزة ، وأن الذي يأتي من الوصف إنما هوَ لها ، بعينها وأذنها لا لجامعة غيرها ، وانها ليست قصة جامعة خيالية ، حتى إذا وثق صاحب الفيلم من أنك عرفتها وحقّقتها ، ساق لك مشاهدها ، وعرض عليك صورها ، فلم تَرَ فيها مظهر علم ، ولا دلائل تهذيب ، لم تَرَ إلاَّ الاختلاط الشائن واللهو المحرَّم ، والغرام والغناء ، كأن هذا كل ما في الجامعة ، وكأنها أنشئت لمثله : يجيئها الطالب اللبناني فيستقبله طالب مصري ، يأبى واضع الفيلم إلا أن يجعله مغفَّلاً كأنه ثالث المضحكين لوريل وهاردي ، وأن يسميّه (سونه) . . . فلا يمر على التقائه به ثلاث دقائق فقط حتى يعرِّف به الطلاب فيهتفوا له ، ويقوده رأساً لا إلى بهو المحاضرات ولا إلى المكتبة ، بل إلى البركة ، مع أنه جاء في وقت الدرس لا في وقت اللعب ، فترى في بركة الجامعة الطلاب والطالبات بالأجساد العارية ، والعورات البادية ، ثم تبصرهم يعمدون إلى طالبة لابسة ثيابها الكاملة فيحملونها فيلقونها في الماء ، فإذا خرجت كالقطة المبلَّلة حَفُّوا بها ضاحكين عابثين ، وتمضي المشاهد على هذا النمط لا تظهر غرفة الدرس إلا مرة واحدة ، يدخلها عمُّ الطالب اللبناني وهو في الرواية (المضحك) المعروف بشارة واكيم فيقطع على الأستاذ محاضرته ، ويفسد عليه درسه ، ويسخر منه ، ويستخرج ابن أخيه بلا إذن ، لأن عاشقته . . . تطلبه . . .

ويعرض (الفيلم) بيت الطلبة الذي انشأته الحكومة المصرية بأموالها لايواء الغرباء من الطلاب ، فاطمأنَّ بذلك آباؤهم في الشام والعراق والحجاز ونجد والمغرب واليمن ، لأنهم غَدَوا فيه بأمانة هذه الحكومة فما يُخشى المرض على أجسامهم ، ولا الفساد على أخلاقهم ، فلا يجعل بيت الطلبة إلّا (ماخوراً) فظيعاً . . . وترى اللبناني يدخله فيسقط في حفرة كان إخوانه احتفروها له ، فينزلون عليه بجماعتهم فينضون عنه ثيابه كلها إلا ما يستر العورة الكبرى ولا يكاد ، وتجيء طالبة ، طالبة في بيت الطلبة ، هل تسمعون أيها القراء ؟ تقبل عليه فيستحي هو ويخجل ، ولا تخجل هي ولا تستحي ، وتجرُّه من يده فتلبسه من ثيابه . . . فيستنوق الجمل ، ويتأنث الرجل ، ثم يجلسان على مائدة الشراب والغزل ، والطلاب ينظرون ، ولا يكتفي واضع الفيلم بهذا كله حتى يجيء بـ (سونة) فيقفه عليهما وقفة أبله ، فيقول للبُناني : هذه خطيبتي فكيف تأخذها مني ؟ ثم يضحك ويولِّي عنه كأن الأمر لا يعنيه ، وكأن هذا الفيلم قد تعمَّد فيه أن يكون لعنة على الرجولة والشرف ومصر وجامعتها معاً ، وعدواناً على أولئك جميعاً . . .

وما هذا الذي ذكرت إلا مثال مما في هذا (الفيلم) فهل يبلغ أعداؤنا منا أكثر من هذا ؟ وماذا يقول الناس غداً عن الجامعة المصرية وعن دار طلبتها إذا عُرض هذا (الفيلم) في بلاد العرب ورآه أهلها الذين يعدُّون مصر كعبة الثقافة ومورد العلوم ؟ هل يرسلون أبناءهم إليها ؟ أم يقولون إن هذه هي حقيقة الجامعة ، ولولا ذلك ما صوَّرها مصريون في هذا الفيلم المصري ، ولما سمحت حكومة مصر بعرضه ، ولما سكتت عنه إدارة الجامعة فلم تطلب منعه ، ولم تقاضِ أهله ، ولم تحرك من أجله ساكناً ؟

وهذا الفيلم مثال مما جرَّنا إليه تركنا ديننا وأخلاقنا ، وتقليدنا الغربيين في رذائلهم وحدها ، وحسباننا أن هذا هو التمدن وهذي هي الحضارة . وإذا كان هذا الفيلم قد سبق الزمان فصوَّر الجامعة بهذه الصورة المزوَّرة ، فإنه سيأتي علينا يوم تكون هذه هي الصورةَ الحقيقة للجامعة ، وللمستشفى ، وللمكتب ،

وللدائرة ، وللمخزن ، وللشارع ، وللترام ، ويكون كل مكان يلتقي فيه الرجل بالمرأة ملهى من الملاهي ، ولم لا ؟ واللذة مطلوبة ، والرغبة موجودة ، وما ثَمَّة حجاب يمنع العين ، ولا قانون يكفّ الجوارح ، ولا دين يَزَع النفس ، ولا شهامة تلجم الشهوات ، لِمَ لا ؟ ونار الشهوة الكامنة في كل نفس ، تؤججها هذه المجلات المصورة ، وهذه الأفلام الداعرة ؟ لذلك حرَّم شرع الإسلام ، ومنعت نخوة العرب ، اختلاط الفتيات بالفتيان ، لأي سبب كان .

أوليس من العجيب أنك تدخل في القاهرة السينما التي تعرض الفيلم الإفرنجي فترى له فكرة وموضوعاً وهدفاً ، وربما رأيت فيها الفيلم العلمي أو التاريخي الذي يمرّ كلّه فلا تسمع فيه كلمة غرام ، ولا ترى فيه قبلة . وتدخل لترى الأفلام العربية فتجدها كلها إلَّا النادر منها ، سخيفة النسج ، مضطربة الموضوع ، عمادها العري والخلاعة والتخنُث ورقص البطن ؟

أوليس أعجب منه أن تكون المجلَّات الإفرنجية أعفَّ في الجملة من مجلاتنا التي لا يخلو أكثرها من صور الأفخاذ والسيقان والبطون والنهود ، تسابقت في ذلك حتى بلغت الوقاحة ببعضها أن نشرت صور نساء عاريات لا يسترهن قليل ولا كثير ؟

أوليس أعجب من هذا كله ، أني ذهبت مساء الخميس الماضي إلى مجلس يجتمع فيه عادة فريق من أكابر رجال التأليف والتعليم في مصر ، فتكلَّمنا في هذا الموضوع ، فإذا أكثر الحاضرين بين غافل عن هذا الداء لا يبصره ، أو متهاون به لا يكبره ، أو راضٍ به لا يُنكره ، وإذا هم جميعاً يتسلَّون في ساعة الخطر ويلهون يوم الجد ، ويردِّدون هذه الكلمات الحلوة (حريَّة الرأي) و (ضرورات الفنِّ) و (مقتضيات العصر) ، والنار مشتعلة في البلد ؟ !

* * * *

يا أيها السادة المبجَّلون :

فكِّروا قليلاً فإنكم قادة الرأي فينا ، فلا تكونوا تَبَعا للعامَّة من أهل أوربة ،

فما يفلح قوم قادتهم تَبَعٌ للعوامِّ من أعدائهم ، فكروا بعقولكم التي في رؤوسكم لا بعقول أصحاب الوجوه الشقر ، تروا أن الحريات كلها ، والفنون جميعاً ، والحضارة من أساسها ، إنما كانت لتزداد بها الأمم قوة ، والناس إنسانية ، فإذا أساء قوم استعمالها وأخذوها من ذَنَبها ، فجاءت في ايديهم مقلوبة منكَّسة ، حتى تبدَّل وضعها ، وضاعت فائدتها ، وصارت للأمة ضعفاً لا قوة ، وأعادت الناس إلى البهيمية ، لم تَرتَقِ بهم سلَّم الإنسانية ، فقد وجب في شرعة العقل وجوباً درء ضررها ، ودفع أذاها ، وإلا كانت كالسيف يأخذه الأحمق الغرير ، فيجرح به نفسه ، وما كان السيف إلا لِيُردَّ به العادي ، ويُذاد به عن الحمى ، وما أظنُّ أن على ظهر الأرض عاقلاً واحداً ، يرضى أن يضحِّي بأخلاق أمته وعفافها ، من أجل مقالة فيها كلام جميل ، أو قصة فيها وصف رائع ، أو صورة فيها فن بارع ، وإن الأمم تعيش من غير أدب مكشوف ، وفن عار ، ولكنها لا تعيش بلا أخلاق .

وأنا أحب الأدب ، وأقدِّس الحرية ، ولكني أفضل أن نبقى مقيَّدة ألسنتنا وأقلامنا بقيد الإسلام والأخلاق ، على أن نهلك ونحن أحرار نقول ما نشاء ، فمن هو الذي يخالف في هذا من القراء ؟

لقد صارت المجلات تخاطب الشهوات بالصور العارية ، بعد أن كانت تخاطب العقول بالعلم الحق ، والقلوب بالأدب السامي ، وهبط الأدباء إلى درك السَفلةِ من القرَّاء بعد أن كان عمل الأديب رفع القراء إلى العلاء ، وانقلبت الجامعات مسرح ظباء ، وموعد لقاء ، بعد أن كانت دار العلم والتقى والصلاح ، وغدت السينما عندنا (تهريجاً) فاجراً ، بعد أن كانت السينما عند الناس درساً وعبرة وفناً ، وأوشكت هذه (الحرية . . .) وهذه (الحضارة . . .) أن تكون تعديا لحدود الشرع ، وهدماً لأركان الخلق ، ودعوة إلى الفسوق ، لا عمل لها إلا هذا ، ولا ثمرة لها غيره .

أفيرضى عقلاء مصر أن تظل على هذا الطريق ؟

* * * *

يا أيها الناس ! إن هذه المجلات ، وهذه الأفلام ، عدوان على مصر وعلى الفضيلة والعروبة والإسلام ، فإذا أنتم لم تقاطعوها وتقتلوها ، فمزِّقوا كتب الدين والأدب والتاريخ ، لأن كل صفحة منها تمجيد للعِرْض ، وامتداح للنخوة .

يا إخواننا !

لقد جرَّب أجدادنا العمل بالقرآن فكانوا سادة الدنيا كلها ، فجربوا أنتم مخالفته وانظروا ماذا تكونون!!

* * * *

من حديث الجهاد

نشرت سنة ١٩٤٧

ركبت الترام أمس من عند جسر الملك الصالح مقابل الفسطاط وكان ممتلئاً بالناس ، قد قعدوا على مقاعده ، ووقفوا في رحَبَاته ، وتعلّقوا بسلالمه ، وكنت قاعداً في الدرجة الأولى ، فرأيت أمرأة ملتفّة بملاءة ، على يدها ولد يظهر عليها أنها مسكينة مغلَّبة[1] تريد أن تدخل علينا ، فيمنعها رجل بلدي واقف بالباب ، ويقول لها : « دامِش مكانك ، دا بريمو ، مكان الخواجات » فتستكين وتقف ، فدعوتها وأقعدتها في محلّي ، وهي حائرة لا تدري في خلجها وشكرها ماذا تقول لي ، وسار الترام إلى المحطة التالية ، فنزل ناسٌ وصعد ناس ، وكان فيمن صعد امرأة فرنجية ضخمة كأن خدَّيها زقّان منفوخان ، وكأن ثدييها عِدلان على ظهر أتان . . . وأقبلت تزاحم الركاب بوقاحة عجيبة ، حتى دخلت علينا ، فلما رأت المرأة قلبت شفتها ، وقلّصت وجهها حتى صار كوجهِ قِرْد عجوز . . . وحمّلته كل ما استطاعت من أمارات الاشمئزاز والكبر ، وضمّتْ ثوبها ترفّعاً أن يمسَّ الملاءة وأشارت لها بيدها ، أن : قومي . . .

فنظرت المسكينة نظرةً بلهاء ، وابتسمت ولم تفهم . . .

فقالت لها : « دا بريمو ، أنتَ بيروخ هناك ، يلاَّ . يلاَّ » . . .

فقامت . . . فلم أملك أن صرخت بها : « أقعدي » وقلت لهذه الوقحة : « ألا يكفي أنك زاحمتها على خبز بلدها ، وأكلت خيره من دونها ، وغنيت به وفقرت هي فيه ، حتى أردت أن تقيميها لتقعدي مكانها . . . » .

وكانت ثورة مني عاصفة ، فلم يجب أحد ، ولكن شاباً « مهذباً » استاءَ

(١) كذلك نقول نحن في الشام ، وهي صحيحة فصيحة ، وفي مصر يقولون غلْبانه .

مني ، وأراد أن يعلن احتجاجه عليَّ ، فنهض قائماً وقال : « تفضلي يا مدام » وأعطاها مكانه . . .

* * * *

وذهبت أزور رجلًا كبيراً ، اعتزل الناس في بيته بعد أن ولج أوسع أبهاء القصور ، وحلَّ في أضخم كراسي المناصب ، وتشقَّق الحديث معه حتى بلغ الكلام على الإسلام فقال : إن مصر تمدَّنت وارتقت حتى صارت قطعة من أوربا ، فكيف يمكن أن ترجع إلى أحكام الشرع ؟ » .

وسمعت كثيرين من رجالات العرب ، يتظرَّفون بدسِّ الكلمات الفرنسية أو الانكليزية في أحاديثهم العربية ، من غير داع إليها ، ولا فائدة منها ، ويجدون ذلك رفعاً من أقدارهم مُعْلِياً من منازلهم .

ورأيت كثيرين من الشباب تجيئهم الحكمة أو النظرية ، فتعزوها إلى صاحبها الشرقي المسلم ، فَيَلْوون وجوههم عنها ، ولا يحفلونها ، فإذا نسبتها إلى الفيلسوف الألماني أو الأديب الانكليزي هشُّوا لها وبشُّوا ، وتلقوها بالتجِّلة والإكبار .

قرأت لكثيرين من المؤلفين والباحثين فصولاً في الدين أو اللغة ، لا مرجع فيها إلا النقل ، ولا تنقل إلا عن أئمتنا وعلمائنا ، فرأيتهم يَدَعُون المنبع ويستقون من ذيول السواقي ، ويتركون مراجعنا ويعزون إلى فلان وعلّان من المستشرقين .

وليس فينا من لا يرى تقليد الأوربيين مدنية ، واتباعهم رقياً ، ومن لا يشعر يشعر في قلبه بإجلالهم ، يتمنى أن يزور بلادهم ، ويثقف ألسنتهم ، ويا ليت أنًا إذْ أحببناهم جمعنا حبهم ، ولم يفرقْنا غرامهم شيعاً وأحزاباً لهم ، ويا ليت أنَّا ارتفعنا اليوم عما وصفه جبران خليل جبران ، منذ ربع قرن ، حين قال : « كان العلم يأتينا من الغرب صدقة وإحساناً ، فَنَلْتَهم خبز الصدقة لأننا جياع فأحيانا ذلك الخبز ، فلما حيينا به أماتنا ، أحياناً لأنه أيقظ بعض مداركنا ، ونبَّه عقولنا ، وأماتنا لأنه فرَّق كلمتنا ، وأذهب وحدتنا ، وقطع روابطنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة ، مختلفة الأذواق ، متضاربة المشارب ، كل مستعمرة

منها تشدُّ في حبل إحدى الأمم الغربية ، وترفع لواءها ، وتترنَّم بمحاسنها وأمجادها ، فالشاب الذي تناول لقمة من العلم في مدرسة أمريكية قد تحوَّل إلى معتمد أمريكي ، والشاب الذي ارتشف رشفة من العلم في مدرسة يسوعيَّة صار سفيراً فرنسياً ، والشاب الذي لبس قميصاً من نسج مدرسة روسية أصبح ممثلاً لروسيا » .

فإذا كنا ـ ولا نريد أن نماري في الحق ، ولا نجادل في الواقع ، إذا كنا نطوي قلوبنا على حبهم ، ونضم جوانحنا على إكبارهم ، ونرى أنفسنا صغاراً أمامهم ، ونقلِّدهم في كل شيء ، ونمشي وراءهم ، فماذا ينفعنا قولنا بألسنتنا أننا نكرههم ونعاديهم ، ولا نقعد عن حقِّنا حتى نناله منهم برغمهم ؟

لقد تعلمت في المدرسة الابتدائية حكاية لا أزال أذكرها إلى اليوم ، هي أن رجلاً كان يذبح العصافير في يوم بارد ويبكي ، فقال عصفور منها لأخيه : ألا ترى إلى شفقة هذا الرجل ورقَّة قلبه ؟ قال : ويحك لا تنظر إلى دموعه ، ولكن انظر إلى ما تصنع يداه .

فهل تظنُّون أن الانكليز والفرنسيين أصغر أحلاماً من العصافير حتى يُخدعوا بخطبكم وأقوالكم ، ويعموا عما تصنع أيديكم ؟

* * * *

إن قضية فلسطين لم يجرِ مثلها ولا في أيام نيرون . ولو قرأناها في أخبار الأولين ، لما صدَّقنا أنه يسوغ في إنسانية البشر ، وعقل العقلاء ، أن تقول لرجل : اخرج من دارك ليأوي إليها هذا المشرَّد المسكين ، ونَم أنت في الزقاق ، أو اضطجع على المزبلة ، أو مت حيث شئت . هذا قضاء المدنية ، وهذا حكم الديمقراطية .

وإن حوادث المغرب لم يقع مثلها ، ولا على عهد محاكم التفتيش ، أن يذبح عشرات الألوف من الأبرياء لأنهم قالوا لم دخل عليهم بلدهم ، واغتصب أرضهم ، وأكل خبزهم : اطعمنا معك من خيرات أرضنا ، وارفق بنا في

عدوانك علينا . . .

فهل أحْسَسْنا حقيقة ببغضاء الفرنسيين والانكليز ؟ ألا يزال فينا من يثني على الانجليز في الصحف « تقريراً للحقيقة ؟ » ، ويحتفل بدوهامِل « تمجيداً للأدب ؟ » ، ويودِّع المجنَّدات الانكليزيات بالأسى «تقديراً للجمال » ، ألا يزال فينا نواد أقيمت لتثبيت الصداقة بيننا وبين هؤلاء ، الذين فعلوا هذه الأفاعيل في فلسطين والمغرب ؟

فكيف يجتمع الحب والبغض في قلب واحد ؟

* * * *

إننا في أيام لها ما بعدها ، ومصائب وتنسينا أواخرها أوائلها ، فإذا كنا جادِّين حقيقة في إنقاذ فلسطين والمغرب ، وفي العمل لمصر وللعربية وللإسلام ، وكنا نريد ان نكون أمة تستحق أن تعيش ، فيجب أن نُخلِّص أولا من استعمار الأوربيين أدمغتنا وألسنتنا وبيوتنا ، وأن نحكِّم عقولنا فلا نقتبس منهم إلا ما نعتقد نفعه لنا ، وأن نثق بأنفسنا ، ونشعر بكرامتنا ، وأن يفهم الحاكم منا أن لنا شرعاً أفضل من قوانينهم ، فيجب أن نقتبس الأحكام من شرعنا ، وأن يعلم الطالب أن لغتنا أكمل من لغاتهم ، وأدبنا أسمى من آدابهم ، وتاريخنا أمجد تواريخهم ، وأنها لم تخدم أمة العلم ما خدمته أمتنا ، وأن يعتقد التاجر أن من الفرض عليه أن يروِّج البضاعة الوطنية ، ويقاطع الأجنبية التي تزاحمها ، وأن يؤمن الأديب بأن لهذه الأمة حقاً على قلمه ، أن يدافع عنها ، ويعيد إليها كرامتها ، وثقتها بنفسها ، ويصغِّر الأجنبي في عينها ، وأن يفهم أخنع [1] رجل فينا ، أنه أعظم من أكبر خواجة من الخواجات ، أو (مستر) من المساترة أو (هر) أو (سنيور) من السنانير والهررة ، وأن يعلم أنه هو صاحب البلد ، وهؤلاء بين غاصب أو لص أو (شحّاد) ، وله هو مقعد الدرجة الأولى في الترام ، وله الغرفة الأولى في الفندق ، والمائدة الأولى في المطعم ، وأنه حينما يقنع بالأقل ويتوارى ويبتعد ، ويدع الأجنبي يملك الأرض ،

---

(١) اخنع : أقل وأوضع . وهي من عامية الشام الفصيحة .

والعمارات ، والمتاجر ، يكون مجرماً كالجندي الذي ينهزم من المعركة .

وملاك الأمر كله ، أن نعلم أننا نحن أساتذة الدنيا ، ونحن سادتها . عززنا بقرآننا وديننا ، ولا يزال القرآن مبعث عز لنا ، فَلْنعد إليه ، ولنجعله إمامنا في حياتنا ، ومَعقِد فخارنا ، ولْنَدعُ الدنيا إلى اتِّباعه لأنه لا فلاح لها إلا به .

إننا اليوم أضعف من الغربيين في القوى المادية ، فلم يبق لنا إلا القوى الروحية : قوّة الإيمان ، وقوة الأخلاق ، وقوة العفاف فلنحافظ عليها ، ولنحارب الإلحاد والنفاق والفجور ، لأنها عون للعدوِّ علينا ، وسلاح له يعمله فينا ، وأنْ نجرِّد للعدو جنداً أخرجوا حبَّه من قلوبهم ، وضلالاته من رؤوسهم ، وعاداته من بيوتهم ، وأبغضوه بغضاً بلغ الشغاف ، وخالط الدم ، وسرى في الأعضاء ، وظهر في الأفعال . جنداً ، صدورهم حافلة بالإيمان ، عامرة باليقين ، يثقون بماضيهم وأنهم يستمدُّون منه الظفر : من ألف معركة منصورة كانوا أبطالها ، ومن ألف سنة مباركة كانوا ملوك الأرض فيها ، ويثقون بحاضرهم ، وأن دماءهم ما أضاعت هذا الإرث ، ورؤوسهم ما فقدت هذه الذكريات ، ونفوسهم ما خسرت ذلك الشمم وتلك الفضائل ، ويثقون بمستقبلهم ، وأنهم سيملكون الأرض كرَّة أخرى ، وسيعودون ملوكها . شباباً هم في الحكمة كالشيوخ ، لم تسترقُّهم الشهوات ، ولم تستعبدهم الملذَّات ، ولم تلعب بهم الصبايا ، وشيوخاً هم في العزيمة كالشباب ، لم تفتنهم المناصب ، ولم يطْغهم الغنى ، ولم يسر في أعصابهم الخَوَرْ . . .

بهذا الجيش فلْنجاهد ، جهاداً متَّصلا مستمراً ، لا يَني ولا يقف حتى يهدم قلاع العدو كلها ، ظاهرها ومضمرها ، وواضحها وخفيِّها .

إن الجهاد إن لم يبدأ من البيت والمدرسة والجريدة ، فلا يمكن أن ينتهي إلى الساحة الحمراء ، فإذا أردتم أن تبلغوا نهاية الطريق فامشوا من أوله ، إن شئتم أن تصلوا إلى أعلى السلم فابدؤوا من أسفله ، فإن من يمشي من آخر الطريق يرجع إلى الوراء ، ومن ينزل من رأس السلَّم يصل إلى الأرض!

ثورة مصر

هذه الكلمة فيها شعوري وشعور الناس يوم قامت الثورة

نشرت سنة ١٩٥٢

أكتب هذه الكلمة وأنا مريض في المصيف في (مضايا) ، قد هبط معي الضغط ، وضعف مني الجسم ، وانقطعتُ عن عمل اليد وعمل الدماغ ، ولذلك ما[1] أخللت بعهدي ، وكان العهد أن أكتب إلى (الرسالة) مرتين في الشهر . ولكنَّ أخبار مصر ، ومن قبلها أخبار إيران ، تطرد المرض ، وتنهض الجسد ، وتهزّ من الحماسة الجبال ، وترقص الحجر ، فكيف أنام اليوم واليوم عزَّت بالإسلام العرب والعجم ، واليوم استكمل الشرق يقظته إلا بقايا في عينيه من الكرى ، وأقسم أن لن ينام ، واليوم أحسَّ كل مسلم بأن هذه الأمة لم تفقد عزَّتها ، ولم تدفن أمجادها في قبور تاريخها ، ثم تسير بلا عزَّة ولا مجد ، بل إن لها من حاضرها أياماً غراً محجَّلات ، لا يضرّ من رآها ألَّا يكون رأى تلك الأيام . لا ، لا يضر من حضر الجلاء عن الشام ، وإقامة إندونيسيا والباكستان ، وشهد ظفر الشعب في طهران أمس وفي مصر اليوم ألَّا يكون قد حضر القادسية وشهد اليرموك .

لقد تتالت علينا الأفراح ، وتتابعت البشائر حتى ما تستطيع أن تحتملها أعصابنا ، إننا نعدو عَدْواً في طريق الظفر ، لا نقدر أن نقف ساعة لنستريح ونلتقط أنفاسنا ، هذا شعب إيران يهبُّ هبَّة الرجل الواحد ، يحمل معه أكفانه ليثبت للدنيا أن الكفن في يَدِ المستميت أمضى من المدفع في يد من يحبُّ الحياة ويكره الموت ، وأن الرغبة الصادقة في الموت هي أقصر طريق إلى الحياة ، وأن

(١) ما هنا موصولة لا نافية .

الشعب إذا استمات لا تغلبه قوة في الدنيا ، وهل يمكن أن يُبادَ شعب على بكرة أبيه فلا يبقى له أثر ؟ هل تستطيع قوى الشرِّ كلها التي حشدها المتمدنون ليقتلوا بها البشر باسم المدينة التي نُسبِّح جهلاً بحمدها ، ونموت في عشقها ، أن تهلك خمسمئة مليون ضفدع لو هاجمت بلداً من أقطاره الأربعة ؟ فكيف لو هبَّت خمسمئة مليون إنسان ، يستجيبون لصوت إيمانهم ، ويغضبون لماضيهم ، ويعملون لمستقبلهم ؟ إن القطَّة إن غضبت لأولادها ،كشَّرت عن أنيابها ، وأبدت عن مخالبها ، وهجمت على الذئب ، فكيف إن غضب شعب كشعب إيران ؟ وكيف إن كان يقوده شيخٌ له عزة العلم ، وله قوة اليقين ، ينفخ فيه من روح الدين ما يثبت للعالم أن قوة الإيمان هي أقوى القوى ، وأن العدو لم يصنع بنا شيئاً أضر علينا من صرفنا عن ديننا ، وتعطيل هذا السلاح الماضي الذي وضعه الله في أيدينا !

ثم جاءت أخبار مصر ، مصر الدَّيِّنة الصيِّنة التي طالما احتملت الفسوق والعصيان . . وسكتت ترجو أن ينيب الفاسق ، ويتوب العاصي . . مصر العزيزة الحرَّة التي صبرت على الطغيان والاستبداد . . مصر التي بذلت في حرب فلسطين ما لم تبذله دولة عربية ، ثم ضربها في ظهرها من كبار أبنائها من كان شراً عليها وعلى جيشها من أعداء الله والإنسانية : اليهود . مصر التي طالما زرتها وأقمت فيها الشهور الطوال ، فكنت أشم روائح الفساد كلما خرجت من إدارة الرسالة ومررت بالميدان الكبير ، وانتشرت هذه الروائح حتى عمَّت مصر ، ثم وصلت إلى أوربا . . وشمَّها أصحاب الجرائد هناك بأنوفهم الحسَّاسة ، فنشروها في كل مكان حتى بلغت الشام ودخلت كل بيت ، لذلك كانت أخبار الانقلاب الأولى فرحة في كل بيت . . يتباشر بها الناس ، ويفتحون الرادَّ ليسمعوها ، وأزهد الناس بسماع الأخبار صار يعانق الرادَّ في داره ليسمع إذاعة مصر وغير مصر . . فلما أذيع أن الفاروق (الذي كان يوماً الملك الصالح) قد أُخرج من مصر ، لم يعد يستطيع الناس أن يضبطوا من الفرح أعصابهم . ولولا أني مريض . . وأن ذهني مكدود . . لحيَّيْتُ هذا اليوم العظيم التحيَّة التي تليق به . . ولَسُقتُ له كلاماً غير هذا الكلام : كلاماً تثب له القلوب ، وتحمى منه أقحاف الرؤوس ، وترقص له

من الحماسة الأعصاب ، وتغلي الدماء ، ولكني إن عجزت اليوم عن نظم هذا الكلام . . فلقد قال هذا البطل بفعاله أكثر منه ، وهو صامت متواضع لم يفخر ولم يتحمَّس ، فيا أيها الرجل العظيم حقاً ، لك شكر العروبة ، لك شكر الوطن ، لك شكر الإسلام .

* * * *

وبعد فهذه عاقبة الفسق والفجور ، واستغلال أموال الأمة وسلطانها في إرضاء الشيطان وإرواء الشهوات ، فاعتبروا يا من لم تصل إليه النوبة بعد فإنها ستنوبكم ، إن الله يمهل ولا يهمل ، ويُنْسي ولا يَنْسى ، وليعتبر الذين أنبت الله لهم من التراب ذهباً ، وأنبع لهم من الرمال دولارات ، فتركوا قومهم جياعاً حفاة ، وأنفقوها على الفسوق والشهوات ، حتى ضجَّت من عجبها من فجورهم باريس مدينة الفجور

اعتبروا فإن نعم الله لا تحفظ بالمعصية ولكن بالشكر . . وإن الأوطان لا تحمى باتِّباع الشهوات ، وإضاعة الأموال في البذخ والترف ، ولكن بتقوية الجيش وإعداد السلاح ، وإطاعة الله والعمل على إعلاء كلمة الله . وإن المُلْك لا يكون ليستمتع المَلكُ ويلهو ، ويعدو هو وحاشيته على العِرضِ وعلى الأرض . ويرفع نفسه عن النقد ، بكل ليكون أطول الناس سهراً على مصالحهم ، وأكثرهم شغلاً بهم ، وأعظمهم تبعة ، وأشدهم من الله خوفاً ، كذلك كان الرسول صلوات الله عليه ، وكان أبو بكر وعمر ، وكان الصالحون من الملوك . وبعد فإن في كل بلد (محمد نجيب) لا تعرفونه اليوم ، ولكنها ستعرفه الدنيا كلها لحظة كما عرفنا محمد نجيب ، وما كنا قبل دقائق قد سمعنا في الشام باسمه . وأن في كل بلد (يخت) كالمحروسة التي حملت (فاروق) فذهبت به إلى حيث ألقت . . . أو سيارة تقوم مقامها ، و(دار ابن لقمان على حالها) . . .

* * * *

وبعد فبارك الله في شعب مصر ، وبارك الله في شعب فلسطين، وبارك في شعب

إيران ، وبارك الله في كل شعب يأبى الدنية ويرفض العار ، ويعرف كيف يرفع رأسه ويقول : لا !

والسلام على روح حسن البنا ، موقظ الأرواح النائمة في مصر ، وعلى القاشاني ، وعلى مصدق ، وعلى القائد النجيب ، محمد نجيب .

مجزرة الجزائر

فرنسا في يوم من أيامها السود ، فهي تستعد وتحتشد ، وتستنفر الرجال ، وتدعو إلى التطوع الشبان ، وتعدُّ الدبابات على الأرض ، والطيارات في السماء ، وتسخِّر الحديد والنار ، وكل ما أوحى به إلى أوليائه الشيطان من سُبُل التدمير والتقتيل والأذى والخراب .

وهي تنادي بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وتستغيث وتستجير ، وتطلب المعين والنصير .

فماذا دهى فرنسا ؟ أي عدو دهم أرضها ؟ وأي غاصب عدا على حريتها ؟ ولمن تحشد الرجال ؟ ولمن تعدُّ هذه الأسلحة الثقال ؟ وهذه البلايا والأهوال ؟

هل عادت إليها الحرب وعاد الألمان ؟ أم كرَّت الأيام ورجعت جان دارك ورجع إلى احتلال أرضها الانكليز ؟ فهي تستعد للدفاع عن حقها المغصوب وبلدها المسلوب ؟

لا . لا . يا أيها السامعون ، لم ينزل بفرنسا البلاء ولا حلَّ بأرضها الأعداء ، ولكن فرنسا تستغيث وتستجير ، لأن البلد الذي عَدَتْ هي عليه وسلبته أهله ، وسرقته من أصحابه ، قام يطالب بحقه ، ويدافع عن حريته . وهذا الحشد كله وهذا العتاد ، إنما أعدًّا للفئة من إخوانكم الجزائريين ، لأبناء أبيكم أيها العرب ، لشركائكم في القبلة ، وفي القرآن ، وفي دعوة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

وما ذنبهم ؟ ذنبهم أنهم تجرؤوا فقالوا للِّص : اخرج من دارنا ، ذنبهم أنهم قالوا لغاصب حريتهم : ارْدُدْ علينا حريتنا .

كل مئة من هؤلاء الجنود المسلحين أعدَّ لواحد فقط من أولئكم المجاهدين ،

لأن وزن جنود فرنسا في ميزان البطولات ، أن يكون المئة من جنودها المسلحين ، عدل واحد من المسلمين المجاهدين .

إنها جريمة قتل مُبيَّتة متعمَّدة ، تغطي بها جريمة سرقة موصوفة مقصودة ، لقد كان من قواعد الفروسية التي يصفها الأدب الفرنسي ، أن الرجل المسلح لا يبارز رجلا أعزل ، ولا أقل منه سلاحا ، وأن الأثنين لا ينازلان واحدا ، وكانوا يرون ذلك سبَّة وعارا ، ولعنة من لعنات الشرف .

ولكن فرنسا لم تعد تبالي ، إنها لما خسرت بطولة الميدان ، ولم يعرف تاريخها الحديث إلا الهزائم جاءت تسترد اعتبارها ، وتثبت بطولتها على العزل الأقلاء المطالبين بحقوقهم ، وجاءت تجرب فيهم سلاحها ، هل قلت سلاحها ؟ إنها زلة لسان ، أعتذر إليكم منها . لا ليس سلاحها ، لم يبق لفرنسا سلاح ولكنه سلاح الديمقراطية ياسادة ، السلاح الذي استَجْدته فرنسا ، الذي (شحدته شحادة) من أمريكا لتحمي به استقلالها من الألمان أن يطؤوها بنعالهم مرة رابعة كما وطؤوها في حرب السبعين ، حرب أربع عشرة ، وحرب تسع وثلاثين .

سلاح حلف الاطلنطي الذي أُلِّف ليحمي فرنسا من روسيا وحلفائها ، وفرنسا في الرمز السياسي تُصوَّر أنثى لأنها لم تعرف الرجولة قط في تاريخها ، يُرمز لها بصورة (المدموازيل ماريان) كما يرمز لامريكا بالعم سام ولبريطانيا بالمستر جون بول فجاءت هذه الأنثى الفاسقة تنازل الرجال المجاهدين بسلاح أمريكا وسلاح حلف الاطلنطي ، تسلط النار والحديد على صدور لا تحميها النار ولا يدرأ عنها الحديد ، والأنثى الفاسقة كالنذل الجبان ، إذا صار بيده السلاح كان ذئبا كاسراً ، لأنه لا يجد نبلاً يمنعه ولا رجولة تحدُّ من فتك سلاحه .

مجزرة ظاهرة ، ومذبحة معلنة ، والرأي العام الغربي [1] يسمع ويرى ، إنها لما قامت اليونان على الدولة العثمانية انبرت الألسنة ، وأحدَّت الأقلام وتحمَّس لنصرتها كل جبان . وثار كل خامل ، حتى أمثال اللورد بيرون من مخنثي الأدب ،

(١) أعني بالغربي أميركا وروسيا على السواء .

حتى فتى الشهوة والغرام ، لبس في نصرة اليونان الدرع وتقلد الحسام .

وفي الحرب الماضية نادوا : يا للانسانية ، ويا للديمقراطية ، ويا للعدالة التي استبيح حماها ودُنِّس قدسها ، كيف يعاقب النازيون اللصوص الخونة من اليهود ؟

وفي كوريا بكى الديمقراطيون بعيون التماسيح ، ونعبوا بحناجر البوم .

فما لهم اليوم خرسوا فلا ينطقون ؟ وما لهم عموا وصمُّوا فلا يبصرون ولا يسمعون ؟ ولا يدرون ماذا يجري في الجزائر ؟

الجزائر التي استعملت فرنسا سلاح الامريكان في حرب أبنائها المجاهدين ، وتريد أن تسلط قوى حلف الاطلنطي كلها على هذه الفئة الصابرة المحتسبة .

جريمة من جرائم الغاب ترتكب جهاراً نهاراً ، والضمير الغربي ساكت مطمئن ، لأنها جريمة على العرب المسلمين ، لذلك لا يحسُّون بها ، ولو كانت على أبناء ملَّتهم من الغربيين لأقاموا الدنيا على ساق .

هذا هو الضمير العالمي ، لقد كفرنا بالضمير العالمي ، كفرنا بعدالته لأنها عدالة جائرة ، تكبر الصغير من ذنب الشرقي وتصغِّر الكبير من ذنب الغربي ، ترى الشعرة هنا وتعمى عن الحبل هناك .

إن من أمثال الغرب : إذا كنت كاذبا فكن ذاكرا ، ولكن الغرب يكذب وينسى ، نسي ميثاق الاطلنطي وحق لهم أن ينسوه ، لأنهم كتبوه على ماء الاطلنطي فلما ماج الماء محاه ، ونسي حقوق الإنسان ، ونسي مبادىء ويلسون ، ونسي كل أكاذيبه الماضيات .

لقد كنا من خمسين سنة نرى قوة الغرب ومظاهر حضارته ونجهل حقيقته ، فكنا نخافه ونكبره ، فلما خالطناه ، وعرفناه ، رأينا أهل الغرب وحوشا تلبس ثياب بني الإنسان .

إنهم لا يزيدون علينا إلا في هذه الحضارة المادية ، وسنغدو قريباً سواء فيها ، أما الحضارة الروحية ، أما الإنسانية ، أما الفضائل البشرية ، أما الترفع عن

طبائع البهائم وعن الشهوات الشيطانية ، فليسوا منها في قليل ولا كثير ولاسيما هؤلاء الفرنسيون .

فيا أيها الفرنسيون لا تذكروا الحرية والأخوة والمساواة بعد اليوم ، ولا حقوق الإنسان ، إنكم تدنسون طهر هذه الألفاظ ونقاءها حين تضعونها في أفواهكم ولا تحتفلوا بيوم ١٤ تموز ، ولا تقرؤوا كتب روسو وهوغو ولامارتين ، ولا تُسيئوا إلى الأدب الفرنسي ، بادعائكم أنكم أربابه ، إنكم لم تعودوا خليقين بهذا الأدب .

لقد ختنتم تاريخكم ، ولطّختم وجه أمجادكم بالطين .

لقد أطفأتم المصباح الذي زعمتم أنكم رفعتموه يوما للشعوب ، حين ثُرتم ثورتكم الكبرى ، وما ثورتكم هذه التي ملأتم الدنيا فخراً واعتزازاً ؟ لقد كانت ثورة القتل والتدمير والسلب والنهب ، ثورة مجرمة حمقاء مغموسة بدماء الأبرياء ، وما الفرق بينها وبين عهد الملوك ، إلا أنه كان في عهد الملوك نفر معدودون يظلمون ، فصار بالثورة كل فرد من الشعب ملكاً ظالماً .

إن فرنسا تمشي القهقرى ، كل يوم خطوة إلى الوراء .

لقد كانت لغتكم لغة السياسة والكياسة والحب فسبقتها اللغة الانكليزية وصيرتها وراء . . وراء .

وكانت دولتكم من الدول العظمى فصارت اليوم وراء وراء . وكنتم علماء فصرتم تراجمة . لقد انتهى العلم في فرنسا ، وصار خير ما تخرجه مطابعها المترجم عن اللغات الأخرى .

لقد عقمت فرنسا أن تخرج مثل باستور ولافوازيه وديكارت وهنري بركسون وهوغو وأناتول فرانس ومدام كوري .

وصارت عجوزاً متصابية فاجرة أدركها سن الإياس فلا تلد العظماء وكانت لكم مستعمرات فأضعتم بحماقتكم مستعمراتكم ، وستضيع منكم افريقية كلها على رغم أنوفكم ، ورغم الرصاص الذي (شحذتموه) من أميركا وسلّطتموه على العزل الأبرياء .

وها أنتم هؤلاء قد بقيتم في الجزائر قرناً وثلث قرن ، فهل استطعتم أن تجعلوها فرنسية ؟ هل استطعتم أن تجعلوها تحب فرنسا ؟ هل استطعتم أن تمحوا منها العربية والإسلام ؟ لقد عملتم كل شيء . ولكن الذي أردتموه هو المستحيل .

إنكم شعب أحمق أرعن لايمكن أن يعقل أبداً ، ولا أن يكون سياسياً أبداً .

إن التاريخ الفرنسي يحتضر ، وأنتم يا أيها الفرنسيون تعجلون بموته ، إنكم لا تطلقون الرصاص في الجزائر على المجاهدين ، ولكن على تاريخكم وأمجادكم ومفاخركم .

لقد كتب ملككم فرانسوا الأول يوما لأمه : (لقد خسرنا كل شيء إلا الشرف) وسيكتب التاريخ عنكم للأجيال القادمة ، إنكم خسرتم كل شيء حتى الشرف .

أما دعواكم أن الجزائر بلد فرنسي ، وقطعة من فرنسا ، فستصير ذكرى مضحكة من ذكريات الحماقة الفرنسية ، يتفكه بها التاريخ ، وتضحك عليكم بها القرون الآتيات .

الجزائر فرنسية ؟ بِمَ ؟ بِمَ ؟ يا أيها العقلاء جداً ؟ أهي فرنسية بشعبها ؟ أهي فرنسية بلغتها ؟ أهي فرنسية بتاريخها ؟ الشعب فيها عربي واللغة عربية والتاريخ عربي ، وكل حجر من جبالها وكل رملة في صحرائها ، تكذب هذه الدعوى الوقحة الكاذبة البذيئة ، دعوى أن الجزائر قطعة من فرنسا ، وأقرب من هذه الدعوى بمئة مرة أن يدعي الطليان أن فرنسا قطعة من ايطاليا . إن ايطاليا إن قالتها أيّدتها وحدة اللغة ، كلتاهما لاتينية والايطالية أقرب إلى الأصل ، وأيدها تاريخ يوليوس قيصر وبومبي ، وإن فرنسا بقيت قروناً وهي تابعة لروما ، فماذا يقول الفرنسيون لو ادّعت ايطاليا هذه الدعوى ؟

وماذا ، لو كانت ايطاليا أقوى وساقت قواها لتذبح الفرنسين الذين يدافعون عن حرية بلادهم ؟

وبعد ، فما أخاف على الجزائر ، إن الجزائر تبدأ في كتاب المجد صفحة جديدة ، وانتم تختمون كتاب أمجادكم بصفحاته كلها .

إن ذخر المسلمين من البطولة لن ينقطع أبداً ، حتى يستكملوا تحرير بلادهم ، ثم يكتبوا في تاريخ الدنيا مثل الصفحة التي كتبها الجدود إن الاستعمار قد مضى وقته ، مضى ، إنه بناء من الثلج أقمتموه خلسة في ظلام الليالي الطوال من كانون ، وقد سطعت الآن شمس آب فلا تثبت بيوت من الثلج لشمس آب .

لقد تحررت آسيا كلها ، واستقلت أممها وشعوبها ، وستحرر شعوب افريقية وتعود كما كانت يوم كانت أرض فرنسا موطيء أقدام الجنود المسلمين ، وكنا نحن الحاكمين في قلب فرنسا ، ولكن أخاف عليكم أنتم .

وليس أمامكم أهل الجزائر وحدهم ، بل المغرب كله ، بل ديار العروبة من أقصاها ، إلى أقصاها بل المسلمون في كل الأرض ، بل الناس جميعاً ، الناس الذين لا تزال في صدورهم قلوب ، ولا تزال في قلوبهم ضمائر ، أما الذين فقدوا الإنسانية وأضاعوا القلوب ، أما الجثث التي تمشي إلى المادة وحدها ، فستقتلها المادة التي تمشي إليها .

وسيستيقظ العرب كلهم والمسلمون جميعاً ، وسيقاطعون كل شيء فرنسي ويرونه رِجْساً يدنس طهرهم ، وناراً تحرق بيوتهم . وسيجاهدون حتى تشهد الدنيا جلاء آخر جندي فرنسي عن المغرب العربي كله كما جلا آخر جندي عن أرض الشام .

وما يوم الجلاء عن المغرب ببعيد .

فرنسا والجزائر

يا أصدقائي السامعين ، السلام عليكم ، لقد عدت إليكم ، لأشكر بهذا الحديث فرنسا . لأشكرها مرتين : مرة عني ، ومرة عن قومي ، ولا تعجلوا عليَّ بالعجب ، حتى تعرفوا السبب .

لقد قطعني عن الإذاعة ، انحطاط في جسدي ، وكلالٌ في ذهني ، منعني معه الطبيب من بذل الجهد ، ومن تكلُّف النشاط ، فسألت الإذاعة هذه الإجازة ، وجعلت آخذ الدواء بعد الدواء ، من كل مقوٍّ منشط ، باعث للهمة دافع إلى العمل ، فلا أكاد أجد له أثراً ، حتى قرأت من يومين نبأ ما صنعت فرنسا حين خالفت سنن العدل وقواعد الحرب والسلم ، وأعراف أهل الشرق والغرب ، فاختطفت زعماء الجزائر من جو السماء ، من فوق البحر ، حيث لا الأرض أرضها ، ولا السيادة عليها لها ، قرأت هذا الخبر فإذا هو ينفضني نفض الأديم ، ويضرم نار الحماسة في دمي ، ويعيدني من فرط التوثب والنشاط إلى مثل عهود الشباب ، وقد ذهبت الحماسة وولَّى الشباب ، حتى لقد شعرت والله أني أهل لخوض المعركة القاسية ، وقَحْم لُجَّة الحرب .

لقد صنعت معي فرنسا بهذا النبأ ما لم تصنعه الأدوية والعقاقير ، ونفعتني ما لم ينفعني الصيدلي والطبيب . فلذلك شكرتها عن نفسي .

وأما أني شكرتها عن قومي فلأنها أثارت من حماسة كل عربي ، ومن قوته ونشاطه مثل الذي أثارته مني ، إنها قد ضمنت لنا النصر بما صنعت ، لقد كنا على اختلاف في الاجتهاد : فمنا من يرى مسالمة فرنسا حتى نأخذ منها ونطالبها ، ومن يرى أنه لا يصلح معها إلا الحرب ، وكان من جراء ذلك ما كان في مراكش وتونس من جهة ، وما كان في الجزائر من جهة ، وخشينا أن تصير الجبهة الواحدة في المغرب جبهتين ، فجاءت فرنسا ولها الشكر ، فوحَّدت الصف ، فلم يعد في المغرب العربي كله إلا مجاهد أو داع إلى الجهاد .

لقد بعثت فينا كوامن القوى ، وأيقظت فينا هواجع الهمم ، وأعادت الحرب جذَعةً ، وأشعلت النار على الاستعمار في كل بلد عربي ، ولو أن مجاهدي الجزائر أنفقوا في الدعاية خمسة ملايين ليرة وأمضوا في ذلك خمس سنين ، لما استطاعوا أن يصنعوا لقضية الجزائر ، ولما استطاعوا أن يسيئوا إلى فرنسا مقدار ما أساءت فرنسا لنفسها ، وأحسنت إليهم ، بهذاالعمل .

ولقد كان للجاحظ تعبير عجيب فيمن يضرُّ نفسه بنفسه ويخدم عدوه بذاته ، وهو لا يدري ما يصنع كان يقول : « إن هذا الفعل لا يكون إلا بخذلان من الله » وما فعلته فرنسا لا يفعله بنفسه عاقل إلا بخذلان من الله وخذلان فرنسا نصر لنا .

وأنا رجل مولع بالتاريخ ، ولقد قرأت تواريخ أمم الشرق والغرب ، فما رأيت أمة تهدم مجدها بيدها وتهجو نفسها بفعالها وتعين بحماقتها عدوها على نفسها إلا أمة فرنسا ، والأحمق يخطيء مرة ولكنه لا يعود إلى الخطأ نفسه ، وفرنسا أخطأت مرتين وعادت الثالثة ، لقد لُدِغت مرتين من هذا الجحر ثم رجعت تدسُّ يدها فيه ، لقد اختطفت يوما حكام سوريا ، ويوماً حكام لبنان ، فماذا كانت النتيجة ؟ هل نسيت فرنسا تلك الحوادث وما مر عليها إلا عشر سنين ؟ كانت النتيجة الخيبة لفرنسا والاستقلال لسوريا ولبنان ، وكذلك تكون العاقبة الآن .

فماذا دهى فرنسا وقادتها وحكامها ؟ :

أطارت بعقولهم هذه الهزائم ، ينالهم بها عشرة آلاف مجاهد ، ولهم هم جيش يعد نصف مليون ، يحميه الحديد والبارود والمصفحات على الأرض والطيارات في السماء ، وذهبت بتفكيرهم ، فلم يعودوا يبالون بشي ، لا بالحق ولا بالشرف ولا بالتاريخ القائم لهم بالمرصاد يدوِّن ما يعملون ، ولا بهؤلاء الذين خُدعوا بثورات فرنسا ، وبما كتب أدباء فرنسا ، فتصوروها أم الحريات وباعثة النهضات [1] ،

(١) وبكوا على باريز لما سقطت . ولما عرضت نفسي يومئذ لغضب المستشار ، وكتبت أعتب عليهم أن آثروا ذكريات فسوقهم في باريز ، على واجبات الدين والوطنية ، لم أجد في كتّاب الرسالة يومئذ مناصراً إلا أخي الأستاذ عبد المنعم خلاّف .

فأتت فرنسا تنزع من قلوبهم كل ما تعلق بها ، وكل خير كانوا يظنونه فيها .

أقسم أني لو كنت فرنسياً لخجلت أن أقول إني فرنسي ، وكل مفكر أو أديب فرنسي يخجل اليوم من نسبته إلى فرنسا .

ولن يستطيع بعد اليوم شاعر من شعرائهم أن ينظم بيتاً واحداً يفخر فيه بفرنسا ويتغنى ببطولاتها وأمجادها ، وبم يفخر ؟ بهذا الذي صنعتم ؟ أهذه هي البطولة الفرنسية ؟ أرضيتم لأنفسكم أن تكونوا قطّاع طرق يختطفون الناس من الطريق ؟ ألا واجهتموهم في الميدان ؟ ألا صاولتموهم في المعركة الحمراء ؟ ألا أخذتموهم من معاقلهم ؟ أهذا ما انتهى إليه جنود نابليون ؟

خذوهم من حيث كانوا ، من شعفات الجبال ومهامِهِ البيد ، وهيهات . . . إن البيداء للأسد ، للأسد الذي يهجم من أمام ، لَا للعقرب التي تدبُّ خلسة وسط الظلام . . .

وفرنسا ما كانت قطُّ أجمة آساد إن فرنسا مراتع غزلان مباحة لكل صيَّاد . . . غزلان ، ولكن القرون لذكورها فقط . . . فدعوا القتال فما أنتم أهله ، وجرُّوا الذيول على أبواب الحانات والمواخير ، في مونمارتر ومونبارناس ، وسنُّوا قانونا يحرم على مدرسيكم أن يدرسوا تاريخ الثورة ، وحروب نابليون ، لئلا يدرك الصبية الصغار في المدارس كيف لطَّخ الفرنسيون أمجادهم بالطين ، وكيف عَدَوْا على الحريات بعد ما ادعوا أنهم ثاروا دفاعاً عنها ، وكيف فقدوا بطولة الحروب فاستعاضوا عنها بقطع الطرق ، وسرقة المارين ، وبالعدوان على النساء والأطفال بعد ما زعموا أنهم صاروا تحت علم نابليون أبطال أوربة ، ولا تقرؤوا روائع الأدب الفرنسي التي تتغنى بالعظمة والسمو والشرف ، إنكم لم تعودوا خليقين بهذا الأدب ، ولا أهلاً لهذا التاريخ .

تتشدقون بذكر حقوق الإنسان ، وتعبثون بحقوق الإنسان ، وتهتفون بحق الشعوب بتقرير المصير ، وتعدون على حقوق الشعوب ، وتدرِّسون في كليات الحقوق في بلادكم قواعد الحرب ، وتكفرون بأفعالكم بقواعد الحرب ، أفلا تستحون ؟

استحوا من الله ، استحوا من التاريخ استحوا من علمائكم وأساتذتكم وأدبائكم .

استحوا ، فما هذه حرب ، هذا عدوان على بلد ما لكم فيه حق من الحقوق ، لا الأرض أرضكم ، ولا الأهل أهلكم ، ولا اللسان لسانكم ، ولا الدين دينكم ، هذه سرقة ، هذه جريمة ، هذه قرصنة ، هذه وحشية . وماهذه كلمات سب ، بل هي تقريرٌ للواقع .

إن الذي يقول للذئب أنت ذئب ، لا يسبُّه ولكن يسميه باسمه ، وكل هذه الكلمات لا يفي بالتعبير عما صنعت فرنسا في الجزائر ، ولو صَنَعَ عُشْرَه شعبٌ آخر بفرنسا ، لقال عنه كتاب فرنسا أضعاف ما قلت أنا الآن . . .

إنها جريمة ولكنها جريمة ليس لها قضاة ، وليس للمظلوم فيها محامون . إنه لما أثار الاستعمار فتنة ١٨٦٠ وأوقعها بين القوم الذين ظُلُّوا يعيشون معاً أكثر من عشرة قرون ، خرج الأمير عبد القادر وعلماء دمشق يقدمهم شيخ العلماء جدي الشيخ محمد الطنطاوي ، فوقفوا في وجوه الغوغاء يَفْدون النصارى بأنفسهم ويحمونهم بأجسادهم ، ويتعرَّضون للموت الأكيد ، ليدفعوا عنهم الموت ، وهاهم أولاء أدعياء النصرانية من الفرنسيين يخالفون دين المسيح ، دين المحبة والعفو والسلام ، وينالون المسلمين بكل مكروه ، فلم ينهض واحد من عظماء الغرب ليقف في الدفاع عن هؤلاء المظلومين مثل موقف علماء المسلمين في فتنة الستين ؟

ذلك لأن الغرب غرب والشرق شرق ، ولن يكونا قط شرقيْن ولا غربيْن . ولذلك يقف النصارى في الشام من الجزائر مثل موقف المسلمين ، ينكرون على فرنسا فعلها مرتين : مرة لأنهم عرب وهي تعدو على العرب ، ومرة لأنهم مسيحيون وهي تخالف بفعلها كل ما شَرَعَ للناس عبد الله ورسوله وكلمته سيدنا المسيح .

وما ضرَّت فرنسا الجزائر باختطافها الزعماء الخمسة ، ولكن ضرَّت نفسها ، بل لقد نفعتنا فرنسا ، وزادتنا إيمانا بالنصر ، وما شككنا في النصر قط ، إنه لنا .

إننا لن نغلب ، وعندنا مستودع ذخائر وقوى ، يكفي لهذه الحرب مهما طالت وقست ، ويكفي لتحرير كل بلد إسلامي ، ثم السير به صُعُداً في طريق العلاءِ .

مستودع ظاهر مكشوف يراه الفرنسيون ولكنهم لا يستطيعون أن ينالوه بسوء ، لأن عليه حافظاً قوياً لا ينام .

إنه القرآن مستودع ذخائرنا ، ومصدر قوانا ، والحافظ الله ﴿ إنا نحن نزَّلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ . ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ .

وأننا على طريق النصر ، إن الذي تمَّ في هذه السنين العشر ما كنا والله نظن أن يتمَّ في مئة سنة .

لقد استقلَّت اندنوسيا وصارت دولة فيها ثمانون مليونا .

واستقلت باكستان وصارت دولة فيها ثمانون مليونا .

وخرج الفرنسيون من الشام وما ظننتم أن يخرجوا ، وطرد كلوب من الأردن ، وجلا الانكليز عن القناة ، ثم أُمِّمَتْ القناة على رغم أهل الأرض ، واستقلَّت مراكش وتونس وطرابلس ، وهاهي ذي الجزائر تفعل في ميدان البطولات ما لم نسمع بمثله في التواريخ .

هذه الجزائر من كان يظنُّ أن الجزائر التي لبث فيها الفرنسيون قرنا وثلث قرن وكنا نرى أبناءها في جيش الانتداب فنحسبهم من الفرنسيين ، من كان يظن أنها ستقوم على فرنسا ؟.

ومن الذي أقامها ؟

ما أقامها والله إلا الإسلام ، من أهل الجزائر ألف ابن بلاَّ .

من كان يظن قبل أن يثور عبد الكريم أن عبد الكريم يستطيع أن يحارب دولتين ويواجه جيشين فيهما مئتان وخمسون ألفا ؟

من كان يتصور قبل أن ينهض عبد القادر ، أن عبد القادر يستطيع أن يحارب

فرنسا سبع عشرة سنة ، ويقيم في الجزائر حكومة ، يضع لها القوانين ، ويرسي لها الدعائم ؟ .

ومن قبل ، أما فعلنا الأعاجيب ؟ .

لما نظر عمر في وجوه الصحابة فقال لسعد بن أبي وقاص تعال أنت ، إني مرسلك لتحارب رستم أعظم رجال الفرس العسكريين ، وسعد ، ما درس في مدرسة عسكرية ، ولا حضر معركة ، ولكنه درس في مدرسة محمد ﷺ ، فظفر سعد برستم وبدولة رستم ، وخلَّد في القادسية مجداً لا تبليه الليالي .

ومثل سعد أبو عبيدة والمثنّى ، وعمرو ، والقواد الذين كانوا الأحاجي في تاريخ الحروب ، قتيبة ، والمهلَّب وابن القاسم»وموسى ، وطارق .

إن أمة ولدت عشرة آلاف بطل ، ليس لفرنسا عشرة فقط من وزنهم ، لا يعجزها إذا أسِرَ ابن بلاًّ ، أحسن الله خلاصه ، وأجزل ثوابه ، أن تخرج ألف ابن بلاًّ .

فلا تحسبوا أنكم صنعتم شيئاً ، ما صنعتم إلا أن أخرستم كل لسان على طرفيه بقية كلام في تحسين الظن بكم ، والأمل فيكم ، وجعلتم المغرب كله ، والمشرق الإسلامي من بعده ، ناراً تتلظّى عليكم ، وجهنّم مفتحة أبوابها لكم .

فلا تقولوا ، خلا بأسر ابن بلاًّ العرين .

لا تقولوا خلا العرين ألف ليث إذا العرين أهابا
فاجمعوا كيدكم وروعوا حماه إن عند العرين أسْداً غضابا

في افتتاح اسبوع الجزائر

ألقيت في الحفلة الكبرى وأذيعت

شكراً يا سادتي وعذراً ، فإن هذي التحية النبيلة ، هذا التصفيق الذي ينبعث من القلب هزةَ حُبٍّ تحرك الأعصاب وتطلق الأيدي لتستحق خطبة من تلك الخطب العبقريات ، التي تبدِّل نفوسا بنفوس ، وتحوِّل من حال إلى حال وتتلاعب بالأفئدة والقلوب وتسعِّر الدم في العروق ، وتصبُّ العزم في الأعصاب .

وليس عندي الليلة شيء من هذا ، ما عندي ما أستحق به تحيتكم ، لا لأني شِخْتُ وعجزت وغاض بياني وكلَّ لساني ، بل لأني مُنِعت يا سادتي ، أشهدكم على أني منعت من أمثال تلك الخطب .

لا تسرعوا بالعجب ، بل فاسمعوا السبب .

كان الفرنسيون في كل مكان من بلاد الشام ، وكانوا هم السادة ، وكانوا هم القادة ، لهم في كل دائرة مستشار والمستشار هو الحاكم ، ولهم في كل قرية جند ، وعلى كل أكمة قلعة ، وكانت الحكومة منا ولكنها معهم ، فكنا نخطب فنهجم على الحكومة ونثير الشعب على الفرنسيين ، فيصفق لنا الناس ويحملونا على الأعناق .

فأجلي الفرنسيون عن ديارنا ، وصارت الحكومة منا ولنا ، فلم يبق لنا ما نخطب فيه فامتنع عليَّ الكلام وانقطعت أرزاقنا .

فقلنا ، لئن مُنعنا من الكلام في شمال الشام ، فَلْنمش إلى جنوبيه ، إلى الأردن ، فكنا نسبُّ هناك كلوب ، ونطعن على الحكومة التي تأتمر بأمره ، فنشتري بذلك إعجاب الناس وتصفيق المستمعين ، فطردوا كلوب وحرروا البلد ، فقطعوا أرزاقنا ، ومنعونا من الكلام .

فمشينا إلى الحجاز ، فكنا نثير المصلين على ضيق الحرم وسوء الطرق ، فنجد منهم التقدير والإكبار ، فوسعوا حرم المدينة حتى جعلوه آية في الإبداع ، ووضعوا ستمئة مليون ليرة لإصلاح حرم مكة . وخدموا الحرمين في هذه السنوات الأربع ، أكثر مما خدمه ملوك المسلمين جميعاً في القرون الثلاثة عشر التي مضت ، ووسعوا الطرق ، وشرعوا بالإصلاح الشامل ، فلم يعد لنا مجال لمقال .

فرحلنا إلى مصر ، فكنا نهمس في بعض الآذان نسبَّ فاروق ، ونظهر عوراته ، ونطعن على الانكليز ، وكان لنا في ذلك ميدان ، فجاؤوا فطردوا فاروقا ، وألحقوا به الانكليز ، وفعلوا الأفاعيل التي ملأ حديثها الدنيا وشغل الناس .

فأين نذهب ، وماذا نقول ، وهل يستطيع الأديب أن يعيش بلا أدب ولا لسان .

إني أحتج يا سادة باسم الأدب . وأحتج عليكم أنتم بالذات ، فلقد آذيتموني أكثر مما آذاني هؤلاء الملوك والرؤساء .

وقفت فيكم يوم أسبوع التسلح ، ووقفت على هذا المنبر أستحثُّكم وأذكركم فما تركتموني أتم كلامي ، حتى تزاحمتم على صندوق التبرع ، وتدافعتم تتزاحمون لا لتأخذوا بل لتعطوا ، ووقفتم في الطريق في البرد تحت المطر ، تنتظرون أن تفتح لكم الأبواب لتدخلوا فَتُعطُوا ، وعملتم العجائب ، فالفتاة تخلع حليها وتعطيها ، والعجوز تأتي بحجة دارها وتعطيها ، والدركي يجيء براتبه كله فيعطيه ، وتركت الحفلة وذهبت إلى الدار ، ومرَّ نصف الليل والتزاحم على الصندوق لا يزال كما كان ، وكان معي وأنا أستمع أصوات المتبرعين من الراد ، رجل عاقل جداً ، أعني أنه جبان جداً ، وبخيل جداً وأرجو ألا تخبروه أني اغتبته فقال لي : لقد جنَّ هذا الشعب جنون الكرم . . .

ورأيته بعد أيام وإذا هو قد أعطى ابنه مئة ليرة ليتبرع بها في المدرسة ، وبنته مئة ، وتبرع هو بثلاثة آلاف ، ثم بثلاثة آلاف ثم بثلاثة آلاف متحمساً يرغب الناس في البذل .

فضحكت وقلت له : « هل وصلت إليك نوبة الجنون » ؟.

قال : يا أخي وهل يجوز الإمساك اليوم ، والعدو على الأبواب ، وانطلق يخطب . . .

ولقيته أمس مصادفة ، فذكّرته بالقصة ، وقلت له : هل تراك تجنُّ هذا الأسبوع مرة أخرى ؟

قال : لا تضحك فوالله لقد وجدت المكأفاة في الدنيا قبل الآخرة ، كانت بنتي عليلة كما تعلم ، قد عجّزت الأطباء وكنا ندفع لعلاجها أكثر من مئتي ليرة في الشهر ، فَشُفيت وصحّت ، وكنت أنا وأهلي في خصام مستمر فحل الوئام محل الخصام ، وكان في قلبي الخوف دائما من الفقر والرغبة في المال ، فأراحني الله وأزاح عني هذا الغمّ ورزقني السماحة والرضا ، وأزيدك لقد ربحت بدل العشرة آلاف التي دفعتها أربعين ألفاً في هذه الأشهر.

قلت : بقي لك كثير- لم تربح الربح القانوني ،

قال : كيف ؟ لقد ربحت أربعمئة في المئة .

قلت : قانون المصرف الذي عاملته ، أن المئة تربح سبعين ألفا ، .

قال : ماذا تقول ؟

قلت : هذا قانون المصرف الإلهي ، أتحب أن تسمع نص المادة ، الفقرة الأولى ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة ﴾ وهناك زيادات بيّنتها الفقرة الثانية ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ أي أنه يمكن أن تربح بالليرة ألفا وأربعمئة على الأقل .

فهل في الوجود أربح من هذه التجارة ؟ والمصرف مأمون لا يُفلس ولا يأكل حق أحد .

والخلاصة أنكم آذيتموني في أسبوع التسلح وفضحتموني .

فإذا كنتم تريدون أن تفضحوني هذه المرة أيضاً فخبروني من الآن لأريحكم من

كلامي وأستريح ، وما فائدة الدرس إذا كان المتعلم أعرف به وأسبق إليه من المعلم ، وإذا كنت أقول لكم أَلِفْ فتسبقون فتقولون بَاءْ فأقول باء فتقولون تاء .

ندعو دمشق للإضراب فتضرب دنيا العرب كلها ، من مراكش إلى الخليج .

لا بل إلى باكستان وأندنوسيا ، فلا يبقى لكلامنا وخطبنا معنى . ونقول للحكومة اهتمي يا حكومة بأمر القناة ، فيأتي الوزير حومد فيقول باسم الحكومة أكثر مما نقول نحن ، ويصرح بما لم نصرح به نحن .

وهذا يا سادة قضاء على الأدب وقتل للأدباء .

عيب الأدباء أنهم يتخيلون فيرتفعون عن الواقع ، فصرنا لا نستطيع مهما تخيَّلنا أن نسمو إلى الواقع ، لقد سبقت أفعالكم أقوالنا ، وزادت حقيقتكم على خيالنا .

وهل أستطيع مهما تخيلت ، أن أقول أكثر مما قال وزير خارجية ليبيا لسفير أمريكا .

قال له : إن واجهتم مصر بالقوة ، ضربنا أكبر قاعدة حربية لكم ، فَشُده السفير ، وقال : هل هذا تهديد ، وباسم من تقوله ؟

قال : نعم إنه تهديد ، وأنا أقوله باسم الشعب والملك والحكومة . فهل بعد هذا زيادة لخطيب متحمس أو أديب ذي خيال . فإذا كنتم عازمين ان تصنعوا في هذا الأسبوع مثل صنيعكم في أسبوع التسلح أو نصفه أو ربعه ، وربعه شيء عظيم ، فأرجو أن تنتظروا قليلا ، انتظروا حتى نقول شيئاً معشر الأدباء ؛ لندَّعي بعدُ أن كلامنا وبياننا هو الذي صنع هذه المعجزات .

وما يضركم أن نغذي انفسنا بالأوهام ؟

وبعد فاسألوا الله العون ، فهذا الذي قلته كله مقدمة الكلام ، وهأنذا أبدأ الآن .

وما أريد أن أخطب خطبة تتلظَّى بالحماسة ، ولا أريد ان أحاضر محاضرة

تضجُّ بالأرقام ، ولكن أريد أن أجلو لكم لوحة واحدة ، تبدي لكم بالخطوط الكبار ، لا بالتفاصيل والظلال ماذا في الجزائر اليوم .

وإن وجدتموني أعيد شيئا مما قاله الأخ الأستاذ الجزائري فاغتفروا لي هذه الإعادة ، وإن كان أثقل الكلام الحديث المعاد .

ياسادتي :

لو كان مقامي الليلة في القاهرة أو في بغداد ، لوجدت مشقَّة في عرض صورة الحياة في الجزائر اليوم ، لأن القوم هناك لم يجربوا فرنسا ولم يعرفوا منها إلا وجهها الثاني ، فرنسا ذات وجهين ، الوجه الذي يتمثل فيه أدب الحرية ، أدب روسو ولامارتين وهوغو وتتمثل فيه مباحث علماء القانون ، وأعيان الفكر ، والوجه الحقيقي الذي قابلتكم به في ميسلون ، ثم في الغوطة التي كانت خضراء بالرياض ، فجعلوها حمراء من مهرق الدماء .

فاذكروا ما كان في الثورة ، وارسموا صورتها في أذهانكم ، وكبروها مئة مرة تروا صورة الجزائر في هذه الأيام .

أعرض لكم لوحة صغيرة من لوحات الثورة ، كنت كتبت فيها قصة نشرت في مصر من ثمان وعشرين سنة ، ولكني لن أعرض القصة بل الحادثة .

كنت يوما في بسِّيمة في أواخر الثورة ، وكان فيها الأمير الشاب البطل عز الدين الجزائري ، سِبْطُ شيخ الجهاد وبطل الجزائر الأمير عبد القادر ، وكان في عدد قليل من المجاهدين فكانت تخرج له الحملة الضخمة معها السلاح والعتاد ، فيربط لهم فم الوادي ، فيصيد جنودها ويهزمها فتعدو فرنسا على القرى الآمنة فتنتقم لعجزها منها ، فتسوق البرآء من أهلها إلى الموت ، وتذيقهم العذاب قبله ألوانا ، وتهدم البيوت وتنهب الأموال .

وما قتل عز الدين ضعفه ولا قتله قوة الفرنسيين ، ولكن الذي أودى به أنه وقف يوما فوجد القلب حاضراً والسلاح موجودا ولكن ينقصة العتاد ، والبندقية بلا ذخيرة عصاً من حديد ، وتلفَّت حوله فوجد عواطف الناس معه ، ولكن

أيديهم عليه ، فهم ينظرون إليه ولكن لا يمدون إليه يداً بعون ، فقضى شهيدا ، كانت هذه سيرة المستعمرين فينا خلال الثورة ، جبن وهزيمة ونهب وقتل وفجور .

هذي فرنسا بوجهها الآخر ، أعني الوجه الحقيقي .

كبروا الآن هذه الصورة ألف مرة ، تروا أمامكم صورة الجزائر اليوم .

لكن الجزائر اليوم أوعى منا يومئذ ، لقد تقدم بها الزمان ، إن الجزائر تقف صفاً واحدا ، لقد ذابت الأحزاب كلها في جبهة التحرير ، واجتمعت القوى في جيش التحرير .

تصوروا مئة واد كوادي بسِّيمة ، وفي كل واد منها ووراء كل صخرة مجاهدون من جيش التحرير ، في كل مكان في الوعور وفي أصلاد الجبال ، يعيشون مع الصخر حيث لا تصبر جِمال الفلا ، ووحوش البيد ، فكيف بالشقر المخنثين ممن قذفتهم حانات مونمارتر ، يضربون ولكنهم لا يُرون كالأسدِ تعرف أنها في آجامها ولكن من يراها ؟

لا لأنها تَخاف فتهرب بل لأنها تُخاف فيهرب منها ، إنَّ ذِكر المجاهدين يخرط قلوب المستعمرين .

ولقد عرفنا هذا أيام الثورة السورية ، يوم كانت فرنسا لا تحكم إلا بعض دمشق ، وأكثرها مع الغوطة في أيدي الثوار ، وكانت في وسط العقيبة حصن (استحكام) فرنسي فيه ضابط باريزي أشقر ناعم ، كأن رجولته خطأ مطبعي في سجل الحياة ، أو كأنه أنثى متخفية في ثياب رجل ، أحب أن يرى صورة حسن الخراط ، فجاءه أحد ظرفاء الحي بصورة عنتر التي تعلَّق في القهوات ، فلما نظر إلى الصورة ورأى سوادا كالليل ، وعينين تتَّقدان كعيني الصقر ، وشاربين كسارِيتي المركب ، انخرط بطنه وأصابته الزنطارية (الديزانطاريا) فَحُمل من فوره إلى المستشفى .

لذلك يا سادة يلقى هؤلاء المجاهدون مئات الألوف من جنود المستعمرين ، ولذلك يتعاقب النصر فيهم ، وتتتالى الهزائم على عدوهم .

لقد تعلموا درسا جيداً في حروب الهند الصينية ، التي نكسَّت أعلام فرنسا وقضت على ما بقي من أسطورة بطولتها .

ينهزم الفرنسيون في كل معركة في الجزائر ، ولكن البطولة الفرنسية لا تنهزم ، البطولة التي أدهشوا بها الدنيا سنة ١٨٧٠ أمام بسمارك ، وسنة ١٩١٤ أمام غليوم ، وسنة ١٩٣٩ أمام هتلر ، وسنة ١٩٢٥ أمام حسن الخراط ، تبدو هذه البطولة في القرى الآمنة ، وعلى المدنيين المسالمين ، وعلى النساء والأطفال ، وتعود جيوش الاستعمار معقودا بنواصيها الغار ؛ لأنها ظفرت بالأطفال والنساء ، وأصلَتْهم نار المدافع والرشَّاشات ، إنهم يمحون القرى محوا ، ويبيدون أهلها إبادة ، وتحت يديَّ وصف لما جرى في قرية (سكيكده) في إقليم (المقلع) ، لم يكتبه عربي جزائري ، ولكن كتبه فرنسي في جريدة فرنسية .

جاء هذا الصحفي الفرنسي القرية عقب ضربها ، فلم يجد فيها حيًّا واحدا ، ووجد الكلاب تنبح نباحا يقطع نياط القلوب ، تبحث عن أصحابها خلال الأنقاض ، ولو استطاعت البكاء لبكت لهذه المأساة دَمًا ، لقد رقَّت قلوب الكلاب ولم ترقَّ قلوب المستعمرين ، لقد صارت الكلاب أكثر إنسانية من قوم روسو وموسه ولامارتين .

إنهم كلما انهزموا انتقموا من القرى ، فيطوقون القرية ثم يأخذون الرجال فيعذبونهم ، يبتدعون طرقاً في التعذيب لا تعرفها الأبالسة ، ويذبحون أطفالهم أمامهم ، ويعتدون على نسائهم أمامهم ، ثم يقتلونهم جميعا ، إنهم يدمِّرون القرية بأهلها لأضعف الحجج .

أخذ المجاهدون أصابع من الديناميت من منجم العالية ، فَدمِّرت القرية كلها وأبيد أهلها .

وكانت خصومة (خناقة) بين خبَّاز فرنسي ورجل من العرب في قرية (ابن غانم) فصيَّروها قضية ثورة وجهاد ، وسعى بها إلى المستعمرين ، فأبيدت القرية كلها بالمدافع .

وقُتل رئيس الشرطة في قسطنطينة فقَتَل ابنه ستة من العرب بالسلاح الرسمي ، وجرح أربعة ، فاختارت السلطات المستعمرة ثلاثة عشر من كبار أهل البلد ، منهم الأديب المعروف مدير جريدة الشعلة وعضو جمعية العلماء أحمد رضا حوحو ، ومنهم نواب في المجلس البلدي ، وساقوهم مشياً إلى المعتقل ، ثم رأوا أن الاعتقال والتحقيق أمر متعب ، فقتلوهم جميعا بلا تحقيق ولا محاكمة ، ولما ثار الناس عليهم اعتذروا بأنهم قُتلوا خطأ .

يا سادتي : إن المصائب حينما تكبر يعجز الفكر عن تصورها ، وأنا أخشى أن تمر بكم هذه الأخبار فلا تعرضوا في أذهانكم تفاصيلها لهولها وعظمها .

إن اللص ينزل على دار من الدور فتصيح المرأة ، ويبكي الطفل ، ويرتاع الجيران ، وإن النار تَشِبُّ في غرفة من الغرف فيضطرب الحي وتزلزل المنطقة كلها ، وما هي إلا نار تنطفيء أو لص ينهزم ، فتصوروا مايصيب هؤلاء الناس حينما تفاجئهم وسط الليل وهم آمنون في دورهم ، المدافع ترجُّ بهم الأرض ، والطيارات تصبُّ عليهم الحمم ، والدبابات قد صارت وسط دروبهم ، والجند قد دخلوا بسلاحهم إلى غرف نومهم ، فيطيش الرجل عن أهله ، ويقتل الأب أمام بناته ، ويُنال من البنت بحضرة أبيها والمرأة بعين زوجها ، وإن هرب المرء لحقه الموت ، وأين المهرب من النار وقد تفتحت أبوابها من كل جانب ؟

وإن أفلت ولد من الموت عاش باليتم حياة ليست خيرا من الموت ، وإن نجت امرأة عاشت تتجرع حزنها على زوجها وولدها ، وقاست مرارة الحاجة وذلَّ السؤال .

هذا مايجري اليوم في الجزائر .

لقد سُنَّ فيها قانون فاجر ، لو صدر مثله عن جنكيز أو عن قبائل الهون في ذلك الزمن البعيد لقال التاريخ إنهم تأخروا عن زمانهم ، وانحطُّوا به عن رتبة أمثالهم ، فكيف وقد أصدره الفرنسيون ، أحفاد من نادوا بحرية المساكين في القرن العشرين ؟

قانون يسوغ لجنود فرنسا ، حتى الأخلاط منهم الذين هم حثالة كل أمة أن يدخلوا كل دار من الدور ، في كل ساعة من ليل أو نهار ، فجأة بلا إنذار بحجة التفتيش عن المجاهدين .

وتصوروا ماذا يكون من سرقات ، وماذا يكون من فجور ، ونحن العرب قد نصبر على كل شيء ولكنا لا نصبر على المساس بالعِرْض ، وهذه حقيقة لا تفهمها فرنسا ، لأنه ليس في لغة فرنسا كلمة تترجم بها هذه الكلمة ، ليس عندهم شيء اسمه (عِرض) .

فهل تستطيعون أن تأكلوا وتشربوا ، وتلهوا وتلعبوا ، وتغنُّوا وتطربوا ، وإخوانكم في الجزائر يقاسون هذه الأهوال .

لوكان في الطريق قطَّة تموء من الألم ، أو كان عند الجيران عامل يضرب بمطرقة ، لما قدرتم على المنام ، أفتنامون وفي الجزائر إخوة لكم يهتفون بكم وينتظرون العون منكم ، وتنامون والمدافع تضرب من حولكم ؟

إن في الجزائر إخوة لكم يعيشون في الموت ، ويموتون في الحياة . لا أريد أن تنشروا المناديل وتستدروا الدموع ، ولا أريد أن تُصْعِدوا الزفرات وتنفثوا الأهات .

لا ، وليس إخوانكم هناك هلكى يَسْتَجْدون الدمع ، بل هم بحمد الله أبطال يطلبون المدد ، إنهم أقوياء بالله ثم بكم ، فإن نصرتموهم اليوم بأموالكم ، طهَّروا الجزائر من أرجاس الاستعمار ، ثم جاؤوا يعينوكم على تطهير الحرم من نجس إسرائيل .

إن فرنسا تعرفهم وتعرف بطولتهم ، إن كل نصر نالته فرنسا خلال القرن الذي مضى ، من صنع أيديهم هم ، وهذه حقيقة يقرُّ بها تاريخ فرنسا .

إن معركة (المارن) التي يجعلها الفرنسيون مدار فخرهم ومسار ذكرهم ، إنما كسبها الجنود الجزائريون ، لما طلعت المغربية برؤوسهم فثبتوا للموت حتى فزع منهم فارتد عنهم الموت ، لقد قضى ثمانون ألفاً في هذه المعركة فقط ، لقد كان منهم

في الحرب الأخيرة مليون جندي تحت راية الحلفاء ، إنهم هم الذين طاردوا فهد الصحراء روميل ، وطوحوا به من أرض إلى أرض ، حتى ذهب فمات غمّاً ، وهو نابغة الحروب ورجل الرجال ، هل حسبتم الانكليز هم الذين طاردوه ، متى كان الانكليز يحاربون ؟ إن صناعتهم إضرام نار الحروب وإلقاء الناس فيها ، لذلك أرادو أن يصبُّوا البترول في قناة السويس لما فقدوها فيحرقوا بالقناة العالم .

لقد كان الجزائريون في هذه الحرب الأخيرة في فم المدفع ، وكانوا في وجه النار ، وبذلوا لقضية الحلفاء ما لم يبذل مثله شعب ، إنهم تدربوا في جيش فرنسا ، ولكن ليس لفرنسا عليهم فضل ؛ لأنهم دفعوا أجرة التدريب ، ما دفعوا مليونا وربع مليون فرنك ، لا يا سادة ، بل مليون وربع مليون روح بشرية ، سيق أصحابها لإزهاقها جبراً ، من أجل فرنسا . لقد جاؤوا اليوم يتقاضون بعض هذا الدين .

إن الفرنسيين يخشون المجاهدين لأنهم عرفوهم ونحن لم نعد نخشى فرنسا لأننا عرفناها .

لقد أصابتنا نكسة في آخر القرن الماضي ، حين رأينا أوروبا قوية بعلمها وسلاحها ، ورأينا أننا ضعاف بجهلنا هذه العلوم وفقدنا هذا السلاح .

جاؤونا بوابور الكاز فتعجَّبنا ، ثم بالكهرباء فدهشنا ، ثم بالطيارة فتحيرنا ، ثم درسنا علومهم ، ورأيناهم في بلادهم ، وعرفنا أسرار عجائبهم ، فذهب العجب ، وزالت الدهشة ، وبطل السحر والساحر .

وكنا نظن أنهم لا يغلبون .

فلما صارعناهم بسلاحنا المفلول وعتادنا القليل رأيناهم مغلوبين بأيدينا .

وكان أول من علمني هذه الحقيقة عبد الكريم ، الذي كان ضابطاً صغيراً عند اسبانيا ، لبنة صغيرة في بناء ضخم لا يدري بها أحد ، فلما غضب لله ، وغضب للحق ، وثار في دمه إرث البطولة الذي انتهى إليه من سعد وخالد وعقبة وطارق وابن القاسم ، حارب وحده اسبانيا وفرنسا معا .

فيا سيدي الأمير عبد الكريم تحية وسلاما .

ثم علمني هذه الحقيقة هؤلاء المجاهدون الأحرار ، الذين جعلوا الغوطة غوطتين ، الغوطة التي سُقيت بماء بردى وأنبتت الثمار والأزاهير ، والغوطة التي سُقيت بالدم ، وأنبتت الحرية والاستقلال ، هؤلاء الذين ما هابوا فرنسا يوم كانت فرنسا أقوى دولة برية ظافرة ، ولا قصَّروا في نزالها .

وهاهي ذي مصر اليوم ، وهاهي ذي الجزائر تملي هذه الحقيقة على الدنيا من جديد .

لقد كنا نذكر أمجاد ماضينا ، ونحن نخجل من هذا الماضي ، لأننا لم نكن أهلا له ، حتى إذا كتب المجاهدون في كل بلد ، هذه الصفحات الغر في تاريخ المكارم صرنا نعود للماضي ، ولدينا مثل مفاخر الأجداد في الماضي .

إن الذي يصنعه اليوم المجاهدون في الجزائر، من مظاهر الإيمان ، ومجال البطولات ، مثل الذي صنع المجاهدون الأولون من المسلمين .

والذي عملتموه في أسبوع التسلح ،مثل الذي عمله المهاجرون والأنصار ، لقد تبرع أبو بكر بماله كله ، وعمر بنصف ماله ، فرأينا ذلك الأسبوع من أعاد مكرمة أبي بكر وعمر .

إن تلك الوثبة لو كانت من أمة مرة واحدة في العمر ، لكانت بها أعظم الأمم ولم نسمع بمثلها عن أمة ، ولكن أريد أن تعرفوا أننا في حرب ، حرب ظاهرة وحرب خفية ، حرب مع إسرائيل ومن ورائها الأمريكان في فلسطين ، وحرب مع انكلترا ومن ورائها فرنسا في القناة ، ومع فرنسا ومن ورائها حلف الاطلنطي في الجزائر ، وهذه هي الحرب الظاهرة ، أما الحرب الخفيَّة فهي حرب الاقتصاديات ، وحرب المبادىء الهدامة .

إن تلك براكين ساكنة توشك أن تنفجر ، وهذا بركان متفجر يرمي بالنار والحمم على إخوانكم .

وإن المال الذي يأخذه منا الغربيون ، ثمن سيارات البذخ ، وأحمر الشفاه ،

وعطر الإغراء ، وهاتيك السموم التي اسمها الشمبانيا والويسكي ، كل ذلك يتحول ثمن رصاص يستقر في صدور هؤلاء الإخوان ، وثمن قنابل تدمر دورهم وقراهم .

فهل سمعتم بأمة تعين عدوها على نفسها ؟

هل سمعتم بأمة تعيش في الحرب مثل عيشها في السلم ؟

هل سمعتم بأمة تنام على دوي المدافع ؟

هل سمعتم بأمة تغني على أنين المحتضرين من أبنائها ، وترقص على قبور شهدائها .

هل سمعتم بأمة ترسل أولادها ، وقلوبهم كالصفحات البيض ، إلى مدارس عدوها إلى الفرير والفرنسيسكان واللاييك . . . لينقش المعلمون فيها على هذه القلوب لعنَ أمتهم والكفر بها وبأمجادها ؟.

إنها أيام حرب ، فلنعش عيش الحرب .

ولنتقاسم بالله ، على أن نقاطع مدارس الأعداء وبضائع الأعداء ، وليعط كل منا ما يقدر عليه ، فإن ما تدفعه قد يحرمك هذا الشهر من الكماليات ، وقد يدخل عليك بعض الضيق ، ولكنه يحيي في الجزائر نفوسا ، وينقذ من الاستعمار بلدا عربيا ، ويدفع الأذى عنكم أنتم ، فإن فرنسا ، وأنتم أعرف بها ، إن فرنسا إن ظفرت لا سمح الله ولا قدر في الجزائر لتعودنَّ على مراكش وتونس ، ولترجعنَّ إليكم إذا قويت بضعفكم وتخاذلكم . والثواب بعدُ مضمون من الله ، وإن الرزاق هو الله ، وما تدفعونه وتنوون به وجه الله فإن الله يخلفه .

يا أهل الشام ، هذا أسبوع الجزائر ، الجزائر تناديكم .

المجاهد الذي فقد الذخيرة ، وأحاط به الأعداء ، وتلقّفته نيرانهم يسقط وهو يهتف بكم ويناديكم ، المرأة التي أرادوها على الخنا ، وفقدت من حولها النصير ، تفكر فيكم وتناديكم .

الطفل الذي خرج من المأساة وحيدا ، قد نجا بأعجوبة من أعاجيب القدر ، يمشي يتعثر وحيداً جائعاً ، ويمد يده من وراء حجب الصحاري والبيد يناديكم .

تناديكم أمجاد الماضي ، وآمال المستقبل .

العروبة تناديكم ، والأخوة ، والكعبة التي تتوجهون إليها ، والأرض والسماوات ، فاسمعوا النداء ، نداء الأرض الحرة التي أراد أن يستعبدها الظالمون ، نداء العِرْض المصون الذي يعدو عليه الظالمون ، نداء الدين والفضيلة والشرف والإنسانية .

هذا أوان الثأر فاثأروا لميسلون ، اثأروا لضحايا الغوطة والجبل ، اثأروا لدمشق التي ضربها هؤلاء المستعمرون بالمدافع مرتين في ربع قرن ، فدمروا أجمل أحيائها ، وقتلوا زهرة أبنائها .

وبعد أيها السادة :

فلقد افتتحت هذا الحديث بذكر الأمير عز الدين الجزائري ، فدعوني أختمه بذكر الأمير عبد القادر الجزائري ، هذا المجاهد البطل الذي بسط يده على الجزائر خمس عشرة سنة ، يد تحمل المصحف وتؤسس على التقوى الحكومة الحرة العادلة ، ويد تحمل المسدس وتدفع عن البلاد القوى المعتدية الظالمة ، فلما نخر سوس الخيانة في أساس هذا الصرح ، واضطر إلى الهدنة ، أرادوه أن يسلم سيفه ومسدسه .

وكان أبداً يصحب مصحفه لا يفارق خيمته ، وكان أبداً يحمل مسدسه لا ينزل عن عاتقه ، فأبى أن يسلم سلاحه ، وقال : لن أدع المعلمين في فرنسا يقولون لتلاميذهم وهم يزورون المتحف ، انظروا هذا هو مسدس عبد القادر .

وبذلت المتاحف الفرنسية النفائس لتحظى بهما فلم تصل إليهما ولكن أنا وصلت إليهما .

هذا هو مصحف الأمير عبد القادر ، وهذا مسدس الأمير عبد القادر ، هذا الذي كانت تنطلق الرصاصة منه فتفتح من بعدها عشرات الآلاف من البنادق ،

في تلك المعارك الطاحنة التي لا يزال التاريخ مشدوها من خبرها ، هذا الذي أبى الأمير أن يسلمه لفرنسا ، يسلمه حفيده لأسبوع الجزائر .

لما كلفتني اللجنة فشرفتني بالكلام في هذا الاحتفال ، فكرت في شيء له قيمة معنوية أفاجيء به الناس ليطرح للمزايدة لا ليانصيب ، اليانصيب حرام قطعاً ، فقصدت الأمير سعيد ففتح لي صندوق مخلفات جده الأمير عبد القادر ، وخيّرني أن أحمل منها ما أشاء ، فحملت المصحف والمسدس وجئت بهما .

إن الأمير سعيد ليس بالرجل الغني ، وإني أقول لكم ، إذ كان يسمح ، إن أملاكه مرهونة ، وإنه يستطيع أن يبيع هذه المخلّفات إلى المتاحف الفرنسية بنصف مليون ليرة ، ولكن الأمير سعيد الذي يحترق شوقاً إلى الذهاب إلى الجزائر ليجاهد مع المجاهدين ، وهو ابن ثمانين ، لا يبيع مخلفات جدِّه لفرنسا ولو دفعت له فيها عشرة ملايين ، ولو بات على الطوى .

إنه تبرع بهما لأسبوع الجزائر .

ولو كانت هذه الحفلة للتبرع ، لافتتحت المزايدة الآن ،ولكن اللجنة لم تر التبرع فيها ، فأنا أضعها بين يدي اللجنة ، وأرجو أن ينتهي بهما الطريق إلى يد أمينة لا يتسربان منها إلى بلد أجنبي ، بل إلى متحف عربي ، أو إلى ابن بلا ، قائد جيش التحرير ، يُهديان إليه ليطلق آخر طلقة وراء الاستعمار الراحل ، بالمسدس الذي أطلقت منه أول طلقة في وجه الاستعمار الداخل .

الفهرس

الموضوع	الصفحة